كتاب اليوم

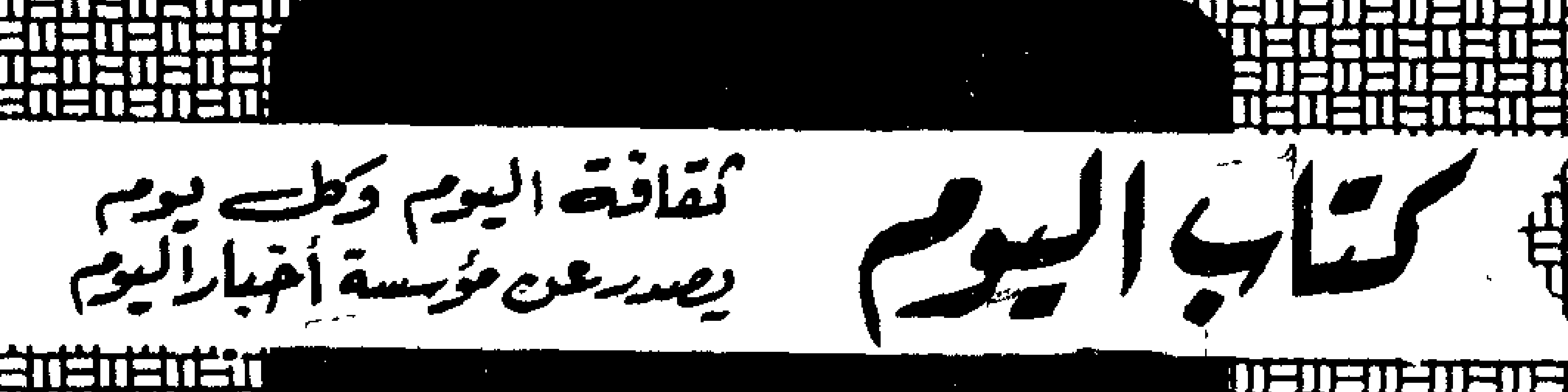
يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم

محمد كامل سليم

ثورة ١٩١٩

كما عشتها وعرفتها





رئيس مجلس الإدارة :
علي أمين
رئيس التحرير :
أمين محمد عدلي
نائب رئيس التحرير :
عبد العزيز عبد العليم
مدير التحرير :
حسين فريد
العدد ٩٥
مايو ١٩٧٥
ربيع الثاني ١٣٩٥
الإدارة : دار أخبار اليوم ٦ شارع الصحافة ت ٧٧٧٧٧ سبعة خطوط

الاشتراكات

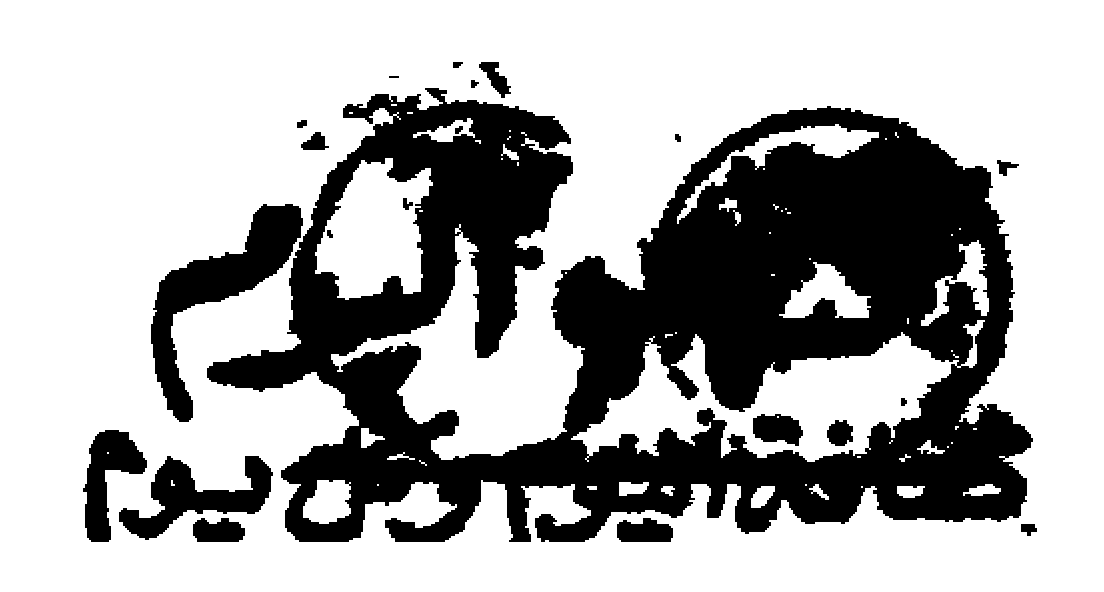
البريد العادي	المجموعة الأولى ٥٠٠ ,١ ج ٠٤٠ ع اتحاد البريد العربي والأفريقي
	المجموعة الثانية ٢,٣٠٠ باقي دول العالم ..
	المجموعة الأولى ٢,٣٠٠ اتحاد البريد العربي والأفريقي
	باقي دول العالم ..

الصحافة بالقاهرة ت ٧٧٧٧٧/٧٧٨٦٠

اهداءات ٢٠٠٠

المهندس/ راداميس اللقاني

الإسكندرية



ثورة ١٩١٩ كما عشتها وعرفتها

بقلم محمد كامل سليم

يصدر عن مؤسسة أخبار اليوم بالقاهرة

الغلاف بريشة الفنان :
محمود مصطفى

الاشراف الفنى :
سعيد عارف

سكرتير سعد زغلول

بقلم : مصطفى أمين

تلقيت خطابا من الاستاذ محمد كامل سليم يقول فيه :

« عزيزى مصطفى امين وعلى أمين ..

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما ، يظنان كل الظن ألا تلاقيا ..

وها نحن أولا نجتمع مرة أخرى فى رحاب الذكرى العطرة للزعيم الخالد سعد زغلول .

رايتكما اول مرة طفلين صغيرين ، والزعيم سعد يداعبكما ، فى حديقته بمسجد وصيف ، وأنا سكرتيره الخاص جالس معكم ، أسمع ، وأرى ، واستمتع فى جو البراءة والحب والحنان .

فى هذه الاوراق بيان لما فى رقبتى من دين نحو الزعيم سعد زغلول ، ونحو بلادى مصر العزيزة . سجلت فى هذه الاوراق حقائق ووقائع لا ريب فيها ، بكل امانة وصدق .

والله يحفظكم ويرعاكم » .

المخلص

محمد كامل سليم

وقد عرفت سكرتير سعد زغلول وكاتم سره الاستاذ محمد كامل سليم فى عام ١٩٢١ ، منذ أكثر من ٥٤ عاما ! كان شابا رقيقـا أنيقا ، يفيض نشاطا وحيوية • نحيف الجسم • طويل القامة • جم الادب • الابتسامة لا تفارق شفتيه • يجد دائما كلمة حلوة يقولها للخادم وللزائر ، للصغير والكبير • فلا تعرف أيهما العامل وأيهما الباشا • فهو لا يميز فى ملاطفته للناس بين الطفل والوزير• يبدو وكانه يحب الناس جميعا ، ويرحب بهم جميعا ، وينتظرهم جميعا • واذا امتلأت غرفة انتظار سعد زغلول بالزوار ، طاف عليهم جميعا بكلمات حلوة ، كأنها فناجين القهوة أو عصير الليمون !

وكنا يومها نقيم فى بيت الامة مع سعد زغلول ، أو نسافر معه الى عزبته فى مسجد وصيف اذا شاء أن يعتكف ليستعد لهجـوم وطنى جديد • وكان كامل سليم دائم التنقل بين غرفة السكرتير وغرفه الزعيم • وكان أكثر ما يذهلنا فى سعد زغلول فى طفولتنا أنه كان فى الستين يعمل فى نشاط شاب فى العشرين • لا يتوقف عن العمل وعن القراءة وعن الكتابة وعن استقبال زعماء الثورة • وكان سعد يعمل فى كل وقت • اذا تناول غداءه حرص على أن يكون معه عدد من أنصاره يتبادلون الحديث أثناء الطعام • واذا تناول عشاءه حرص أن يستبقى عددا من زعماء الثـورة يتفق معهم على الخطط والقرارات • بل قد يعجب الناس أنه كان اذا ذهب الى دورة المياه صحب معه الصحف ، يقرأها ويعلق عليها ! وكان اذا انتهى من اعداد بيان قال لنا « هاتوا كامل » فنسرع الى كامل سليم ونستدعيه ليملى سعد زغلول عليه قراره أو بيانه الى الشعب • وكنا نلاحظ أن الزعيم يسأل كامل سليم بعد أن يمليه البيان رأيه فيه • فلم يكن يجد غضاضة وهو زعيم الامة أن يعرف رأى سكرتيره الشاب الصغير ، ويستمع الى ملاحظاته وأحيانا الى نقده !

وعندما توفى سعد زغلول فى عام ١٩٢٧ دخلت غرفة مكتبته فى بيت الامة ، ووجدت اثنين من موظفى مجلس النواب الذى كان

سعد زغلول رئيسا له ، يرتبان المكتبة ، ووجدت فى « سبت الزبالة » بالمكتب عددا من الكشاكيل والكراسات الملقاة بلا اهتمام ••

وسألت الموظفين عن هذه الكشاكيل ، فقالوا انها كشاكيل بيضاء كانت ملقاة بين الكتب ، ولا قيمة لها ، وقد القياها فى سلة « الزبالة » حتى يجىء الخادم ويأخذها مع الاوراق التى لا قيمة لها •

وجلست فى المكتبة أقلب فى الكشاكيل والكراسات الخالية •• وذهلت بعد أن قلبت عشرين صفحة بيضاء عندما وجدت أن بعدها تبدأ مذكرات سعد زغلول !

ووجدت أن الكشكول ينتهى بعدد من الورق الابيض الخالى من الكتابة ••

وكنت أعرف طريقة سعد زغلول فى كتابة مذكراته ، فقد كان يتوقع أن يفتش الانجليز بيته فى أى لحظة ، ولذلك كان يتعمد أن يترك أوراقا بيضاء فى أول كل كراس وفى نهاية كل كراس ، حتى اذا وقعت فى يد غريبة توهم أنه كراس أبيض غير مستعمل !

وهكذا كادت أهم مذكرات لزعيم مصرى فى القرن العشرين تضيع وتلقى فى سلة المهملات !

وحملت هذه الكراسات والكشاكيل الى السيدة الجليلة صفية زغلول أم المصريين • وسلمتها المذكرات فطلبت من وصيفتها فريدا كابس أن ترقمها كلها • وكانت بين هذه الكراريس كراريس بامضاء محمد كامل سليم ••

وخاصة الكراسة التى تحوى مذكرات سعد عن محادثاته مع ملنر فى سنة ١٩٢١ ومذكراته التى تحوى محادثاته مع رامزى ماكدونالد رئيس الوزارة البريطانية سنة ١٩٢٤ عندما كان سعد زغلول رئيسا لوزارة مصر •

وقد تخرج كامل سليم في مدرسة المعلمين العليا ، وبدا حياته العمليه مدرسا فوديلا هناظرا ٠

وفي سنة ١٩٢٠ أرسل سعد زغلول من باريس حيث كان يحاول عرض قضية مصر على مؤتمر الصلح ، أرسل الى عبد الرحمن فهمي رئيس الجهاز السرى في مصر ، يطلب اليه اختيار شاب كفء يجيد العربيه والانجليزيه ليكون سكرتيرا خاصا له في باريس ٠

وكان اختيار شاب ليتولى مثل هذا المنصب الخطير الدقيق ، وهو سكرتير زعيم الثوره ، يحتاج الى بحث ورويه وفحص ٠٠ وخرج اعضاء الجهاز السرى واعوان عبد الرحمن فهمي يبحثون سرا عن شخص مؤمن يمكن أن يقوم بهذا العمل الخطير ٠

وتقدموا بعدة أسماء ٠٠

واختار عبد الرحمن فهمي ، الشـــاب كامل سليم ٠٠ وعرض الاسم على سعد زغلول في باريس فوافق عليه ٠

وعمل كامل سليم سكرتيرا خاصا لسعد زغـلول مدة خمس سنوات ثم عينه رئيسا للادارة التشريعيه بمجلس النواب ، واختاره للسفر معه الى لندن كسكرتير خاص عندما بدات مفاوضاته مع مكدونالد والحق بعد استقالهوزارة سعد في منصب سكرتير اللجنة الماليه ثم سكرتيرا للنحاس باشا أثناء مفاوضاته مع هندرسون وتولى مهمه الترجمه بين الاثنين ٠

وبعد اقالة النحاس باشا وتولى اسماعيل صدقي رياسة الوزارة نقل كامل سليم ليشغل منصب سكرتير اللجنه الماليه بوزارة المالية ثم سكرتيرا ماليا لوزارة التجاره ثم عين بعد ذلك مـــديرا عاما مساعدا لمصلحه المساحة ثم سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء وبقى في هذا المنصب اثنى عشر عاما وعمل مع رؤساء الوزراء محمد محمود ٠ على ماهر ٠ حسن صبرى ٠ حسين سرى ٠ محمود فهمي

النقراشي • ثم عاد الى مجلس النواب كسكرتير عام له أثناء رياسة عبد السلام فهمي جمعة للمجلس ، حتى اذا تولى احمـــد ماهر رياسة الوزارة اعاده سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء •

واذكر انه في عام ١٩٤٨ فكر في الاستقالة من منصبه كسكرتير عام مجلس النواب ، واقترح على الشمسي باشا رئيس مجلس ادارة الاهرام تعيينه رئيسا لتحرير الاهرام • وكانت خبرته وثقافتـــه وعلاقاته الوثيقة بزعمـــاء مصر واجادته اللغة العربية واللغة الانجليزية كل ذلك يؤهله لكي يكون رئيس تحرير جريدة يوميـــة كبرى ••

ولكنه فضل أن يبقى سكرتيرا عاما لمجلس النـــواب ، الى ان اختارته مصر ممثلا لها في المجلس الاستشاري لليبيا الذي اشرف على تنفيذ قرار الامم المتحدة الذي مهد لاستقلال ليبيا •

وكنت عضوا معه في اللجنة التي اختارها وزير الارشاد لكتابة تاريخ ثورة ١٩١٩ ، وكان معنا في هذه اللجنة الاستاذ محمود سليمان غنام وزير التجارة الاسبق ••

واذكر أن هذه اللجنة لم تجتمع سوى مرة أو مرتين ، ثم بقيت اكثر من خمس عشرة ســنة دون ان ندعى للانعقاد مرة واحدة !

وكنت اعرف ان كامل سليم كتب يومياته عن ثورة ١٩١٩ كما عاشها وعرفها ودرسها من أقرب مكان الى قيادة الثورة ، وهـــو مركز السكرتير الخاص لسعد زغلول زعيم الثورة !

وفكرت في ان أطبع هذه المذكرات في كتاب ، وقالت مراكـــز القوى بان الكتابة عن سعد زغلول من الممنوعات ! وان من الممكن نشر مثل هذا الكتاب اذا كان يقلل من قيمة سعد زغلول ، أو يقول انه ليس زعيم ثورة ١٩١٩ !!! ••

ثم حدث بعد ذلك ان بذلت محاولات للاستيلاء على مذكـــرات كامل سليم واخفائها !

وصدر قرار بالاستيلاء على مذكرات كامل سليم !

واتصل وكيل وزارة الارشاد بكامل سليم يطلب منه تنفيذ القرار وتسليم المذكرات !

وقال كامل سليم انه ليس عنده مذكرات ، وانما لديه كتاب عن ثورة ۱۹۱۹ مستعد أن يقدمه للوزارة لتطبعه !

وطلب منه وكيل الوزارة أن ينتظر قرارا بالطبع !

ومرت سنوات وسنوات دون أن يصدر القرار ..

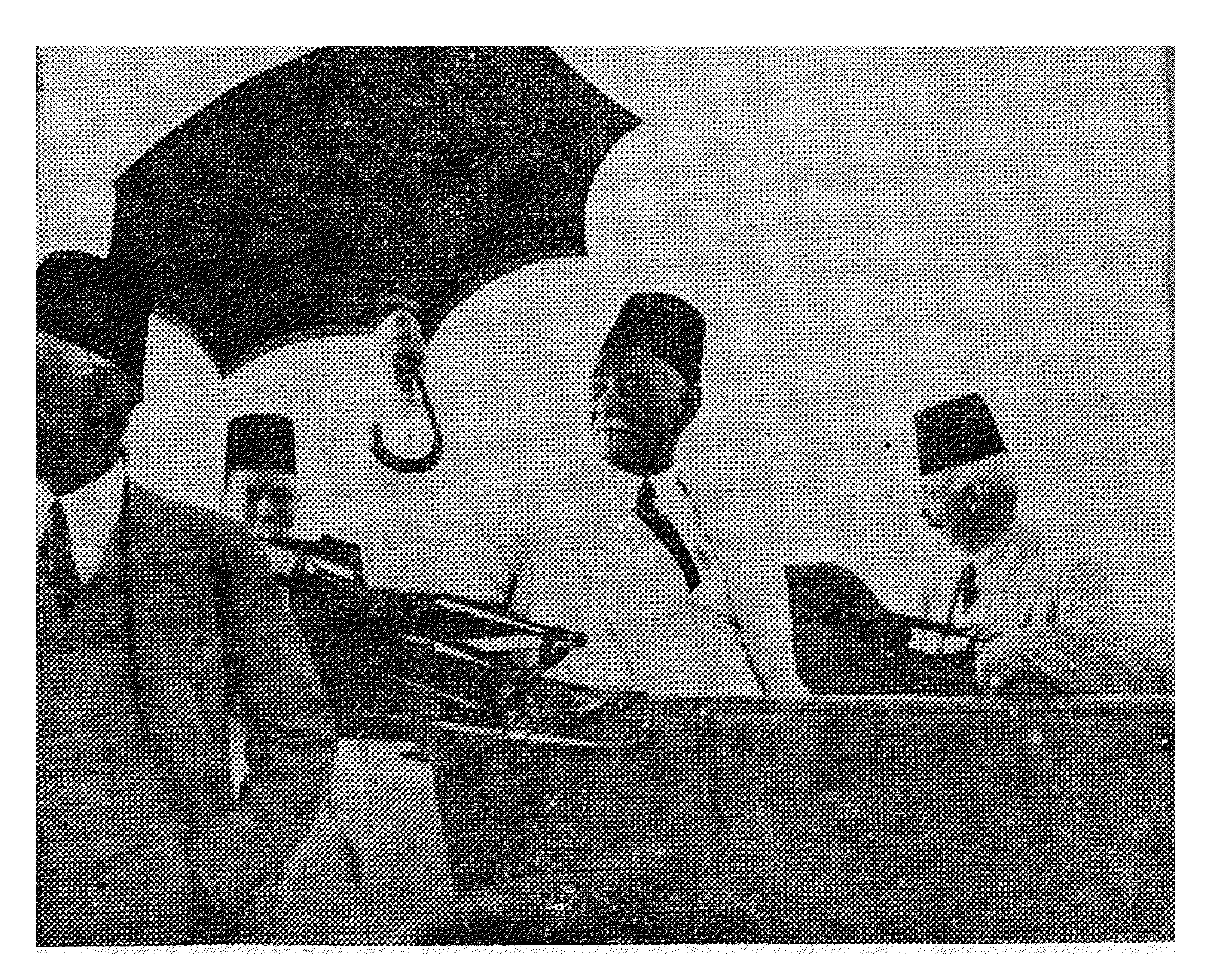
واخفى كامل سليم مذكراته فى مكان مجهول ..

ثم جاء ٦ اكتوبر .. وأعلن أنور السادات عصر العبور الى الحريات ..

وخرجت مذكرات كامل سليم من الظلام الى النور ..

وهذا هو الجزء الاول .

مصطفى أمين



سعد زغلول كما عرفته

رجلا وزعيما وسياسيا

فى أوائل سنة ١٩٠٧ ، رأيت أول مرة فى حياتى سعد زغلول ، وكان وزيرا للمعارف العمومية ، وكنت تلميذا فى السنة الرابعة الابتدائية ، زار رحمه الله المدرسة المحمدية ، وعرج على الفرقة التى كنت فيها أثناء درس فى النحو • ساد الجو رهبة وروعة لم أشعر بمثلهما قبل ذلك ، وبدا على الشيخ المدرس ارتباك تجلى فى قوله : « الاسماء المركبة تركيبا مزجيا مثل حضرموت » وكتب الكلمة على السبورة • فقال له سعد باشا : « ألا تذكر كلمة غير هذه يا استاذ » ، وابتسم رحمه الله وسار بين صفوف التلاميذ مخترقا الصف الاول والثانى، ووقف أمامى وقال: « أتستطيع أن تسمعنى شيئا من محفوظاتك يا شاطر ؟ » • فقلت : شعرا أم نثرا ؟ فقال : « اسمعنى ما تشاء » • فقلت على الفور :

« حقا لقد انجز الاقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وان المجد لفيما بعده » •
وهنا قاطعنى سعد باشا مبتسما وقال « عفارم ، كفى يا بنى ، هذا ذوق بديع وقال حسن ، وانى ارجو ان اراك فى المستقبل بعد ان تتم تعليمك العالى » •
فشاركته الرجاء ممزوجا بالدعاء •

وقد حققت الايام رجاءه ، واستجاب الله دعائى ، اذ فى أواخر سنة ١٩١٩ وقع الاختيار السعيد على أن اكون سكرتيرا خاصا لسعد زغلول رئيس الوفد المصرى بباريس • وكنت قد فرغت من تعليمى العالى منذ بضع سنوات ، واشتغلت مدرسا فوكيلا لمدرسة ثانوية • وصلت الى باريس ولم تمض ساعة واحدة حتى كنت أمام البناء الشامخ رقم ٣٩ شارع الشانزليزيه ، حيث يسكن زعيم مصر • لم اتخذ المصعد لصعودى ، وانما آثرت أن أستخدم قدمى الى الدور الثالث ، كمن يؤدى الحج مشيا على الاقدام ، أو ينذر الصوم فى غير شهر الصيام • هذه روحانيات لايفهمها كثيرون ، بل لعلهم منها يسخرون •

ووقفت أمام الباب المنشود هنيهة ، ثم قرعت الجرس ، ففتحت الباب خادمة فرنسية فلما أخبرتها من انا ومن اين اتيت وما مهمتى ، ادخلتنى حجرة الانتظار ، وانصرفت لتبلغ الزعيم فى مكتبه . ثم عادت على الفور تقودنى ، وفتحت لى الباب وانصرفت ، ووقفت لحظة أمام ذلك المحراب المهيب ، حيث تسكن مصر العزيزة مركزة فى شخص سعد زغلول • هى لحظة أو لحظات لا اعرف على التحقيق مدتها ، ولكنى اذكر عنها شيئا واحدا ، وهو انها انقضت وانا فى شبه غيبوبة من فرط الهيبة والاجلال لهذا الاسد الرابض داخل الغرفة وقد انجبته مصر بعد طول العقم وسوء الحال • دخلت وسلمت ، فماذا رأيت ؟ رأيت سعد زغلول نفسه للمرة الثانية فى حياتى جالسا ضخما كالطود الشامخ ، وان بدا على جسمه هزال المرض الشديد الذى لازمه اكثر من شهر من جراء البرد القارس الذى لا يعرف لدفته النافذة الا من اقام بباريس فى فصل الشتاء • ولم ينج رحمه الله من عقابيل مرض الربو الا بعد شهر من وصولى • قبلت يده فقابلنى بالترحيب الكريم وأجلسنى الى جانبه ، ثم ناولنى فنجانا من الشاى الساخن ، وسألنى اولا عن حالى وصحتى وسفرى وما لقيت فيه•

هذا وقد علمت فيما بعد أن تقريرا طيبا شاملا سبقنى من مصر الى الزعيم كتبه عنى سكرتير الوفد العام ، الرجل الهمام عبد الرحمن بك فهمى . وما كان أرق سعدا وما اكرمه حين تبسط معى فى الحديث عن الاسفار حتى أزال وحشتى وخفف عنى هيبة اللقاء ، وهنا تجرأت فذكرته بلقائنا الاولى عام ١٩٠٧ • ولشد ما كانت دهشتى اذ وجدته تهلل وانشرح وقال على الفور : « لم انس ذلك قط • بل كثيرا ما كنت اروى الحادث كدليل فساد ذوق الاستاذ وحسن ذوق التلميذ ، ما شاء الله ، لقد تحقق رجائى وكبرت واصبحت رجلا تجاهد مع المجاهدين » • وشعرت بأن سعدا رحمه الله قد ازداد اقبالا على وثقة بى ، فشعرت من ناحيتى بالسعادة التى لا يدرك

كثيرا الا من قابل سعدا فى أوقات سروره وساعات تجليه . ثم سألنى عن مصر وأحوالها . وذلك بعد أن استرحت واطمأن كل منا الى مساحبه . فحدثته ساعة كاملة وهو يصغى فى جد وسكون وتأثر . لم ينبس خلالها بكلمة واحدة حتى انتهيت فى جو من الجد الخالص الذى لا خفة فيه ولا مرح . وبعد هنيهة قال سعد : « الحمد لله كثيرا . لقد اطمأن قلبى على مصر وأهلها . كما لم يستطع اى تقرير أو رسالة ادخال هذه الطمأنينة على نفسى . ولقد جددت نشاطى وانعشتنى بلقائك وبيانك . ويمكنك ان تستريح غدا من وعثاء السفر . وتبحث لك عن مكان مناسب لسكنك يكون قريبا منى . ثم احضر بعد غد لتشترك معنا فى شرف الجهاد » .

كنت منهوك القوى قبل المقابلة من مشقة السفر برا وبحرا فى صبارة الشتاء . وانصرفت بعد المقابلة مجدد القوى والنشاط كمن أمضى شهرا كاملا فى الاستجمام فى جبال سويسرا الجميلة المنعشة . وفى صبيحة اليوم الموعود حضرت مبكـرا للعمل الى جانب سعد عملا دام حوالى خمس سنوات متصلة الحلقات .

سقت هذا الكلام الطويل لاكشف به عن قوة ذاكرة سعد فضلا عن انسانيته وحنوه حين يرى للانسانية والحنو موضعهما . ولابين كذلك أن حادثا صغيرا كالذى حدث بينى وبين سعد سنة ١٩٠٧ كان له كل هذا الاثر البالغ فى نفس هذا الرجل العظيم فزادنى الى نفسه قربا . وزاده فى نظرى جلالا .

سعد زغلول (الرجل)

عظيم الهامة يعلو رأسه صلع . جرىء القلب لم يطرقه يأس ولا هلع رهيب الطلعة طويل القامة . تشعر بجانبه كأنك قزم أو طفل . فى صوته رنة عجيبة وفى منطقه قوة ساحقة . وفى فمه فصاحة دافقة . وفى ذهنه سرعة نادرة . فيشغلك كل ذلك عن نفسك . وعن التفكير الحر المستقل . وتشعر كذلك كأنك مقيد بسلاسل متينة ادق من الخيط . من غير ضيق أو ضغط . رأيت بنفسى كثيرين يذهبون اليه مسلحين بالحجج التى حسبوها دامغة . والادلة التى ظنوها قاطعة وفى رؤوسهم أفكار بلغت عندهم مبلغ العقيدة التى لا تتزعزع . ورأيت سعدا يناقشهم ويحاورهم ويجذبهم ويدفعهم . ويوافقهم هنا ويعارضهم هناك . ثم اذا بعينيه تلمعان ببريق عجيب ينفذ الى قرارة نفوسهم . واذا بأكثر حججهم هباء ازاء حججه . واذا ببعض ما أعدوا من الادلة قد تبخر من رؤوسهم فلم يدلوا به . واذا أنت معجب بالرجل الاعجاب كله . معجب بمقدرته الكلامية التى تعينه فى سهولة ويسر على التعبير عن أدق ما فى نفسه فى سحر وطلاوة . معجب بحججه المتماسكة عليك فى سرعة مدهشة . معجب بهزات رأسه وحركات يده . وضغطه على بعض الكلمات حين ينطقها . معجب بصراحته التى تصدق احيانا . وتكشف الغامض دائما بما لا يدع

مجالا لشك أو تأويل • كل ذلك يشعرك أنك أمام شخصية فذة ممتازة لا يسعك الا أن تكبرها وتطيعها فى غبطة واجلال •

كنت اتناول الشاى مع سعد رحمه الله فى أكثر أيام الاسبوع حيثما أقام وحيثما نزل - فى باريس ولندرة وفيشى واكس ليبان وانسى ورويات ومسجد وصيف وعينا هاوس وبيت الامة • كثيرا جدا ما كان يحدثنى عن رأيه فى كل عضو من أعضاء الوفد وفى كل رجل يهمنى أن أعرف رأى سعد فيه • وكنت أدون فى مذكراتى الخاصة آراءه حال خروجى من حضرته أو عودتى الى حجرتى •

سألته مرة عن رأيه فى عبد العزيز فهمى ، فقال : « ما رأيت رجلا مغرورا بنفسه فى تواضع ، ولا خبيثا فى صالح ، ولا عسوفا فى عادل ولا كذوبا فى صادق ، ولا جبانا فى شجاع ، ولا متقلبا فى ثابت ، ولا مرائيا فى صريح أكثر من هذا الرجل » •

ثم سألته : « وما رأيك فى مصطفى النحاس وعدلى يكن ولطفى السيد ؟ » فقال :

« الاول - مصطفى النحاس - رجل ذو قلب طيب ، ومبدأ ثابت ، يميل الى الثرثرة ولكنه خفيف الروح ، به خفة ورعونة ، يميل الى الخيال ، سريع الانفعال ولكنه لا يتغير بتغير الاحوال ، وطنى مخلص وهو فقير مفلس ، ذكى غاية الذكاء وفى كل الوفاء ، وله فى نفسى مكان خاص •

« والثانى - عدلى يكن - رجل خبيث فى اخلاقه وتصرفاته ، ولا يفهم الوطنية كما نفهمها وهو عملى واقعى ، يرى الممكن فيسعى اليـه ، والصعب فينصرف عنه ، لا يفهم المثل العليا ولا يعرف التضحية كيف تكون ، وهو اعجـز عن أن يؤدى للحركة الوطنية خدمة قلمية أو لسانية ، وبعده عنا خير من قربه •

« والثالث - لطفى السيد - متواضع فى كبرياء ، صالح فى خبث ، قوى فى عجز ، ماكر فى بساطة ، قليل الكلام كثير التفكير ، واسع الخيال بليغ القلم والبيان، متسامح فى متعصب وعنده فى نفسه احسن رأى » •

وسألته مرة عن رأيه فى عباس العقاد ، فقال :

« اديب فحل ، له قلم جبار ، ورجولة كاملة ، ووطنية صافية ، واطلاع واسع ،

ما قرأت له بحثا او رسالة فى جريدة أو مجلة الا أعجبت به غاية الاعجاب ، وهو لا يعالج موضوعا الا احاط به جملة وتفصيلا احاطة لا تترك بعدها زيادة لمستزيد ، وله أسلوب ادبى فريد » •

وسألته عن رأيه فى عبد القادر حمزة ، فقال :

« صحفي مطبوع ، يحمل في أسلوبه الهـادىء قوة عجيبة على الاقناع ، في جمال وابداع ولا اعرف لها مثيلا في صحفي سواه ، وله أسلوب وهو السهل الممتنع الذي لا يجاريه فيه انسان » •

وكان سعد رحمه الله رجلا ناضجا كل النضج ، مثقفا ثقافة عربية اسلامية اكثر منها غربية حديثة ، وان كان له من هذه النصيب الاوفر • ولقد بلغ من أمر ذلك النضج انه كان يوصق الحكمة والكلمة الجامعة في سياق أحاديثه وكتاباته • ولاذكر بعض ما جمعته منه :

١ ـ لا أدل على خلق تخفيه من محاولة التظاهر بما ينافيه •

٢ ـ اعذر من غيرك ما تعذر من نفسك •

٣ ـ قد يجني على المرء اجتهاده ، فرب انسان أدت شدة حرصه على التظاهر بما ليس فيه الى انكشاف حاله •

٤ ـ لا تتطلب عورات الناس، ولاتتصدى لكشف سوءاتهم ، فما أنت بأبرئهم من العيوب ، ولا بأخلاهم من العورات •

٥ ـ أكثر خطأ الانسان آت من جهله قدر نفسه • ولذلك كان العارف بقدر نفسه في رحمة من الله •

حضرت مرة جلسة من جلسات مجلس العموم البريطاني ، فلفت نظري فيها القصد في الكلام وانعدام الجدل وقلة المناقشات • فعدت الى سعد ووصفت له ما رأيت تفصيلا وسألته : « ايهما أكثر اقناعا : قلة الكلام أم كثرته ؟ » فاجاب سعد : « ان الاكثار من الكلام يبعده عن الاقناع • ولقد ظهر لي ان قلة الكلام انفع من كثرته لانه ابقى في الذاكرة ، وأثبت في النفس ، ويلزم المتكلم أن يراقب السامع ، فلا فائدة من كلام المتكلم مع ملل السامع ، ولا من التفاصيل الكثيرة لانها كثيرا ما تضلل وتتعب • وعلى المتكلم أن يتخير سامعه اذا استطاع ، وهو كلما اعتمد على حسن نباهته وذكائه استماله اليه ، وكلما استحسن منه ملاحظة ازداد اقبالا على فكرته • ومن الناس من يخالفك حتى فيما انت متفق فيه معه ، وذلك عناد منه وحب في المخالفة » •

سعد زغلول الزعيم

زعامة سعد زعامة قوية غاية القوة ، عميقة غاية العمق فهو زعيم مطبوع ، ولو حاول ألا يكون زعيما لاعجزه ذلك وأعياه •

وصلت الى باريس قبيل الوقت الذي وصلت فيه لجنة ملنر الى مصر • فلما أخفقت في مهمتها ، وهمت بالعودة الى بلادها ، أملى على سعد نداء الى الامة المصرية أعده بنفسه ، نداء قويا مؤثرا أسجله هنا لجماله وجلاله :

« بنى وطنى الاعزاء :

« رجال منكم يرقبون عن بعد عملكم ، وقلوبكم بايديهم تتوثب اشفاقا عليكم مما تجدون فيما تغامرون ، وتنظرا لما تاتون فى هذه المحنة من ايات الاتحاد وجميل الصبر وما تدعون ، فلله انتم قد جليتم الغمرة ، وكشفتم المحنة ، واتيتم بها اية بينة ارت العالم فى مشارق الارض ومغاربها ان من أعوزه الحديد والنار فحسبه الاخلاق ، مامننت كانت امضى سلاحا ، واشد المضاء وابلغ انجاحا ، تضافرتم على مقاطعة الطامعين ، ومجانبة المغرورين ، وثبتم فى هذا الصدام ثبات الكرام ، وانتم عزل ، لا معين لكم الا قوة يقينكم ، ووضوح حقكم ، والتزام الحد المشروع فى انظمة بلادكم • فارجعتم الخصم على عقبيه ، غاضا من غلوائه عاضا على انامل الندم ، على ما راى من تبدل الحال ، وتصرم الآمال ، وانطلقت اقلام الكاتبين حتى فى بلاده ، فانقلبت صحفهم معكم ، من الزراية الى الرعاية ، ومن المخاشنة الى المحاسنة ، ومن زمجرة الترهيب الى باباة الترغيب • فبـارك الله فيكم ، شفيتم نفسنا من وجدها ، وسكنتم قلوبنا من وجيبها ، ورقمتم لكم ولا عقابكم فى سجل الحرية ذكرا لا يتدلى ، ووضعتم فى بناء المجد حجرا لا يبلى • وبرهنتم على انكم الابناء البررة لاولئك الاسلاف الخالدين • الا لمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى سبيل الوطن ما لاقيتم وما انتم ملاقون ، وفى ذمة الله تلك الدماء الطاهرة التى اراقها بالظلم اعداء الحق ، الا فاصبروا وصـابروا ، فان الحق قديم ويبقى أبدا ، والباطل حادث يحور هباء ، ويذهب جفاء • ولتحى مصر » •

زعامة سعد قامت على اسس متينـة من الشخصية القوية وصفاء الوطنيـــة والفصاحة الدافقة ، والصراحة الساحقة ، والحيوية الفياضة ، والشعور الكامل بالواجب ، والثقة البالغة بالنفس ، وامتلاك ناصية اللغة • والمنطق المحكم ، مع النضج المبكر •

اجتمع الى سعد مع كل هذا قدرة عجيبة على قيادة الجماهير ، وفهم تام لعقلية الامة . وادراك سام لامانيها فى الحياة ، فاستطاع أن يؤثر فيها بمقدار ما أثرت فيه، شهدت ذلك بنفسى ودرسته عن كثب ، فقد قضيت مع سعد فى صميم الريف ، فى قرية مسجد وصيف ، قرابة ثلاثة أشهر من صيف سنة ١٩٢١ ، وكانت الوفود تحج اليه افرادا وجماعات كل يوم من غير انقطاع •

وكان سعد يخطبهم فى غير ملل أو تعب او شكوى ، وكانت خطبه بالعامية فى بعض الاحايين • ينزل الى مستواهم فى أول الامر ، ثم ينهض بهم مدارجـــة الى مستواه العالى فى التفكير والشعور والنظر الى الاشياء •

وقد مرت بسعد ، وهو زعـــيم ، ازمات حادة أقضت مضـــجعه • ولانذكر على سبيل المثال ما حدث له أيام وزارة زيور باشا التى ألفت عقب مقتل السردار •

لقد ساد البلاد جو خانق كجو الاحكام العرفية ، وقبض على الابرياء وزجوا في السجون لاتفه الشبهات • وفي طليعتهم الدكتور ماهر والاستاذ النقراشي ، وكان سعد يحبهما ، ويثق بهما ، اخلص حب واكمل ثقة ، وحزن لسجنهما اشد الحزن ، واخذ كثيرون من انصاره ينفضون من حوله ، او ينقطعون عن زيارته دخلت على سعد يوم ٣٠ يوليه سنة ١٩٢٥ ، وهو في هذه الحالة النفسية التعسة ووجدته وحده في مكتبه الداخلي في بيت الامة يطالع كتابا ، ولن انسى ما حييت ما لاحظت عليه من الحزن الاسود والالم الاليم • سألنى عن الحالة العامة فحدثته بما اعرف ، وتعمدت ان اضمن حديثي ما يدعو الى الامل والتفاؤل ، حتى ادخل على قلبه الكبير شيئا من الطمأنينة والسكينة ، فابتسم ابتسامة فاترة كانت على الالم ادل منها على اى شيء آخر ، وقال : «اسمع يا كامل ! لقد الم بالناس هزال شديد ، وهو اشد لدى من كانوا اكثر الناس حماسة واشدهم غيرة ، ومن بقى معي منهم موجودون اما حياء او تورطا ، واما لعدم وجود وسيلة اخرى . وهي مصيبة ليس لها الا ربك » ثم قرأ لي رحمه الله ما كتبه في مذكـرلته الخاصـة في هذا اليوم ، فلم ار سوادا في كل ما كتب سعد باشا اشـد حلكة مما كتبه في ذلك اليوم •

على ان لسعد ايمانا بالله لم يتزعزع في وقت من الاوقات ، لقد حزن سعد قبل ذلك اشـد الحزن عندما سجن عبد الرحمن بك فهمى سكرتير الوفـد في مصر • وقال لي في حسرة وكمد : « هذا رجل وطني عظيم ونافع ونشيط . ولن يستطيع احد ان يملأ مكانه في لجنة الوفد . ويسد الفراغ الذى كان يشغله ، لا فرد ولا لجنة ، فلا حول ولا قوة الا بالله » •

وحزن كذلك عندما الفت الوزارة العدلية ، واخذ الناس ينصحونه بتأييدها مما لا حاجة الى تفصيله في هذا المقام •

وحزن سعد قبل ذلك عندما عرض العارضون مشروع ملنر في مصر بطريقة كانت الى التحبيذ والتأييد اقرب منها الى الشرح والبيان • ففي يوم ١٠ يناير سنة ١٩٢١ قرأ على سعد ما كتبه في مذكراته الخاصة ذلك اليوم ، فسألته ان انقل منها الجملة الاتية لاني اعجبت بروحها واسلوبها ، واردت ان اضعها في مذكراتي الخاصة فقبل رحمه الله واملى على بنفسه هذه الجملة وهذا نصها :

« هل اصاب الامة هزالَ جعلها ترضى بما كانت ترفضه ، وتقبل هذه الحماية بعد ان تشبعت بروح الاستقلال • اني لن اهبط مع الهابطين . وادعو الى الحماية بعد ان كنت رسول الاستقلال . لان يتركك قومك خير من ان تتركهم ولان تبقى وهم ينزلون خير للامة من ان تنزل مع النازلين • ولان يقال تخلى عنه قومه خير من ان يقال ركنوا اليه فغدر بهم وانتصر خصومهم • واذا عجزت الان عن العمل على كل حال خير من الغدر » •

حزن سعد كثيرا ولكنه لم ييأس قط • وكان الاظلام الذى يعلوه كسحابة صيف لا تلبث أن تنقشع ، وذلك لشدة ايمانه بالله وقوة ثقته بنفسه واعتداده بها •
ولقد سمعته مرارا وتكرارا يقول :

« اعتقد اعتقادا تاما ان الله العـــادل لا يريد بى الا كل خير • فقد اخرجنى دائما من احرج المواقف ، وهو يوفقنى دائما الى ما فيه المصلحة العامة » •

هذا هو سعد الزعيم المفرد والعلم ، ايمان بالله ، وشخصية فذة واضحة الحدود ووطنية رفيعة ، وشجاعة نادرة ، وارادة صلبة لا تلين ، ولا تستكين • واسلوب بليغ لا يعادل جماله الا قوته ، ولا يفوق بلاغته الا سمو الشعور الفياض الذى يستملى منه هذا البيان ، ويستمد منه هذا الايمان •

سعد زغلول (السياسى)

كان سعد كما بينت رجلا كامل الرجولة، وكان زعيما مطبوعا، ولكنه كان سياسيا مصنوعا ، ولسعد العذر كل العذر ، فللزعامة صفات ومواهب ، وللدبلوماســية التزامات ومواهب ، وشتان بين هذه وتلك •

الزعيم رجل الشعب ، والدبلوماسى (أى المحترف السياسة احترافا لا تعشـقا) هو رجل « الصالونات » ، وحل المشكلات ، بالمفاوضات •

والزعامة اخلاق وارادة ومقاومة ، والسياسة مداورة وملاينة ومساومة •

الزعامة صلابة ومثابرة وثبات والسياسة مرونة ومناورة وتقلبات •

والزعامة مبادىء وعهود تبرم فلا تنقض ، السياسة انتهاز للفرص ، ووعود تبرم ثم تنقض •

والزعامة خطابة واثارة وصراحة ، وعمل صخاب فى وضح النهار ، والسياسة مفاوضة ، وتسكين وتكتم ، وعمل هادىء وراء الابواب •

والزعامة جد لا هزل فيه ولا مجاملات ، والسياسة جد وهزل ومجاملة ممتزجات•

والزعيم يخدم الحق ، أو ما يعتقده حقا ، والحق دائم لا يتغير بتغير الاوقات• والسياسى يخدم المصلحة ، أو ما يظنه مصلحة ، والمصلحـــة وقتية تتغير بتغير الأحوال والمناسبات •

والزعيم يكره المعارضة ولا يحتملها الا على مضض وفى الم • والسياسى يقبل المعارضة وينتظرها ويتلقاها من غير ملل أو برم •

من يخالف الزعيم يتعرض لغضبه أو حقــــده ويستحق فى نظره الاقصاء أو الاعدام ، لانه يعتبره متمردا أو مارقا أو خائنا • ومن يخالف السياسى يتعرض لابتسامته ، ويعتبره حرا فى وجهة نظره ، فيقابله ويجالسه ويلاعبه فى الاندية من غير حرج •

هذه صفات الزعامة والزعماء ، وهذه صفات السياسة والسياسيين •
وكانت صفات الزعامة كلها من مقومات سعد مائة فى المائة •

فهل كنت تنتظر منه أن يجمع بين النقيضين ، ويمتص جسمه روحين مختلفين ويكون زعيما وسياسيا فى وقت معا

أنت اذن تكلف الطبيعة شططا وتطمع منها بالمحال •

كان سعد رحمه الله يفهم السياسة على أنها قضــية من القضايا ، تحل على أسس من الحق والعدل ، وكان سلاحه الماضى ، بل ســلاحه الوحيد فى حلها ، الصراحة والمنطق ، فصاحب الحق فى نظره يجب أن يأخذ حقه كاملا ، وغاصب الحق يجب أن يرده الى صاحبه غير منقوص ، هذا جميل ، بل بديع ، ولكنه فهم الزعماء للسياسة ، لا فهم السياسيين • ذلك لان السياسى لا يعرف شيئا كاملا ، ولا يتصور شيئا غيرمنقوص ، وحسابه كله قائم على المحادثات ، فالمفاوضات ، فالمساومات لحل المشكلات •

فالسياسة والحالة هذه أخذ وعطاء ، وأما الزعامة فأخذ من غير عطاء ، ومهما يكن من أمر،فان من حسن حظ القضـــية المصرية وهى فى أول أدوارها وأوائل أطوارها انها فهمت هذا الفهم وعولجت على هذا الوضع ، حتى نضجت وازهرت ، وأينعت ثم أثمرت ، كما نضج المصريون بعد أن اكتووا بنار الجهاد ، وانصهروا فى أتونه ، وأصيبوا بالحــرمان فى أرزاقهم وأموالهم ، وبالاذى فى عــواطفهم وأرواحهم ، ثم خــرجوا الى الاستقلال وهم أصفى ما يكونون معـدنا ، وأعمق شعورا ، وأكثر نضجا ، وأوسع أفقا من ذى قبل •

وسعد بذكائه العجيب ، ومنطقه المرهوب ، وعقــله الموهوب ، كان يدرك ذلك كله فى صميم نفسه ، ولكنه لم يرد بل لم يستطع أن ينقلب ســياسيا من طراز الدبلوماسيين • وهل يستطيع السياسى من هذا الطراز أن ينقلب زعيما بمجرد الرغبة أو الاشتهاء ، وأنف الطبيعة فى الرغام ؟ كلا ، ثم كلا •

على انى أعتقد اعتقادا جازما أن سعدا لو خير فى هذا الانقلاب ما اختاره ، ذلك لانه كان يؤمن ايمانا عميقا أن الحـق هو القــانون الازلى للمعاملات بين الناس ، حتى جاء السياسى مدفوعا بالنعـرة القومية أو المطامع الاستعمارية ،

وخرج على هذا القانون الازلى ، فوجب أن ترده بالقوة ان كنت قويا ، أو تجادله بالحق المتين ، والبرهان الرصين ، والمنطق المحرج ان كنت ضعيفا •

حسب سعد نجاحا فى ميدان السياسة أنه استطاع قبل ان ينتقل الى جوار ربه أن يشهد ثمرة سعيه الحكيم، فقد شهد قلوبا مؤتلفة ، وصفوفا متحدة ، واهواء راقدة ، وأحقادا خامدة ، وأحزابا متراضية . وكان على رأس البلاد وزارة ائتلافية أو وزارة اندماج كما يسميها رحمه الله •

وحسبه فخارا ان كان هو على رأس مجلس النواب مجتمع ممثلى الامة المختارين. فكان بذلك فى مركزه الطبيعى الاصيل . من الزعامة والقيادة والهداية وهذا المصريون بفضل الوطنية ، وفضله فى الوطن اخوانا ، وفى العمل اعوانا •

احسن الله عزاء الامة عن فقيدها الغالى ؛

واحيا بين ابنائها مثله العالى •

محمد كامل سليم

الفصل الاول

قيام الحرب العالمية الأولى

فى ٢٨ من يوليو عام ١٩١٤ بدأت الحرب العالمية الاولى باعلان النمسا الحرب على الصرب وذلك بمناسبة اغتيال ولى عهد النمسا وزوجته فى مدينة سيراجيفو بيد أحد الارهابيين من ابناء الصرب فتأزمت العلاقات بين حلفاء الدولتين الى الدرجة القصوى وتكهرب الموقف الدولى فى جميع أنحاء أوربا ، ولم تمض أيام قلائل حتى تدافعت الاحداث الجسام وتلاحقت فى سرعة مذهلة ٠

فقد أعلنت روسيا الحرب على النمسا (انتصارا للصرب) ٠

فأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا (انتصارا للنمسا) ٠

فأعلنت فرنسا الحرب على المانيا والنمسا (لمساعدة روسيا) ٠

وفى ٤ من أغسطس دخلت بريطانيا الحرب الى جانب فرنسا وروسيا والصرب ضد المانيا والنمسا ٠ ثم انضمت اليابان فايطاليا الى جانب الحلفاء ضد ألمانيا والنمسا ٠

وفى ٥ من نوفمبر دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا والنمسا ضد بريطانيا وفرنسا وروسيا واليابان وايطاليا ٠

وفى ٦ من نوفمبر اسرعت بريطانيا الى اعلان الاحكام العرفية على مصر كلها مع فرض الرقابة الشديدة على جميع الصحف والمجلات والمراسلات البريديه والبرقية ٠

ونزل الجنود الانجليز الى الشوارع والميـــادين لنشر جو من الارهاب ، وشل كل حركة للشعب الساخط ٠

وفى١٨ من ديسمبر أعلنت بريطانيا الحمايةالبريطانية على مصر، وسأفصل كل ذلك تفصيلا فيما بعد ٠

وفى خلال تلك الفترة اتسع نطاق الحرب ، فدخلت دول عديدة الى جانب بريطانيا وفرنسا وروسيا : أخص بالذكر منها بلجيكا وكندا واستراليا ونيوزيلندا وجنوب افريقية والهند ٠ وبهذا تحولت الحرب الى حرب عالمية لم يسبق لها مثيل لاسيما بعـد أن انضمت الولايات المتحدة فى ٢ من ابريل ١٩١٧ الى جانب الحلفاء ضــد الدول الثلاث ألمانيا والنمسا وتركيـــا وبهذا رجحت كفة الحلفاء رجحانا عظيما وسريعا ٠٠

ومع ذلك ظلت رحى الحرب دائرة الى أن عقدت الهدنة فى ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ وأعلن النصر للحلفاء ٠

والآن أبين ظروف الواقع فى مصر وتطورات الاحـــداث بشىء من التفصيل أو بعبارة أدق وأكثر تحديدا ، أبين ماذا فعلت بريطانيا بمصر أثناء هذه الحرب العالمية الاولى مما أدى الى قيام الثورة المصرية المعروفة بثورة ١٩١٩ لكى تبرز الصورة واضحة المعــالم فى اطارها الطبيعى الظاهر المحـــدود نتناول الاجابة والبيان فى النواحى الخمس الآتية :

الاولى : مركز مصر من الناحية الدولية ٠

الثانية : مركز مصر من الناحيه الواقعية ٠

الثالثة : أهداف الاستعمار البريطانى فى مصر ٠

الرابعة : سلوك بريطانيا وتصرفاتها فى مصر قبل دخول تركيا الحرب ٠

الخامسة : سلوك بريطانيا وافاعيلها فى مصر بعد دخول تركيا الحرب ٠

مركز مصر من الناحية الدولية

١ ـ مصر دولة مستقلة :

منذ عام ١٨٤٠ الى منتصف عام ١٨٨٢ كانت مصر عمليا دولة مستقلة باعتراف الدول التى أقرت هذا الاستقلال وسجلته فى معاهدة دولية هى : « معاهدة لندن المبرمة فى عام ١٨٤٠ » فكانت مصر طوال ٤٢ عاما تدبر شئونها بنفسها من غير أى تدخل من اية دولة أجنبية ولم يكن على هذا الاستقلال الا قيد واحد هو قيد السيادة العثمانية ، وهو قيد لم يكن فى الحقيقة بذى بال ، ومع ذلك ظلت هذه السيادة تضعف وتتراخى وتتضاءل وتنكمش ، ولم تكن فى الواقع الاتسمية خفيفة الظل الى أقصى حد ومظهرها الوحيد مبلغ من المال تدفعه الحكومة المصرية الى الحكومة التركية سنويا وقدره ٧٥٠ الف ليرة عثمانية ولا شىء غير ذلك .

مركز مصر من الناحية الواقعية

٢ ـ مصر دولة محتلة :

مستقلة قانونا ونظريا وتحت حماية بريطانيا مقنعة فعلا وواقعا .

ففى ١١ من يوليو عام ١٨٨٢ اعتدت بريطانيا على مصر اعتداء عسكريا ودمرت مدينة الاسكندرية بقنابل أسطولها ، وبدأت عمليات الزحف والمعارك الحربية التى انتهت باحتلالها لجميع الاراضى المصرية بعد انتصارها على زعيم مصر أحمد عرابى الذى استسلم فى النهاية ، وكان لهذا الاعتداء المسلح اسباب بعضها مستور وبعضها منشور ، أما الاسباب الحقيقية المستورة فهى شهوة الاستعمار البريطانى وظروفه ورغبته فى الاستيلاء على مركز جغرافى استراتيجى من الطراز الاول والاستمتاع بما فى مصر من خبرات وموارد وثروات .

أما الاسباب الزائفة المنشورة فهى الرغبة فى توطيد عرش الخديو بقمع الثورة العرابية والمحافظة على أرواح الاجانب وسلامة ممتلكاتهم واعادة الامن والنظام الى نصابهما ، هذا وقد

أعلن فى أول يوم انه احتلال مؤقت ينتهى بانتهاء تحقيق الاهداف التى ذكرناها ، ولكنه اعلان زائف قام على الخداع ، وذر الرماد فى العيون كما سنثبت ذلك بالقرائن والادلة الحاسمة التى تسجل أن الانجليز كانوا يبطنون غير ما يعلنون ، ويفعلون غير ما يقولون، وكانت كل أعمالهم وتصرفاتهم ، تنطق بعزمهم على البقاء والاستقرار ودوام الاحتلال ولا تنم عن أقل رغبة فى انهاء الاحتـــلال وقرب الجـــلاء .

وفيما يلى بيان موجز لسيرتهم وتصرفاتهم وافاعيلهم :

(١) لم تمض خمسة ايام من دخولهم القاهرة محتلين حتى أزالوا الجيش المصرى من الوجود ، اذ استصدروا مرسوما من الخديو توفيق بحله والغائه وتسريح جنوده وضباطه الى قراهم ، وتجـــريد معظم ضباطه من رتبهم العسكرية وحرمانهم من كل حق فى المعاش.

(٢) ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمت محاكمة عرابى وأصحابه وتم نفيهم من مصر الى جزيرة سيلان فى ٢٧ من ديسمبر ســـنة ١٨٨٢ ، ثم بدىء فى انشاء جيش مصرى جديد صغير وعلى رأسه ضابط من الانجليز وعدد قليل من الضباط المصريين . ثم بدأت عمليات السيطرة على اوسع نطاق ، على قوات البـوليس والامن فى القاهرة والاسكندرية وبور ســـعيد ، وذلك بتعيين حكمداريين وعدد كبير من المفتشين والضـــباط البريطانيين وانشـــاء مكاتب للمخابرات ـ أى التجسس ـ كما تمت فى هذه الفترة الوجيزة ، سلسلة من الالغاءات الخطيرة ، فألغيت البحرية المصرية ، وجميع المصانع والصناعات الحربية ، كما الغيت كل القوانين الخاصـــة بالاصلاحات العسكرية التى سبق أن طالب بها العرابيون فى الحاح واصرار حتى حصلوا عليها ، ثم الغى مجلس النواب وانتهى الحكم الديمقراطى فى مصر . ولم يكتف الانجليز بهذا كله فى خـــلال ما سموه ، بالاحتلال المؤقت ، بل اتجهت نياتهم وبرزت جهـودهم نحو تغيير نظام الحكم فى البلاد وانشاء نظام جـــديد يمكنهم من دوام السيطرة عليه وعلى الاداة الحكومية بحذافيرها ، فاسرعوا بتعيين مستشارين بريطانيين فى جميع الوزارات وتعيين عدد كبير جدا من الموظفين الانجليز فى كل المصالح والادارات الحكومية فى جميع الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية وذلك للاشراف على سير الامور يوميا وفق ارادتهم وأهوائهم .

(٣) وفي الشهر الرابع من الاحتلال شعرت بريطانيا بأن الدول ولاسيما تركيا وفرنسا بدأتا ترتابان في نياتها وتتوجسان خيفة من تصرفاتها فخشيت العاقبة ، وهنا سارع وزير الخارجية البريطانية لورد جرنفيل الى ارسال برقية الى الدول في ٣ من يناير ١٨٨٣ هذا نصها :

« انه وان كانت القوات البريطانية ما زالت باقية في مصر حتى الآن لصيانة النظام العام فان حكومة جلالة الملكة تنوي سحبها عندما تسمح بذلك حالة البلاد وتسمح بوسائلها الخاصة تثبيت سلطة الخديو .. والى أن يحين ذلك الوقت فان مركز حكومة جلالة الملكة بازاء سموه يقضي عليها ببذل « نصائح » لتتأكد من أن النظام الذي سيوجد يكون مرضيا ويحتوي على عناصر الاستقرار » .

و « نصائح » هنا كلمة ناعمة جدا في العرف الدبلوماسي البريطاني ، ومعناها في الحقيقة والواقع « أوامر ملزمة لا بد من قبولها وتنفيذها » والدليل على ذلك برقيته الثانية التي بعث بها هذه المرة الى ممثل بريطانيا في مصر حين رفض شريف باشا رئيس الوزراء المصرية النصيحة البريطانية « التي تهدف وتقضي باخلاء السودان » أى بسحب جميع القوات العسكرية المصرية من جميع سواحي السودان وكان عددها حوالى ٢٥ الف جندي كاملي العدة والسلاح وترحيل جميع الموظفين المصريين والاجانب واعادتهم جميعا الى مصر .

وهذه البرقية تكشف بغير مواربة أو تحفظ النيات البريطانية في اخضاع الحكومة المصرية لمشيئتهم وتنفيذ كل رغباتهم ونصائحهم واوامرهم ، وفيما يلي اهم ما ورد فيها :

« ما دام الاحتلال البريطاني المؤقت موجودا في مصر فان من الواجب أن تتأكد الحكومة البريطانية من قبول نصائحها في المسائل الهامة التي تستهدف بها ادارة مصر وسلامتها من الخطر . هذا ويجب على الوزراء المصريين والمديرين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة على كاهل الحكومة البريطانية تضطرها الى أن تصر على اتباع السياسة التي تراها - ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لا يسير وفقا لهذه السياسة ،

وأن الحكومة البريطانية لواثقة من أنه اذا اقتضت الحال استبدال أحد الوزراء فهناك من المصريين سواء ممن شغلوا منصب الوزارة من قبل ، أو شغلوا مناصب أقل درجة ، من هم على اســتعداد لتنفيذ الاوامر التي يصدرها اليهم الخــديو بناء على نصيحة الحكومة البريطانية » ٠

وهنا ظهر أثر هذه البرقية فورا ٠٠ فاستقال شريف باشا من رئاسة الوزارة ، وتولى الرياسة مكانه نوبار باشا الذى أصــدر الامر فورا باخلاء السودان ٠

(٤) ولم يمض عام واحد على الاحتلال حتى تمت للمحتلين السيطرة الكامله الشاملة على الجيش والبوليس وجميع الوزارات وجميع المصالح الحكومية لا فى القاهرة والاسكندرية وحدهما بل فى جميع المديريات فى أنحاء البلاد ، واستقر الامن والنظام وتوطد عرش الخديو وزالت جميـع الاسـباب الظاهرة والمنشورة التى زعموها وادعوا بانها أهدافهم من هذا الاحتلال ٠

فأين الجلاء ٠٠ ؟

ولماذا يظل الاحتلال البريطانى قائما فى البلاد ٠٠ ؟

ماذا بقى لهم من الاهداف والتعلات ؟ لا شىء ، ولكن من عادة المستعمرين أن يخدروا ضــحاياهم بالوعــود الكاذبه وزخارف الاباطيل وهم على نيه الحنث بها من اللحظة الاولى ٠

(٥) مضى عام وثان والاحتلال البريطانى جاثم على صدر البلاد يبسط سلطانه ويشدد قبضته على كل مرفق من المرافق العــامة ويتوغل ويتغلغل فى كل اتجاه ويسيطر على كل ناحيــة ويملى ارادته على كل كبير فى البلاد ٠

وظلت مصر تترنح تحت الضربات المتلاحقة حتى فقد المصريون قوتهم المعنويه فى تلك الحقبة السوداء التى عانوا فيها سلسله من الهزائم وخيبة الامال وراوا زعماءهم ما بين منفى وسجين ، وراوا أعداءهم وفى أيديهم كل الامر والنهى والســلطان ولا معين ٠٠ وكانت الدول تنظر وتعجب ولا تتحرك ، وكانت فرنسا وحدها ومن

وورائها تركيا المتخاذلة تراقب فى كمد وتنتظر من بريطانيا تحديد تاريخ معين لاتمام هذا الجلاء المؤقت الموعود .

(٦) وأخيرا بدأ العام الثالث من عمر الاحتلال وبدأ معه شعور الحكومة البريطانية بأن مركز بريطانيا فى مصر أصبح غير معقول ولا مقبول وأنه طال أكثر مما يجوز حتى فى الخيال لا سيما وقد وصل الى علمها أن بعض الدول الاوربية أخذت تتشاور وأن الحكومة الفرنسية أو عزت الى سلطان تركيا أن يقدم احتجاجا على استمرار الاحتلال البريطانى فى مصر وأن الحكومة الفرنسية نفسها قد وعدته بالتأييد والمساندة . فأسرعت الحكومة البريطانية الى ارسال سير هنرى ارمندولف الى الاستانة فى شهر أغسطس من عام ١٨٨٥ لمفاوضة الحكومة التركية فى مسألة انهاء الاحتلال ، وبعد شهرين اثنين من اتصالاته بالمسئولين فى الحكومة التركية وضع مشروع اتفاق فى ٢٤ من أكتوبر ويتضمن :

أولا : تعيين مندوب بريطانى ومندوب تركى ليسافرا الى مصر للتعاون مع الخديو بقصـــد اعادة تنظيم الجيش المصرى وتهدئة السودان بالوسائل السلمية وبحث مسألة التعديلات التى يريان من المصلحة ادخالها على الادارة المصرية الداخلية .

ثانيا : عندما يطمئن المندوب البريطانى والمندوب التركى عـلى قيام حكومة مصرية صالحة ومستقرة يقدم كل منهما تقريرا بذلك الى حكومته .

ثالثا : تتفاوض بعد ذلك الحكومة البريطانية مع الحكومة التركية فى مسألة وضع اتفاق جديد بقصد انهاء الاحتلال بجلاء القـوات البريطانية من مصر .

(٧) انتهى العام الثالث ثم العام الرابع وبدأ العـــام الخامس والاحتلال ما زال موجودا فى مصر ، ثم تقدمت الحكومة البريطانية بمشروع اتفاق فى عام ١٨٨٧ وهو ينطوى على محاولة أخرى هزيلة وهازلة للجلاء ، وفيما يلى أهم ما جاء فيه :

١ ـ ينتهى الاحتلال البريطانى لمصر بعد ثلاث سنوات من تاريخ التوقيع على هذا الاتفاق .

٦ - يكون لبريطانيا الحق في اطالة مدة الاحتلال أو تجديده في حالة وقوع اضطرابات داخلية أو تعرض مصر لخطر مفاجيء ٠

ومعنى هذا أن بريطانيا تكتسب الحق المطلق في العـــودة الى احتلال مصر في أي وقت تشاء اذا حدث شيء من هذه الاضطرابات الداخلية أو الخطر الخارجي ٠ ووافق سلطان تركيا على مشروع هذا الاتفاق العجيب واظهر الميل الى التوقيع عليه ولكنه عاد ورفض تحت الضغط المشترك من جانبي فرنسا وروســـيا ، وبهذا سقط المشروع ومات ٠

واستمر الاحتلال البغيض جاثما على صدر البلاد الى أجل غير مسمى ٠٠

ومرت بعد ذلك سبع وعشرون سنة لم تفعل بريطانيا خلالها شيئا سوى اتباع سياسة الختل والخديعـــة وتكرار الوعود والعهـــود الرسمية بعزمها على انهاء الاحتلال ، ولم تجرؤ على جعل مركزها في مصر شرعيا ، فظل مركز مصر على حاله من الغموض ، فكانت مصر مستقلة استقلالا نظريا ومحتلة احتـــلالا عسكريا بريطانيـا مؤقتا وتحت السيادة العثمانية الاسمية ، حتى قامت الحـــرب العالمية الاولى فتغير مجرى الاحداث ونكبت مصر باذلال جديد في الشهور الاولى من الحرب العالمية الكبرى كما سأبين ذلك فيما يلي ٠

الفصل الثانى

أهداف الاستعمار البريطانى .. فى مصر

اثبتت الحوادث المتلاحقة أن السياسة البريطانيـة الاستعمارية ازاء مصر كانت لها اربعة أهداف رئيسية ادركتها واحدا بعد واحد وفازت بها فى أربع مراحل على مر السنين • ولكنه فوز الى حين ••

الهدف الاول : احتلال مصر احتلالا عسكريا وسياسيا واداريا والسيطرة التامة على جميع شئون مصر الداخلية والخارجية •

وقد ادرك الانجليز هذا الهدف عام ١٨٨٢ بعد طول التربص والختل والخديعة والكذب والمراوغة ، وفى السطور السابقة خلاصة لاهم أحداث تلك المرحلة التعسة •

الهدف الثانى : تحويل هذا الاحتلال « الذى وصف مرارا بأنه مؤقت وصحبته وعود رسمية بالجلاء جاوز عددها الستين » ، الى احتلال دائم لا ينتهى بجلاء وانما تقبله الدول الاجنبية كأمر واقع ليس له من دافع وتنسى معه كل الوعود بالجلاء •

وقد ادرك الانجليز هذا الهدف عام ١٩٠٤ بعد أن ابرمت بريطانيا وفرنسا معاهدة سميت « الاتفاق الودى » وتم عقد هذه المعاهدة فى ٨ من ابريل ١٩٠٤ بقصد انهاء ما كان بين الدولتين من خلافات وحزازات ومطامع ومنافسات ، وكذلك بقصد وضع أسس ثابتـة لسياسة استعمارية مشتركة موحدة تقوم على الانسجام والتفاهم وتمنع الاحتكاكات والمخاصمات فى المستقبل ، وكان الجـزء الخاص بمصر هو أهم نصوص هذا الاتفاق وهو :

« تصرح حكومة جلالة الملك البريطانية أنها لا تنوى تغيير حالة مصر السياسية وتصرح حكومة الجمهورية الفرنسية أنها لا تعرقل عمل بريطانيا العظمى فى تلك البلاد سواء بطلبها منها تعيين أجل للاحتلال البريطانى أو بغير ذلك » •

وجاء أنه مقابل هذا الالتزام الفرنسى تعهد والتزام من جانب الحكومة البريطانية بألا تعرقل عمل فرنسا وسياستها فى مراكش ••

هكذا اتفق الشريكان على امتلاك الدولتين : مصر ومراكش •• ومعنى هذا الاتفاق بكل ايجاز أن فرنسا عدلت نهائيا عن سياستها الماضية فى الوقوف بالمرصاد لبريطانيا ومعارضتها لها ومطالبتها بتحديد موعد للجلاء عن مصر •

وبهذا سلمت وأقرت بأن الاحتلال البريطانى لم يعد مؤقتا كما كان ••

وأصبح الاحتلال « دائما » كما اشتهت بريطانيا واستكانت تركيا وسكتت سائر الدول ، ولاشك أن هذا الاتفاق الاستعمارى المشئوم كان حدا فاصلا بين عهدين ، وكانت له آثار خطيرة وبلبلة عميقة الغور بعيدة المدى نخص بالذكر منها ما يلى :

- عهد ما قبل الاتفاق « ١٨٨٢ - ١٩٠٤ » = ٢٢ سنة

١ - قامت سياسة المحتلين فى تلك الحقبة على الاعتدال والملاينة والغموض والختل والخداع والوعود المتكررة بأن الاحتلال مؤقت وبأن الجلاء مؤكد •

٢ - كانت الروح الوطنية فى نفوس المصريين متفائلة منتظرة معتمدة الاعتماد كله على يقظة الدول الاوروبية وسخطها لاسيما تركيا وفرنسا على الاحتلال البريطانى والمطالبة بالجلاء الذى كانت بريطانيا نفسها لا تستنكره ولا تنكره ، بل تؤيده ، فكانت المسألة مسألة وقت لا مسألة مبدأ فى نظر المصريين جميعا •

- عهد ما بعد الاتفاق « ١٩٠٤ - ١٩١٤ » = ١٠ سنوات

١ - تبدلت سياسة المحتلين وقامت على العنف والمخاشنة والصرامة والقسوة والتوعد بدوام الاحتلال ، وبدأ كرومر يسجل فى تقاريره السنوية التى اعتاد على رفعها الى حكومته فى لندن ، ذم المصريين وبيان مدى تأخرهم فى كل ناحية من نواحى الحياة ، وكان يتحدث بلسان الحاكم المطلق فى مصر الذى لا معقب لرأيه ولا استئناف لحكمه ، بل انه فى ذلك جاوز كل حد معقول اذ تهجم على الدين الاسلامى نفسه وزعم أنه العقبة الكأداء فى سبيل تقدم

المصريين ومشاركتهم فى الحضارة الغربية • وفى قصورهم وعجزهم عن حكم أنفسهم حكما صالحا ، وكان يهدف الى تيئيس المصريين حتى لا يفكروا ، مجرد تفكير ، فى امكان التخلص من المركز الممتاز الذى تحتله بريطانيا فى مصر وتنوى احتلاله الى الابد •

وقد وقعت فى تلك الحقبة السوداء حادثة دنشواى الشهيرة(١) نذكرها على سبيل المثال كمهظر من مظاهر العنف والخشونة والقسوة الوحشية التى امتازت بها سياسة بريطانيا فى معاملة المصريين ورغبتها فى اعطائهم درسا لا ينسونه على مر السنين •

(٢) أما بالنسبة للمصريين فكان هذا الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا صدمة اليمة مذهلة ، وأشاع فى البلاد خيبة أمل عنيفة ومريرة ، غير أن هذه المرارة ظلت مكبوتة فى نفوس سواد الناس بحكم ظروف الحياة فى تلك الحقبة من الزمن التى تتابعت فيها

---

(١) فى ١٣ من يونيو سنة ١٩٠٦ ذهب خمسة من ضباط الانجليز الى قرية دنشواى لصيد الحمام وبدأوا باطلاق نيران بنادقهم على الحمام من خلال الاشجار ووسط اجران القمح فخشى الاهالى ان تشب حرائق فى الاجران ، ولما طالبوا الضباط بالانصراف لم يكترثوا واستمروا فى الصيد فتجمهر الاهالى وصدرت من ضابطين رصاصتان أصابت احداهما امرأة هى زوجة مؤذن القرية فسقطت تتخبط فى دمائها وأصابت الثانية شيخ الخفر فى فخذه فسقط كذلك والدم يسيل منه فظن الاهالى انهما قتلا فثار ثائرهم لاسيما وقد شبت حرائق فى بعض الاجران فأخذوا فى مطاردة الضباط الخمسة بالطوب والحجارة والعصى ، وأسفرت النتيجة عن اصابة أحد الضباط بكسر فى ذراعه والثانى والثالث أصيبا بجروح خفيفة والرابع فر هاربا من مكان الواقعة بعد اصابته ، والخامس فر هاربا وظلا يجريان نحو ثمانية كيلومترات والحر على أشده فى الصيف ، واخيرا سقط هذا الرابع ميتا بضربة الشمس ونجا الخامس •

وبعد خمسة أيام من الحادثة وقبل أن ينتهى التحقيق صدرت الاوامر باعداد المشانق وارسالها الى دنشواى •

ولم يمض يومان حتى شكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة ٥٢ فلاحا مصريا قبض عليهم جزافا ، أما الشهادات فلم يقم على صحتها دليل •

وبعد أسبوع واحد من الحادثة تمت المحاكمة الصورية وصدر الحكم وهو يقضى (١) باعدام اربعة و (٢) بالاشغال الشاقة المؤبدة على اثنين (٣) بالاشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة على واحد • و (٤) والسجن سبع سنوات على ستة • و (٥) بالحبس مع التشغيل مدة سنة مع الجلد ٥٠ جلدة على ثلاثة • و (٦) بالجلد ٥٠ جلدة على خمسة آخرين •

وفى اليوم التالى لصدور الحكم كان التنفيذ بطريقة وحشية همجية تقشعر منها الابدان • اذ تم الشنق والجلد علنا فى دنشواى على مرأى ومسمع من الاهالى والاقارب والزوجات والابناء وبين صياح النساء وعويلهن ونواحهن ، وكانت المناظر بشعة تثير الاشجان الى اقصى حد يحتمله الانسان •

ان آلام الحزن والغيظ والحقد التى سادت جميع المصريين لا يمكن وصفها ، ولكن من السهل جدا تصورها •

احداثها الجسام تتابعا أدخل فى روع سائر الناس أن للقوة وحدها الكلمة الاخيرة فى حيــاة الناس ومصــير الامم ، وكانت مظاهر سيطرة البريطانيين المسلحة على شعب مصر الاعزل بادية للعيان من قبل فكيف بها بعد أن تراجعت فرنسا وتعهدت بعدم الاعتراض على أى تصرف لبريطانيا فى مصر ؟

وعلى ذلك لم يكن ذلك الكبت ليحول دون بروز الشعور الوطنى المصرى الوقت بعد الوقت بين أعمدة الصحف وعلى أعواد المنابر، وكان أعلى الاصوات وأجرأها على المنابر وأصرح الكلمات وأعنفها فى الصحف تلك التى صدرت من الزعيم الوطنى الشاب « مصطفى كامل » فنادى بحق الشــعب المصرى فى الحرية والخــلاص من الاحتلال والسخط على هذه المؤامرة التى حيكت ضد مصر ٠

لقد ظهر هذا الشاب الموهوب على مسرح السياسة الوطنية بعد حوالى عشر سنوات من بدء الاحتلال ، وظل يجمع حوله الشباب وينفخ فيهم من روحه القوية حتى تزايد عــددهم على مر الايام والاعوام ، وما أن تم عقد ذلك الاتفاق الظالم حتى تضـاعفت نار الوطنية المصريه ونشطت بعد ركود ، واذا بالروح المعنويه ترتفع وكانت فى هبوط ، ولهذا يمكن القول أن « عهــد ما بعد الاتفاق الودى » كان يمتاز بيقظة الشــعور الوطنى وتحركه ونشاطه ، وتحول الزعيم الشاب وأنصاره من الاعتماد على تركيا وفرنســا والاجانب الى الاعتماد على النفس وتحولت الروح الوطنية المصرية من الصبر والتواكل والانتظار الى السخط والكفاح والنضال ٠

والخلاصة : ما أن وقعت حادثة دنشــواى ومحاكماتها حتى طفحت الكاس بالسخط والغضب وزادت الحركة الوطنية وعيا وقوة وثباتا ومثابرة ٠ وتكاثر انصار الحزب الوطنى تكاثرا ملحوظا وازداد مصطفى كامل نشاطا وجهادا فى مصر وفى الخارج ، وتجلت حيوية المصريين فى أروع مظاهرها ٠٠

ملاحظة :

كتب لورد ملنر يصف مركز مصر من الناحية الواقعية بعد اتمام « الاتفاق الودى » بين بريطانيا وفرنسا بأنه « حماية مقنعة » اذ جاء فى كتابه « انجلترا فى مصر » ما نصه :

« انهاحماية ٠٠ ولكن ليس فى استطاعتنا ان نعلن ذلك صراحة، وبالتالى ليس فى استطاعتنا أن نطلب من الدول الاعتراف بها ، ذلك لانها « حمايه مقنعه » غير محدودة المدى وغير موقوته باجــل

مرقوم ، ولكنها على كل حال تكفى لتحقيق أغراض صعبة وتهدف الى غاية بعيده المدى » •

الهدف الثالث : تحـــويل هذه « الحماية المقنعة » الى حماية رسمية سافرة توافق عليها الدول فى معاهـــدة دولية ، وبهذا يتم تصحيح مركز بريطانيا فى مصر فيصبح شرعيا ودائما بعد أن كان باطلا ومؤقتا ••

الهدف الرابع : تنظيم العلاقات بين بريطانيا ومصر بعـــد ذلك واقامتها على دعائم ثابتة وذلك بابرام معاهدة أبدية بين الدولتين تتولى مصر فى ظلالها ادارة شئونها الداخلية الى مـــدى بعيد ، وشئونها الخارجية الى حد محدود ببعض القيود ، وتتولى فيها بريطانيا وحدها حق الدفاع عن مصر ومراقبه سياستها الخارجية وبهذا تجعل المعاهدة لبريطانيا مركزا ممتـــازا فى مصر ويكون لممثلها حق التقدم على جميع ممثلى الدول الاجنبية ••

وهذه كلها هى عناصر الحماية الفعلية فى صميمها الاصيل ••

ويشاء القدر الساخر أن تنتظر بريطانيا عشر سنوات كاملة•• « بعد اتمام الاتفاق الودى المشئوم » وحتى تقوم للحـــرب العالمية الاولى قبل أن تتمكن من تحقيق هدفهـــا الاستعمارى الثـــالث ، فأعلنت حمايتها السافرة الرسمية على مصر وأقرتها سائر الدول •

وأما هدفها الرابع فكان له شأن آخـــر جد عسير وسأتناوله بالشرح والتفصيل والاسهاب فيما بعد عندما تطورت العلاقات الى مفاوضات ، أى عندما حاولت بريطانيا ادراكه بمفاوضاتها مع زعيم مصر الثائرة الشيخ الجليل سعد زغلول وصحبه أعضـــاء الوفد المصرى وكيل الامة المصرية حينذاك ••

بدأت المفاوضات واستطالت وتعثرت فأجلت ثم استؤنفت وطالت وتعثرت فتأجلت مرة ثانيه وكثرت المحاولات والمؤامرات والمماحكات واشتد الضيق والاعنات والمضايقات وازدحمت الســـجون بالابرياء وفرضت الغرامات وكـــثرت الاعتقالات وزائف المحـــاكمات ونفى الزعماء فى المنفى ثم أفرج عنهـــم ، ثم استؤنفت المفاوضـــات واستطالت مرة أخرى وتكـــررت المحاولات والحيـــل والالاعيب الدبلوماسية ثم فشلت بريطانيا أخيرا فى ادراك هدفها الرابع •

ولم تفز من مصر بطائل •

وهذه المفاوضات بمؤامراتها ومحاولاتها وتهديداتها ومضايقاتها واعناتها وكل ملابساتها هى بيت القصيد فى هذا الـــكتاب ، وقد فصلتها تفصيلا كاملا شاملا ليس بعده زيادة لمستزيد فيما أعتقد ••

كيف حققت بريطانيا هدفها الثالث فى مصر

بينت فى مطلع هذا الفصل كيف قامت الحــــرب العالمية الاولى وتواريخ اشتراك الدول فيها واحدة اثر أخرى ، فانتهزت بريطانيا فرصتها لتحقيق أهم أهدافها الاستعمارية فى مصر وهو اعــــلان الحماية البريطانية عليها ، وكان نجاحها هذا هو السبب الاصيل لقيام ثورة ١٩١٩ ولقد تم لبريطانيا هذا النجاح على دفعتين :

الاولى : قبل دخول تركيا الحرب : (٤ اغسطس ــ ٥ نوفمبر ١٩١٤)

ما كادت بريطانيا تدخل الحرب حتى خولت لنفسها ان تتمتــع قواتها العسكرية بكافة حقوق الحرب فى جميع مدن مصر وموانيها والانتفاع بجميع وسائل المواصــــلات المصرية برا ونهرا وبحــرا والاستيلاء على كل ما ترى الاستيلاء عليــــه فى الاراضى المصرية وكأن مصر مستعمرة بريطانية من مستعمرات التاج البريطانى ..

ثم لجأت الى الاجراءات التالية :

ــ منعت الحكومة المصرية من التعامل مع المانيا والنمسا والمجر وحظرت تصدير أى شىء مصرى اليها ..

ــ استولت على جميع السفن الالمانية والنمساوية الراسية فى الثغور المصرية .

ــ أعلنت « الرقابة » علىجميع المراسلات البريدية والبرقيــــة فى داخل البلاد والمرسل منها الى الخارج .. والوارد منها الى الداخل .

ــ أصدرت أمرا عسكريا بمنع التجمهر والعقاب الشديد عليه ، واعتبر تجمهرا كل اجتماع من خمسة أشخاص على الاقل فى الطريق العام أو فى أى محل عمومى حتى ولو لم يكن له قصد جنائى ..

ــ عندما أدركت بريطانيا أن تركيا على وشك الدخول فى الحرب ضدها الى جانب المانيا والنمسا أسرعت باعلان الاحكام العرفيــــة البريطانية على مصر قبيل دخــــول تركيا الحرب بيومين اثنين . وكان ذلك الاعلان فى شكل منشور عسكرى أصدره القــائد العام للجيوش البريطانية فى يوم ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٤ .

الثانية : بعد دخول تركيا الحرب : (٥ نوفمبر ــ ١٧ ديسمبر)

بدأت بريطانيا فى هذهالفترة بتضييقالخناق على مصر والمصريين بشكل مرهق عنيف متزايد ، فكانت فترة عصيبة محمومة مسمومة رهيبة غريبة ..

وفيما يلى تلخيص لاهم الاعمال والاحداث التى وقعت فى هذه الفترة ٠

ـ فى يوم ٦ نوفمبر أرسل ممثل بريطانيا فى مصر خطابا الى رئيس الوزارة المصرية حسين رشدى باشا يبلغه فيه منشور القائد العام للجيوش البريطانية باعلان الاحكام العرفية والرقابة ويخبره فيه بأن يستمر الوزراء المصريون فى وظائفهم محتفظين بالسلطة التى لهم فيما يختص بالمسائل الادارية بوزاراتهم ٠

ـ أصدر القائد العام البريطانى أمرا عسكريا يحذر فيه جميع المصريين لكى يمتنعـــوا عن كل عمل من شأنه الاخـلال بالنظام وبالامن العـــام ٠٠

ـ قام الانجليز فى نشاط ملحوظ باستعدادات حربية على أوسع نطاق فى القاهرة والاسكندرية كمـــا لو كانوا يستعدون لاعمال عسكرية خطيرة ، أو كما لو كانوا يشعرون بأن المصريين يدبرون ثورة أو اضطرابات ، فتدفقت جيوشهم على مصر بعضها قادم من بريطانيا نفسها وبعضها قادم من استراليا ونيوزيلنده والهند وجنوب افريقية ٠

ـ اكتظت شوارع القاهرة والاســـكندرية وبورسعيد بالثـكنات العسكرية والخيام المنصوبة ، بجنود من جميع الاجناس والالوان وظلت اللوريات الحربية المكتظة بالجنود تطوف الشوارع والميادين وتنتقل بين القلعة والعباسية وقصر النيل ٠

ـ انتشر فى العاصمة جو من الارهاب واعتقل عدد كبير جدا من المصريين الوطنيين لاسيما المنتمون منهم للحزب الوطنى ٠

ـ تحولت مصر كلها الى قاعدة حربية عامة للحلفاء جميعا ، حتى خيل للرأى العام أن عدد الجنود الاجانب لا يقل عن عـــدد الاهالى المصريين ٠

هذا فيما يختص بالاستعدادات الحربية ، والى جانب ذلك تمت أعمال مدنية مريبة أبرزها ما يأتى :

ـ استقدم الى القاهرة الامير حسين كامل من الاسكندرية على قطار خاص فحضر توا الى منزل رئيس الوزارة حســـين رشدى باشا ، ثم انتقلا معا الى الوكالة البريطانية حيث يقيم ممثل بريطانيا فى مصر « قصر الدوبارة » ٠

ـ تحدث الناس فى اليوم التالى عن هذا الاستدعاء الفجائى الذى انتشر خبره رغم الرقابة الشديدة على الصحف والمراسلات وكثرت اجتماعات الامير بالقائم باعمال المعتمد البريطانى فى الوكالة البريطانية « مستر شيتهام » ومعهما رشدى باشا الذى كان فى الوقت عينه قائمقام خديو « بمناسبة وجود الخديو فى الاستانة باجازة » •

ـ انتشرت فى القاهرة اشاعات كثيرة حول هذا الاستدعاء وكثرت المقابلات • وكان أروج تلك الاشاعات التفكير البريطانى فى اسناد العرش اليه وأنه يشترط شروطا لقبوله هذا المنصب •

وأخيرا وقعت النكبة ••

اعلان الحماية البريطانية على مصر

١ ـ نص اعلان الحماية :

فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ أعلنت بريطانيا حمايتها السافرة الرسمية على مصر ، فحققت بذلك هدفها الاستعمارى الثالث • وهذا نص الاعلان :

« يعلن وزير الخارجية لدى حكومة جلالة ملك بريطانيا العظمى انه بالنظر الى حاله الحرب التى سببها عمل تركيا قد وضعت مصر تحت حماية جلالته وأصبحت من الآن فصاعدا من البلاد المشمولة بالحمايه البريطانية ، وبذلك زالت سيادة تركيا على مصر وستتخذ حكومة جلالته كل التدابير اللازمة للدفاع عن مصر وحماية أهلها ومصالحها » •

٢ ـ نص اعلان عزل الخديو عباس وتعيين السلطان حسين :

وفى يوم ١٩ من ديسمبر صدر منشور آخر بخلع الخديوى عباس حلمى وتعيين الامير حسين كامل سلطانا على مصر وهذا نصه :

« يعلن وزير الخارجية لدى جلاله ملك بريطانيا العظمى انه بالنظر الى اقدام سمو عباس حلمى باشا خديو مصر على الانضمام لاعداء الملك قد رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوية وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب سلطان مصر على سمو الامير حسين كامل باشا أكبر الامراء الموجودين من سلالة محمد على فقبله » •

٣ ـ وفى نفس اليوم تسلم السلطان حسين برقية ورسالة :

أ ـ برقية من ملك الانجليز هذا نصها :

« فى اليوم الذى ترتقى فيه عظمتكم السلطانية منصبها السامى أقدم لكم عواطف الود المنبعثه عن أكمل اخلاص مع تأكيـدى لكم بأننى لا أنفك عن تأييدى لكم والمحافظة على مصر وحماية رفاهيتها فى المستقبل ، وانى على يقين أنه بمعاونة وزرائكم وحماية بريطانيا العظمى يتسنى لكم التغلب على كل المؤثرات التى يراد بها العبث باستقلال مصر وبرفاهة أهلها وسعادتهم » •

ملاحظة : سجلت هذه البرقية حـــرفيا هنا لابين أن كلمة « استقلال مصر » وردت رسميا فيها وكان لها شأن فيما بعـــد « تمسك بها المصريون وأنكرها البريطانيون » •

ب ـ أما الرسالة التى تسلمها السلطان حسين فكانت فى شكل تبليغ طويل ألخصه فيما يلى :

تبليغ الحكومة البريطانية الى السلطان حسين

لدى الحكومة البريطانية أدلة كثيرة على أن الخـــديو عباس حلمى قد انضم الى أعداء بريطانيا وبذلك تكون الحقوق التى له ولسلطان تركيا على مصر قد سقطت عنهما وآلت الى ملك بريطانيا •

الحكومة البريطانية تعتبر وديعة تحت يدها للمصريين جميـع الحقوق التى آلت اليها ، وكذلك جميع الحقوق التى استلمتها فى مصر مدة سنوات الاصلاح الثلاثين الماضية •

رأت الحكومة البريطانية أن أفضل وسيلة لقيامها بمسئولياتهـا نحو مصر أن تعلن الحماية البريطانية اعلانا صريحا ، وأن تكون حكومة مصر تحت الحماية بيد أمير من أسرة محمد على طبقا لنظام وراثى يقرر فيما بعد •

أخذت الحكومة البريطانية على عاتقها وحدها كل المسئولية فى دفع أى اعتداء على الاراضى المصرية مهما كان مصدره ، وأن جميع المصريين أصبحوا مشمولين بالحماية البريطانية •

بزوال السيادة التركية تزول أيضا القيود التى كانت موضوعة على عدد الجيش المصرى بمقتضى الفرمانات العثمانيـــة ، وأصبح لسموكم الحق فى الانعام بالرتب والنياشين •

فيما يختص بالعلاقات الخارجية ترى الحكومة البريطانيـة أن المسئولية التى أخذتها على نفسها تستدعى أن تكون المخابرات من

الآن فصاعدا بين الحكومة المصرية والدول الاجنبية بوساطة ممثل بريطانيا فى مصر .

وفيما يختص بادارة البلاد الداخلية ستحافظ الحكومة البريطانية على التقاليد المأثورة عنها ومعاونة الحكومة المصرية وحماية الحرية الشخصية وترقية التعليم ونشره وانماء مصادر الثروة الطبيعية والتدرج فى اشراك المحكومين فى الحكم بمقدار ما تسمح به حالة الامة من الرقى السياسى ، وهذا كله سيؤدى الى سرعة التقدم فى سبيل الحكم الذاتى كما ستحترم عقائد المصريين الدينية احتراما تاما .

ثم انتهى التبليغ بنص العبارة الآتية :

« ولسموكم أن تعتمدوا فى اجراء ما يلزم من الاصلاحات على كل عطف وتأييد من جانب الحكومة البريطانية ، وعلى أن أزيد على ما تقدم أن حكومة جلالة الملك تعـول بكل اطمئنان على اخلاص المصريين ورويتهم واعتدالهم فى تسهيل المهمة الموكوله الى قائد جيوش جلالته المكلف بحفظ الامن داخل البلاد ومنع كل عون للعدو .

وانى أنتهز هذه الفرصة فأقدم لسموكم أجل تعظيماتى » .
ملن شيتهام

هذا هو البرنامج والخطة كما وضعتهما الحكومة البريطانية لسلطان مصر .

أما الوزراء المصريون فقد ظلوا فى كراسيهم الوزارية منفذين لاوامر المحتلين .

أما الوطنيون والسياسيون بل جميع المتعلمين وأنصاف المتعلمين المصريين فقد أصيبوا بانفعالات نفسية عنيفة أبرزها الحزن والكمد والسخط والضيق والغيظ والحقد والدهشة والذهول ، ومما زاد هذه المشاعر شدة وهولا عجزهم المطلق عن القيام بأى عمل ايجابى قولا او فعلا يظهرون به انكارهم وما يشعرون ، ذلك لان الاعتقال والسجن والنفى كانت أخف العقوبات لأقل الشبهات ومن غير محاكمات .

والآن فلننظر كيف استحكمت حلقة البؤس والشقاء فعمت هذه المشاعر نفسها كل فرد من أفراد الشعب المصرى فى المدن والقرى حتى أصبح انفجار الثورة أمرا مؤكدا لا مخرج لمصر سواه .

الفصل الثالث

أعمال المحتلين في مصر طوال مدة الحرب

سلسلة طويلة من الاعمـــال الثقيلة المجحفة المرهقـــة للشعب ارتكبها المحتلون فى قسوة هائلة نخص بالذكر منها ابرزها وأفدحها وادهاها وابعدها اثرا :

(١) تسخير العمال المصريين فى الاشغال الشــاقه لخدمة الجيش البريطانى :

جندت السلطات العسكرية البريطانية عددا كبيرا جدا من العمال والفلاحين بلغ فى تقدير الانجليز أنفسهم مليونا وربع المليون مصرى كانوا ينتزعون من بين أهليهم انتزاعا ثم يقال عنهم انهم «**متطوعون**» بينما هم فى حكم المعتقلين ، وكان تجنيدهم بعلم الوزراء المصريين وموافقتهم وبمعاونة رجال الحكومة المحليين فى الاقاليم ، وكان يقذف بهؤلاء العمال والفلاحين الاشقياء الى حيث توجد الجيوش للقيام بخدمتها فى حمل الاثقال وانشـــاء الطرق فى شبه جزيرة سيناء ومد الســـكك الحديدية الى فلســـطين وتنظيف السيارات والعربات واللوريات واصلاحها من العطب ، وقد مات منهم كثيرون موت الذئاب وأصيب كثـــيرون منهم بأمراض شـــتى أو عاهات مستديمة جعلتهم عاجزين عن العمل بقية حياتهم ، ولما عادوا الى

قراهم تحدثوا عن الوحشـــية التى عوملوا بهـا مما أثار نفوس الفلاحين وسائر الاهالى بالغيظ والحقـــد على المحتلين ، والآن فلننظر ما سجله لورد ملنر فى تقريره عن هؤلاء المساكين وقيمة خدماتهم ، قال :

« ان الخدمات التى قام بها فيلق العمال المصريين كانت خدمات لا تقدر بثمن ، ولم يكن غنى عنها لنجاح الحملة على فلسطين ، وان الحكومة المصرية قد ايدت رجال السلطة البريطانيه باعظم تعاون والدلائل على ذلك كثيرة منهـا تنازلهـا عن مبلغ ثلاثة ملايين جنيه من حساب الامانات والعهد التى كانت قد سلفتها للسلطات البريطانيه وكان يحق لها أن تطالب بها » •

مصر الفقيرة المقهورة المنكوبة تنزل عن هـــذا المبلغ الضخم لبريطانيا المليونيرة ••!!

ثم استطرد ملنر فسجل فى تقريره ما يأتى :

« ان المتطوعين قد تظلموا من اطاله مدة خدمتهم الى ما بعد التاريخ الذى تعاقدوا عليه ، ثم ان نظام التطوع لم يف بتقديم العدد الكافى فاضطر الامر اذ ذاك الى اســتخدام الضـــغط الادارى للحصول عليهم ، ولما كان المصريون قد أعلنوا فى اول الحرب مع تركيا بانهم لا يطلبون الاشتراك فيها ، بقى التطوع اســما لا معنى له ، فعهد الى عمد البلاد بالتجنيد •

ثم قال : « وقد اختلف الناس فى مقدار هذه المظالم والمساوىء ولكنها على كل حال كانت من الكثره والفداحه بحيث ساءت الناس كثيرا ، ويسرت للمحرضين السياسيين انتهـــاز الفرصة لقضاء ماربهم » •

(٢) استيلاء السلطات العســـكرية البريطانية على الرديف فى الجيش المصرى واستخدمته فى كثير من الاعمال الحربية •

(٣) الاستيلاء على الحبوب ومواد المؤن لاطعام جيوش الحلفاء الجرارة فى مصر وبلاد الشرق الاوسط ، وكان الانجليز لا يدفعون اثمانها بل يقيدونها دينا على الحكومة البريطانية وكانت الحكومة المصرية نفسها تدفع هذه الاثمان من ميزانيتها الضئيلة ، ثم جاءت الحكومة المصرية الكريمة فى آخر الحرب وتنازلت عن كل هـــذه الديون وهى تزيد على الثلاثة ملايين جنيه التى أشار ملنر بذكرها فى تقريره ٠

(٤) الاستيلاء على كثير من دواب الفلاحين التى يعتمدون عليها فى النقل والزرع والمؤونة ٠

(٥) تقييد أسعار القطن خدمة للمصانع البريطانية فى انجلترا وحرمانا للفــلاحين والمزارعين المصريين حتى من الحصـــول على الاثمان المجزية ، ولم تكن تلك الاسعار متمشية مع الغلاء الفاحش الذى عم البلاد واشتدت وطأته مع دفع الضرائب فكانوا يضطرون الى بيع ما لديهم من مصاغ وحلى ذهبية أو يستدينون من المرابين بالربا الفاحش لاداء هذه الضرائب ٠

وكان هذا البلاء راجعا الى الخسارة الفادحة التى حلت بالمزارعين بسبب التحكم فى أسعار القطن ، وقد اعترف ملنر ببعض هـــذه الحقائق فى تقريره اذ قال :

« ان التحكم فى أسعار القطن زاد استياء الناس لان هذا التحكم قد حرم المزارعين مزية المنافسة والمزاحمة فى الاسواق الخارجية مع كون ايجار أطيانهم قد زاد » ٠

(٦) استخدام المرافق العامة كالسكك الحـــديدية واستعمالها باستمرار فى نقل الجيوش والعتاد الحـــربى حتى أضنيت السكك الحديدية المصرية بالعطب واحتاجت فيما بعد الى تجديدات واسعة النطاق أرهقت خزانة الحكـــومة المصرية بأعبــاء جسيمة مرهقة وكلفتها ملايين الجنيهات ٠

(٧) الاستيلاء على كثير من المبانى العامة كمبـــانى المدارس والمعاهد وتحويلها الى مستشفيات عسكرية بريطانية •

(٨) اغتصاب أموال الناس تحت اسم « التبرعات للصليب الاحمر» فجاء ذلك ضريبة جديدة فادحة على القـــادرين وغير القادرين فى الريف وفى المدن ، وكأنه لم تكف السلطات البريطانية ما قامت به من مصادرة أرزاق الناس وحاصلاتهم ومواشيهم ودوابهم ، ولقد تولى أمر جمع هذه التبرعات المغتصبة رجـــال الادارة من عمد ومأمورى المراكز فأصبح (ما كان أول الامر تبرعا للصليب الاحمر) أموالا تجمع بالغصب والقهر والاكـــراه بعلم السلطة العســكرية البريطانية وموافقة الحكومة المصرية •

هذا وقد فتحت هذه العملية الظالمــة كل أبواب السلب والنهب والمنكرات ولم يسلم منهـــا غنى ولا فقير ، وقد اعترف لورد ملنر نفسه بهذه الحقائق اذ قال فى تقريره :

« لقد اشتدت وطأة هذه المظالم على الناس لا سـيما أن أسـعار الاشياء الضرورية قد ارتفعت فى مصر ارتفاعا متواليا مُطردا لم يسبق له مثيل ، وخصوصا أسعار الحبوب والملابس والوقود فقد ثقلت وطأتها على الفقراء الذين لم تكن أجورهم تكفى للنفقة التى يقتضيها غلاء المعيشة بينمـــا هم يرون عددا من الاجـــانب غير المحبوبين يجمعون الثروات الطائلة ويعيشون فى رغد من العيش» •

(٩) الاعتـداءات المستمرة على المصريين عامة وعلى البـــاعة المتجولين وأصحاب الحوانيت خاصة والذين ارتكبوا هذه الاعتداءات هم جنود بريطانيون واســتراليون ونيوزلنديون فاذا دافع أحـــد المصريين عن نفسه أو ماله أو بضاعته كان نصيبه المحقق الضرب والايذاء ، ومن عجب أن هذه الجرائم كانت ترتكب نهارا وليلا فى الشوارع والميادين على مرأى ومسمع من رجال البوليس المصرى الذين كانوا بلا حول ولا قوة ، فكانوا يشـاهدون وهم عاجزون جازعون عن حماية الاهلين •

(١٠) التزايد المطرد فى عـــدد الموظفين الانجليز فى جميع وزارات الحكومة ومصالحها وفروعها وكل أقسامها ، وفى الجيش والبـوليس ، وكان استيلاء الانجليز تاما على جميـــع الوظائف الرئيسية من الدرجة الرابعة فما فوقها ، بل وما دونها فى بعض الاحايين ، هذا فضلا عما بدا من كثير منهم من الغطرسة والتعالى على الموظفين المصريين الذين شعروا بالمهـــانة ، فامتلأت نفوسهم حقدا وغيظا وكمدا واستعدادا للاضراب أو الثورة فى أول فرصـــة مواتية ٠

(١١) تعطيل الجمعيةالتشريعية حتى لايرتفع صوت بين جدرانها بنقد أو حتى باقتراح لا يرضـــاه المستعمرون المحتلون ، فتأجلت اجتماعاتها مرة بعد مرة حتى تم تعطيلها نهائيا ٠

(١٢) اغتصاب الحكومة البريطانية لنفســـها الحق المطلق فى تعيين الجالس على عرش مصر ، فعينت أولا الامير حسين كامل وبعد وفاته عينت الامير أحمـــد فؤاد سلطانا على عرش مصر ثم وعدت بوضع نظام للوراثة بالاتفاق بينهـــا وبين الســلطان فؤاد عندما ترى الوقت مناسبا لذلك ٠

(١٣) استغلالها ضعف رشدى باشـــا رئيس الوزارة المصرية طوال مدة الحرب حتى نالت منه ومن مصر ما لم يخطر لها على بال ، فوثقت به واطمأنت اليه واعتمدت عليه ، وقد بلغ من تفانى رشدى باشا فى الولاء للانجليز وخدمتهم خدمة فاقت كل حد معقول أنه ارتكب الاعمال الثلاثة الآتية نسوقها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

أ ـ فى ٢٠ من أكتوبر ١٩١٧ استصدر مرسوما بامضاء السلطان دعا فيه الناس الى التطوع فى خدمة السلطة العسكرية البريطانية وعرض عليهم امتيازات تحثهم على هذا التطوع ٠ وعلى أثر ذلك زادت حركة مصادرة الابل والدواب على اختلاف أنواعها فى جميع القرى والمراكز ، وامر اصحابها أن يحضروا كل ما لديهم من هذه

الدواب الى المراكز والاقسام لمعاينتها توطئة لشرائها كما أمروا بالا يتصرفوا فيها أو ينقلوها من جهة الى أخرى الا باذن خاص من المأمور المختص ، وكل جمل أو ناقة أو حمار أو حصان لا يصلح للاعمال فى خدمة السلطات البريطانية كان يدمغ بعلامة مخصوصة بحيث اذا وجد حيوان غير مدموغ بتلك العلامة قبض على صاحبه ووقع عليه عقاب صارم •

ب ـ فى ٩ من مارس ١٩١٨ : جمع رشدى باشا مجلس وزرائه واستصدر منه قرارا عجيبا يقضى بأن تقدم حكومة مصر منحة قدرها ثلاثة ملايين جنيه ونصف المليون الى الحكومة البريطانية •

ج ـ والادهى من هذه المنحة التعليل الذى ساقه لتبريرها ، فقد سجل رشدى باشا فى القرار « **ان المنحة اعتراف بجميل بريطانيا العظمى التى حمت البلاد من خطر الغارات** » •

ومعنى هذا أن الحماية البريطانية التى أذلت مصر أوجع اذلال وحققت بها بريطانيا هدفها الاستعمارى الثالث هى نعمة وبركة فى نظر رشدى ووزارته التعسة •

وانه لهوان ما بعده هوان أن يشكر الغاصب على اعتدائه وعدوانه ثم يكافأ بالمال الجزاف وهو السالب لحــرية البلاد واستقلالها ، المعذب لابنائها ، المدمر لكيانها ، المذل لكل رأس فيها •

وانها لمصيبة أن يكون الانسان مظلوما مغلوبا على أمره ولايشعر بأنه مظلوم ولا يدرك مبلغ هوانه على ظالمه •

وانها لمصيبة أدهى وافدح أن يعرف ظالمه ومظالمه وآثامه ، ثم هو يثنى عليه ويظهر الحب له والاعجاب به ويغدق المال عليه كمكافأة على تصرفاته الجائرة الخانقة القاتلة ولا تفسير ولا تعليل لهــذا الا •• ماذا أقول ؟ نوم الضمير !! أو هل هو « موت الضمير » !!

وان الانسان ليعجب ويتساءل : فى سبيل أى مقابل قبل رشدى باشا كل هذا ؟؟ هل اشترط شرطا واحدا أو أخذ عهدا من الانجليز تستفيد منه بلاده فى المستقبل ؟

كلا !! لم يشترط شرطا بل لم يحاول أن يفكر فى الحصول على أى وعد من الانجليز لخير البلاد فى المستقبل •

وفيما يلي شهادة قاطعة حاسمة مقنعة من أحد كبار المؤرخين الانجليز •

كتب كولونيل الجود في كتابه عن « مصر تحت الحماية » ما نص ترجمته الحرفية :

« لو أن وزيراأقوى من رشدى باشا فى مكانه لعمد الىالمساومة• ولكنه لم يشترط شرطا واحدا وساءت العاقبه بمصر من جراء هذا الاهمال ، وليس فى وسع رشدى باشاأن يقول كلمه واحده تخفف من وقع تسليمه واثاره » •

هذا رأى المؤرخ الانجليزى المنصف رغم انجليزيته يشـــهد بما لحق مصر من غبن وظلم ، بما كان عليه رشدى من تخاذل وضعف والحق ما شهد به الاعداء ، ولكن ما هو رأينا نحن المصريين الذين عشنا هذه الحقبه التعسة من تاريخ وطننا ؟

انا وخمسة(١) من أصدقائى الشبان كنا فى مطلع العشرين من عمرنا ونجتمع مساء كل يوم نفكر ونتحادث ونتنفس بمشاعر حارقة وكان اجماعنا فى الرأى والشعور يتناول النواحى الآتية :

(١) حكام مصر من وزراء وأمراء ضــعاف وخونة جـديرون بالاحتقار لتعاونهم وتامرهم مع المحتلين المستعمرين •• وهذا أقل ما يستحقونه من جزاء •

(٢) شعب مصر شعب أصيل صبور فقير أرهقهالظلم والاستغلال ينحنى للعواصف والازمات ولكنه لا ينكسر ولا يموت • قد ثار فيما مضى وابتلع الغزاة وسيثور عاجلا أو أجلا لا محالة •

(٣) ليس لنا أن نيأس ولكن لابد من زعيم وطنى شجاع مصرى أصيل يتولى التوجيه فى القيادة ويمثل روح الفـــداء • لقد ظلت الاحقاد تتراكم وتتزايد من عام الاحتلال سنة ١٨٨٢ والثوره آتية لا ريب فيها ولكن متى تكون ؟؟ هذا رأينا الاجماعى •

---

(١) احمد أمين • محمد فريد ابو حديد • والاستاذ الزيات • وحسن مظهر فهمى • ومحمد خلاف •

ما الذى ينقص مصر حتى تنفجر فيها ثورة عارمة ؟

لقد بلغت الروح الحلقوم !! نحن الآن فى السنة الرابعة والاخيرة من الحرب ، كل طبقة وكل طائفة وكل جماعة وكل فرد متعلما كان أو غير متعلم فلاحا كان أو عاملا شيخا كان أو شابا أو مراهقا أصبح مابين حانق وحاقد وغاضب وساخط وبائس ويائس٠ ان جميع المصريين تحركهم مشاعر كاوية شاوية حارقة اللهم الا اذا استثنينا رشدى باشا وحفنة وزرائه الخاضعين الخانعين ••

حقا ان قبضة الانجليز على البلاد وحكومتها وماليتها وجيشها وبوليسها لا تسمح بقيام ثورة على أى نطاق لا سيما أن الاحكام العرفية وقانون التجمهر والاعتقالات تمارس على أوسع نطاق ، ولكن من جهة أخرى لا يمكن أن يموت الشعب المصرى خنقا وكبتا ويأسا •

والآن يعرض سؤال خطير وفى الاجابة عنه مفتاح الموقف كله :

ما الذى تحتاج اليه الثورة اذن لكى تنفجر كالبركان ويعم لهيبها كل مكان ؟

الجواب عن ذلك غير بعيد ••

الثورة مازالت فى حاجة الى ثلاثة عوامل جديدة أراها على جانب عظيم من الاهمية لكى تخرج من الكبت والكتمان الى الانفجار والفوران وهى :

١ ـ الامل الحافز المثير •
٢ ـ والزعيم القائد القدير •
٣ ـ والشرارة التى تحدث الانفجار •

أما الامل الحافز فقد توهج فى النفوس وتفتحت أبوابه بفضل مبادىء الرئيس ولسون ، والتصريح البريطانى الفرنسى للعرب •

وأما الزعيم فقد تجلى فى سعد زغلول أصلح رجل فى مصر للزعامة والقيادة والتوجيه غير منازع •

وأما الشرارة فقد كانت فى اعتداء الانجليز على الزعيم باعتقاله ونفيه الى مالطة مع البارزين من أعوانه وزملائه •

والآن لابد من بعض التفاصيل لكل من هذه العوامل الثلاثة •

الفصل الرابع

١ ـ الأمل .. الحافز المثير

مبادىء الرئيس ولسون

فى ٨ يناير ١٩١٨ ألقى الرئيس ولسون « رئيس الولايات المتحدة » خطبة ضافية فى الكونجرس حدد فيها مبادئه الاربعة عشر والتى وصفها بأنها « البرنامج الوحيد لاقرار السلام » وقد دخلت الحرب سنتها الاخيرة فأراد ولسون أن يمهد لالمانيا طريق الاستسلام ويضع للعالم قواعد السلام .

وقد حرصت على تسجيل كل هذه المبادىء هنا لاهميتها التاريخية البالغة وآثارها البعيدة المدى :

المبدأ الاول : خاص بالمعاهدات . تكون المعاهدات صريحة لضمان السلام ويجرى وضعها علانية « ولا تحتوى على شروط سرية » .

المبدأ الثانى : خاص بحرية البحار : تكون حرية البحار مكفولة فى زمن السلم وفى زمن الحرب .

المبدأ الثالث : ازالة الحواجز الاقتصادية بقدر الامكان بين الامم الموقعة على معاهدة الصلح .

المبدأ الرابع : تخفيف السلاح فى الدول الى أقصى حد مستطاع ويتفق مع الامن الداخلى لكل منها .

المبدأ الخامس ـ حق تقرير المصير : وينص على « تسوية المشاكل المتعلقة بالسيادة » • أو الاراضى أو المطالب الاستعمارية على اساس قبول تلك التسوية قبولا اختياريا من جانب الشعب صاحب الشأن مع مراعاة مصالح الحكومة التى يعنيها الأمر •

المبدأ السادس : الجلاء عن جميع الاراضى الروسية •

المبدأ السابع : الجلاء عن بلجيكا واعادتها كما كانت •

المبدأ الثامن : الجلاء عن المقاطعات الفرنسية المحتلة واعادة الاجزاء التى تم غزوها وانصاف فرنسا من الغبن الذى لحقها عام ١٨٧١ وذلك باعادة مقاطعتى الالزاس واللورين اليها •

المبدأ التاسع : تعديل الحدود الايطالية تعديلا واضحا يتواءم مع المطالب القومية •

المبدأ العاشر : شعوب مملكتى النمسا والمجر يمنحون فرصة الحكم الذاتى •

المبدأ الحادى عشر : رومانيا والصرب والجبل الاسود تتحرر ويتم الجلاء عنها ويعاد اليها المقاطعات المحتله • وتمنح الصرب ميناء حربيا مع تامين طريقها الى البحر • والدول البلقانيه ينبغى أن تتكون على اسس التاريخ ومقتضيات القومية •

المبدأ الثانى عشر : خاص بتركيا ، وينص على ان الولايات الداخله فى الامبراطورية العثمانيه يضمن لها حقها فى السياده ، والشعوب الخاضعة للحكم التركى تتحرر وتمنح الاستقلال ومضايق الدردنيل تفتح للتجارة لجميع الامم بضمانات دوليه •

المبدأ الثالث عشر : خاص ببولندة : تنشأ دولة بولندة المستقلة وتمنح ميناء بحريا مع تامين طريقها الى البحر •

المبدأ الرابع عشر : خاص بانشاء عصبة الامم •

يجب انشاء عصبة للامم بمواثيق محددة لكفالة السلام ووضع الضمانات المشتركه للمحافظة على الاستقلال السياسى وسلامة الاراضى لجميع الدول كبيرها وصغيرها على السواء •

هذه المبادىء الاربعة عشر جعلت من الرئيس ولسون بطلا روحيا فى العالم بأسره وفتحت ابواب الامل لجميع الشعوب وكانت حديث الناس فى كل انحاء العالم •



الرييس وسون

وكان لذلك أسباب ثلاثة :

الاول : صدورها من رئيس أقوى واغنى دولة فى العالم ، الدولة التى كان مجرد دخولها فى الحرب فى ابريل سنة ١٩١٧ مرجحا هائلا لكفة الحلفاء نحو النصر وايذانا حاسما بقرب هزيمة المانيا من غير شك •

الثانى : ان هذه المبادىء نفسها بروحها الحرة الجديدة وبقيمتها الذاتية دستور جديد رائع للانسانية فى العصر الحيث ، ووجد فيها كل شعب من الشعوب مبـــدأ واحدا أو أكثر فيه راحته وخلاصه ونجاته مما يعانيه من بلاء •

الثالث : ان دول الحلفاء نفسها (وفى طليعتها بريطانيا وفرنسا الاستعماريتان) قد رحبت بها وأثنت عليها فلم يعد هناك شك فى امكان تنفيذها وتحقيقها •

والآن فلننظر كيف كان تأثير هذه المبادىء الرائعة فى مختلف الشعوب والحكومات والنتائج التى نجمت عنها :

(١) المانيا والنمسا والمجر :

لقد يئست شعوب هذه الدول وحكوماتها من النصر بعد دخول أمريكا الى جانب الحلفاء شعرت بالغبطة وضعفت فيها الرغبة في استمرار الحرب وتحركت في أعماقها الرغبة في الاستسلام ، ولا خطر من استسلام يصاحبه رجاء في النجاة من ويلات الهزيمة المنتظـرة والافلات من فتك المنتصرين وجبروتهم ، وانتشر الشعور بأن في الامكان انهاء الحرب بأقل خسارة ممكنة ، ولهـذا يرى بعض المؤرخين أن مبادىء الرئيس ولسون قد أضعفت بل حطمت « ارادة القتال والمقاومة في المانيا والنمسا » ، وعجلت بانهاء الحـرب العالمية الاولى ٠

(٢) بريطانيا وفرنسا الاستعماريتان :

لم يسعهما الا الترحيب بتلك المبادىء تضامنا مع الـولايات المتحدة ورغبة في نصر قريب بعد الخسائر الفادحة الداميـة التي حلت بهما ، ومن العسير الاستمرار في احتمالها ، ولكن مما لاشك فيه أن الحكومتين قد أوجستا خيفة من بعض تلك المبـادىء التي من شأنها أن تحرمهما من كسب كل ثمار النصر بل قد تؤدي في النهاية من حرمانهما من بعض ما في أيديهما من شعوب منكوبة بالاستعمار البريطاني والفرنسي ٠

(٣) الاحرار في جميع الدول :

اغتبط الاحرار بهذه المبادىء أشد اغتباط لانها تحتم الدلوماسية المكشوفة والمعاهدات الصريحة وانتشر الشعور بأن عهد السياسة السرية والمؤامرات الخفية قد انتهى الى غير رجعة ٠

(٤) ودول العالم المتحضر :

ولا سيما الاوربية منها اغتبطت كذلك اذ شعرت بقرب الخلاص من فداحة الضرائب التي اثقلت كواهلها بسبب أعبـاء التسليح والتجنيد الاجباري وانتعشت آمال شعوبها بقرب انشاء جمعية دولية تسمى « عصبة الامم » يجتمع في حظيرتها الممثلون الرسميون للدول بقصد خدمة غرض نبيل لم يسبق له مثيـل وهو مناقشـة الخلافات والمشاكل الدولية بالمفاوضات والوسائل السلمية ثم تنتهي بالطرق الودية لا بالحروب الدموية ، ولذلك أطلق بعضهم عـلى

الحرب العالمية الاولى وصفا رائعا « بانها الحرب الاخيرة التى تمنع كل الحروب فى المستقبل » •

أو هكذا ذهب التفاؤل الشامل بالظنون والآمال ••

(٥) والآن نأتى الى بيت القصيد : مصـــر !!

لم يكن ما حدث فى مصر وما طرأ على المصريين مجرد اغتباط أو مجرد ابتهاج بل كان بعثا جديدا كاملا شامـــلا ، ولكى نبين الصورة على حقيقتها لا بد من كلمة موجزة عن الحالة النفســية للمصريين قبل ظهور مبادىء الرئيس ولسون والحالة المعنوية بعد ظهور تلك المبادىء • وهى حقبة من الزمن عشتها وعرفتها واهتزت نفسى الى اعمالها بأشد الانفعالات قبلها وبعدها ولكن شــتان بين الانفعالين •

الحالة النفسية فى مصر قبل ظهور مبادىء الرئيس ولسون

ساد الحزن والكمد والضيق والغيظ والحقد والمخـاوف وسوء الظن العام الشامل •

هذا هو الوصف الموجز للحالة النفسية عند المصريين جميعا فى ذلك العهد الاسود ، لقد مرت بهم هزائم تلو هزائم وخيبة امال متكررة منذ اليوم اليوم الاول للاحتلال البريطانى ، وهذه الحالة التعسة قد طبعت المصريين بطابع خاص فى الســلوك وحــددت أسلوبهم فى مواجهة الحياة •

وأسلوب السلوك هذا قائم على السلبية والشعور بالعجز فسادت روح الهزيمة وتوقع المكاره والمصايب واشتد الميل الى التشاؤم لاسيما أن عــدوهم القاهر الجبار على وشك أن يخرج منتصرا من أكبر حرب خاضها فى حياته وسيكون بطبيعة الحـــال أشد قهرا وضراوة مما مضى ••

وليس هناك أشد فتكا للادارة وشلا للعزيمة من هــذا الشعور القاتل للافراد وللشعوب وهو شعور السلبية المطلقة •

الحالة النفسية فى مصر بعد ظهور مبادىء الرئيس ولسون

ماذا فى هذه المبـــادىء التى ذاعت وانتشرت فانتشت وأحيت ميت الآمال ثم الهبت المشاعر فزادت طاقاتها الحيوية وبالخيال البناء برزت الروح الايجابية فى قوة ومضاء •

مبادىء ثلاثة هى السر فى هذا التطور الرائع :

(١) حق الشعوب فى تقرير مصيرها •

(٢) تحرير الشعوب العربية الخاضعة لسيادة تركيا ومنحها الاستقلال •

(٣) قرار انشاء « عصبة الامم » لحل المشكلات الدولية بالعدل والانصاف •

وهكذا انتقلت بها الحالة النفســية من النقيض الى النقيض •• الفرح والانتعاش والجرأة وقوة العزيمة وروح الاقدام والامــل المضىء الواثق والانتصار المؤكد ، وهى كلها عناصر ايجابية فعالة مثمرة •

هذا هو الوصف الموجز للحالة المعنوية الجديدة •

وقد شجع على انتعاش هذه الحالة المعنوية الرائعة فى المصريين بدء الانكماش الذى ظهر على السلطات البريطانية فى مصر •• وكان انكماشهم هذا امرا لا مندوحة عنه ولا حيلة لهم فيه ، فالحرب على وشك الانتهاء والمبادىء الجديدة التى ستحل كل المشــاكل على اساسها قد ظهرت وانتشرت ورحبت بها جميع الشعوب وجميع الحكومات ••

هذا هو الامل المثير الحافز حقا الذى انتظره المصريون بفــارغ الصبر اكثر من ثلاثين عاما ، ولم تشأ المقادير فى رحمتها بمصر الا أن تضيف الى هذا الامل الرائع ما يزيده روعة وقوة وثباتا : والا أن تضيف الى الروح المعنوية العالية المتصاعدة عند المصريين ما يزيدها قوة وعزما وانتعاشا وصعودا وتأكيدا •

وهذا المدد الجديد جاء فى شكل تصريح بريطانى فرنسى أصدرته الحكومتان البريطانية والفرنسية للشعوب العربية فى منطقة الشرق الاوسط •

التصريح البريطاني الفرنسي للعرب

فى نوفمبر ١٩١٨ :

اصدرت حكومتا بريطانيا وفرنسا تصريحا مشتركا موجها الى الشعوب العربيه المحكومة بتركيا وقد جاء فيه :

(١) ان الغرض الذى تهدف اليه بريطانيا وفرنسا من مواصلة الحرب فى منطقه الشرق الاوسط هو تحرير الشعوب (التى طالما ظلمها الاتراك) تحريرا نهائيا وتأسيس حكومات وادارات اهلية تبنى سلطتها على اختيار الاهالى الوطنيين لها اختيارا حـرا ، وقيامهم بذلك من تلقاء أنفسهم .

(٢) وتنفيذا لهذه النيات قد تم الاتفاق على تشجيع العمل لتأسيس حكومات وطنية اهلية فى سوريا والعراق اللتين أتم الحلفاء تحريرهما وكذلك فى البلاد التى يواصلون العمل لتحريرها ..

(٣) والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من الحكم ، وانما همهم أن يحققوا بمعونتهم ومساعدتهم النافعة اقامة الحكومات التى يختارها أهلها لانفسهم ، وأن يضمنوا لهم قضاء عادلا واحدا للجميع ، وأن يسهلوا انتشار العلم فى البلاد وتقدمها اقتصاديا وذلك باثارة همم الاهالى وتشجيعهم ، مع ازالة الخلافات التى استخدمتها السياسة التركية .

(٤) هذا ما تعهدت به الحكومتان الحليفتان على القيام به فى البلاد المحررة ..

***

لم يكن وقع هذا التصريح الرسمى الخطير فى نفوس المصريين اقل من وقع مبادىء الرئيس ولسون فازداد الانتعاش حتى بلغ اقصاه وازداد التفاؤل حتى جاوز أبعد مداه .

وقد خفت الاحكام العرفية البريطانية حتى لم يشعر بوجودها انسان فى مصر واهمل تنفيذ أمر التجمهر حتى شعر الناس أنه زال وأخذ المصريون يكثرون من المقابلات والاجتماعات فى الاندية وهى

المنازل ويتناقشون خفية وجهرة ويتحدثون بلا خشـــية من رقيب أو حسيب •• قالوا وماأكثر ما قالوا ••

ـ لو كانت مصر مستعمرة تركية لنالت حريتها واستقلالها كما وعدت بذلك سورية والعراق فى التصريح البريطانى الفرنسى •

ـ ولكن مصر دولة مستقلة أصلا وتحت الحماية غصبا وقهرا ، وهى حماية باطلة تنقضها نفس التصريحات البريطانيـــة العديدة التى صحبت الاحتلال فى سنواته الاولى ، فلاشـك مطلقا فى أن مصر ســتنال حريتها واســتقلالها أســوة ببلاد دونها فى المستوى الدولى بل دونها بمراحل فى مســـتوى الثقافة والثروة والمدنيـة والانظمة الادارية والحالة الاجتماعية •

ـ لن يقف فى وجه مصر بعد الآن أى معـترض ، ولن تستطيع بريطانيا نفسها أن تماطل بعد اليوم أو تتمحك بأية تعلة من التعلات •

ـ ما فى ذلك شك ولا أقل ظل من شك ، فالحماية زائلة حتما والاحتلال البريطانى زائل بالجـــلاء حتما ، وأن الاســتقلال آت لا ريب فيه •

بهذا تحدث المصريون فى خلواتهم وفى اجتماعاتهم وندواتهم • وهكذا فكروا فى ثقة شاملة كاملة لا يشوبها شك أو تردد •

وهكذا شعروا بنشوة وأمل وحماسة معدومة النظير ••

وحمل البريد من الخارج الجرائد والمجلات التى صدرت فى لندن وباريس وروما وواشنطون •• وفيهـــا شتى الخطب والمقـــالات والتعليقات وانتشرت فى مصر بين المتعلمين بعض ما ورد فيها من الافكار والاقوال وأذكر منها على سبيل المثال ما يأتى :

● دعائم المعاملات بين الدول ستقوم فى المستقبل القريب على مبادىء الحقوق والحريات والعدل والانصاف •

● لا يجوز بعد اليوم حكم الشعوب بسلطات مسـتبدة غير مسئولة أمام ممثلى الشعب •

● عهد الغزو والفتح والتوسع قد مضى وانقضى الى غير رجعة •

● الشعوب ، لا يجوزان تنتقل السيادة عليها من دولة الى اخرى باتفاقات أو معاهدات كأنها سلع تباع وتشترى فى الاسواق والمؤتمرات •

● يجب أن يترك لكل شعب الحق فى تقرير نظام حكمه• والحرية فى تقرير السياسة التى يراها مؤدية الى التقدم ومن غير احراج او تدخل من دولة أجنبية •

● حق تقرير المصير يجب أن يتمتع بممارسته كل شعب، ويجب أن يكون الاساس عند البت فى مصير كل امة •

● لايجوز أن تساد الشعوب أو تحكم الا بمحض ارادتها ورغبتها •

كل هذه الاراء وغيرها كانت غذاء صالحا للنفوس الجائعه الى الامل والتشجيع فازدادت ثقة المصريين بالمستقبل الباهر الذى ينتظرهم وينتظرونه لتحقيق أعز الامال ••

رأى لورد ملنر فى حالة مصر النفسية

لعل من المفيد هنا أن أسجل رأى الانجليز أنفسهم فى الحالة النفسية والعقلية التى طرأت على المصريين فى تلك الفترة الصعيدة •

كتب ملنر فى تقريره المرفوع الى الحكومة البريطانية العبارة الآتية :

« ان المبادىء التى جاهر بها الرئيس ولسون ووافق عليها الحلفاء قد أثرت تأثيرا سريعا وعميقا وحاسما فى الرأى العام المصرى • فقد ظهر أن قبول جميع الدول لفكرة « حق تقرير المصير » جاء مؤكدا ومقويا لمشاعر كانت تختمر فى صدور الطبقات المتعلمة فى مصر من زمان طويل » •

الى أن قال :

ولقد نشطت الحركة الوطنية فى مصر واشتدت عزيمة اهلها بنشر التصريح البريطانى الفرنسى فى أوائل نوفمبر عام ١٩١٨ عن سوريا والعراق فقد جاء فيه أن بريطانيا وفرنسا تنويان تحرير الشعوب التى أنقذت من الظلم العثمانى تحريرا تاما ، وأن تنشىء لهم حكومات وطنيه تستمد سلطتها من القوانين التى يضعونها من تلقاء أنفسهم ومطلق حريتهم واختيارهم •

« هذا وقد ابان المعتمد السامي البريطاني في مصر حينذاك ان هذا التصريح وهذه السياسة سيكون لهما صدى قوى في مصر ، هذافضلا عن ان المصريين كانوا قد شاهدوا قبل ذلك بقليل انشاء مملكه مستقله في بلاد العرب التي لا يزالون يعتبرونها متأخرة بمراحل في مدارج الحضاره والارتقاء عن بلادهم التي تضارع بلاد العرب بعض المضارعة » .

والخلاصه أن الحالة المعنوية في مصر قد بلغت أعلى ذروتها فعم التفاؤل واشتدت الآمال ، ولم نعد نرى في مصر خائفا ولا مترددا ولا متخاذلا ولا متشككا ولا يائسا ولا بائسا ، بل كنت ترى كل مصرى متحفزا للعمل راغبا في التكتل منتظرا ظهور الزعيم الذى يتقدم الصفوف ويتولى القيادة والتوجيه والتحدث باسم مصر والمصريين لانهاء الحماية والاحتلال وتحقيق الحريه والاستقلال .

ولم يطل انتظار المصريين ، فقد ظهر الزعيم على الفور ...

الفصل الخامس

٢ - ظهور الزعيم المنتظر

نحن الآن فى الشهر الاخير من الحرب ، شهر أكتوبر سنة ١٩١٨، •• انتشر شعور عام بان الحرب وشيكة الانتهاء وأن شمس السلام تؤذن بالاشراق ، فقد انهزمت تركيا واستسلمت ، والجيوش الالمانية تنسحب باستمرار من كافة الميادين على غير سابق العهد ، واجمعت أنباء البريد والبرق على قرب عقد الهدنة ••

فماذا أعدت مصر لهذا الحادث الجلل بعد أن تفتحت أمامها أبواب الامل على مصاريعها ؟

فى هذه الاثناء برز على كل لسان وفى كل مكان اسم الزعيم المنتظر « سعد زغلول باشا » فقد اجتمعت له صفات ومزايا لم تجتمع لاحد غيره من سائر المصريين أجمعين • انه وكيل الجمعية التشريعيه المنتخب وقد تم انتخابه لعضوية الجمعية ثم تم انتخابه وكيلا لهذه الجمعية رغم جهود الوزارة فى محاربته ورغم معارضة الانجليز المحتلين فكان هذا النصر المزدوج له رغم العراقيل دليلا على مكانته ونفوذه بين المصريين •

ولقد اثبت بنشاطه وهمته فى جميع جلسات هذه الجمعية أنه رجل كفاح وصراع فعقدت عليه زعامة المعارضة ، وكان مثيرا للاعجاب العام كلما وقف للكلام فى فصاحة وصراحة وقوة ومنطق متين ، شجاعا فى الحق وكثيرا ما تجاوز حدود الاقناع الى الافحام وسبب للوزراء كثيرا من الاحراج والازعاج بما كان يأخذه عليهم من القصور والاخطاء •

وقد انتشر على ألسنة أصحابه ومعارفه أن ما خفى من مزايا سعد ومواهبه أضعاف أضعاف ما ظهر منها حتى الآن ، رجل فذ ممتاز ، له من الشباب نشاطه وجرأته وحماسته ، وله من الشيحوخة سنها ونضجها وحكمتها ، وله من الرجولة عزم وارادة لا تلين ولا تستكين ، وصراحة تمازجها خشونة يرهبها الصديق والعدو على السواء ، وشجاعة تحميه من الجزع والهلع فى الازمات ، فلا يضعف أبدا فى الملمات ويقابل المتاعب كلها بالتحدى ويعتبرهاامتحانا لشجاعته وشخصيته وهيهاتهيهات أن يسقط فى هذا الامتحان ، فاذا واجهته أزمة ارتفع الى مستواها واتخذ ازاءها قرارا لا تردد فيه وعملا ايجابيا ينتج ثمرات ، بينما غيره يضطرب أو ينهار ويصاب بالقلق والارتباك وما الى ذلك من المشاعر السلبية التى لا خير فيها على الاطلاق . ثم له فى الحياة علم مستفيض وتجارب ثمينة عديدة وله من وطنيتهاعتداد رائع بمصريته حملهعلى كثير من التحدى والمفاخرة بأنه فلاح ابن فلاح من أجداد مصريين اقحاح ، وكان شعوره بمذلة الاحتلال واهانة الحماية شعورا عميقا غاية العمق قويا غاية القوة أليما غاية الالم ..

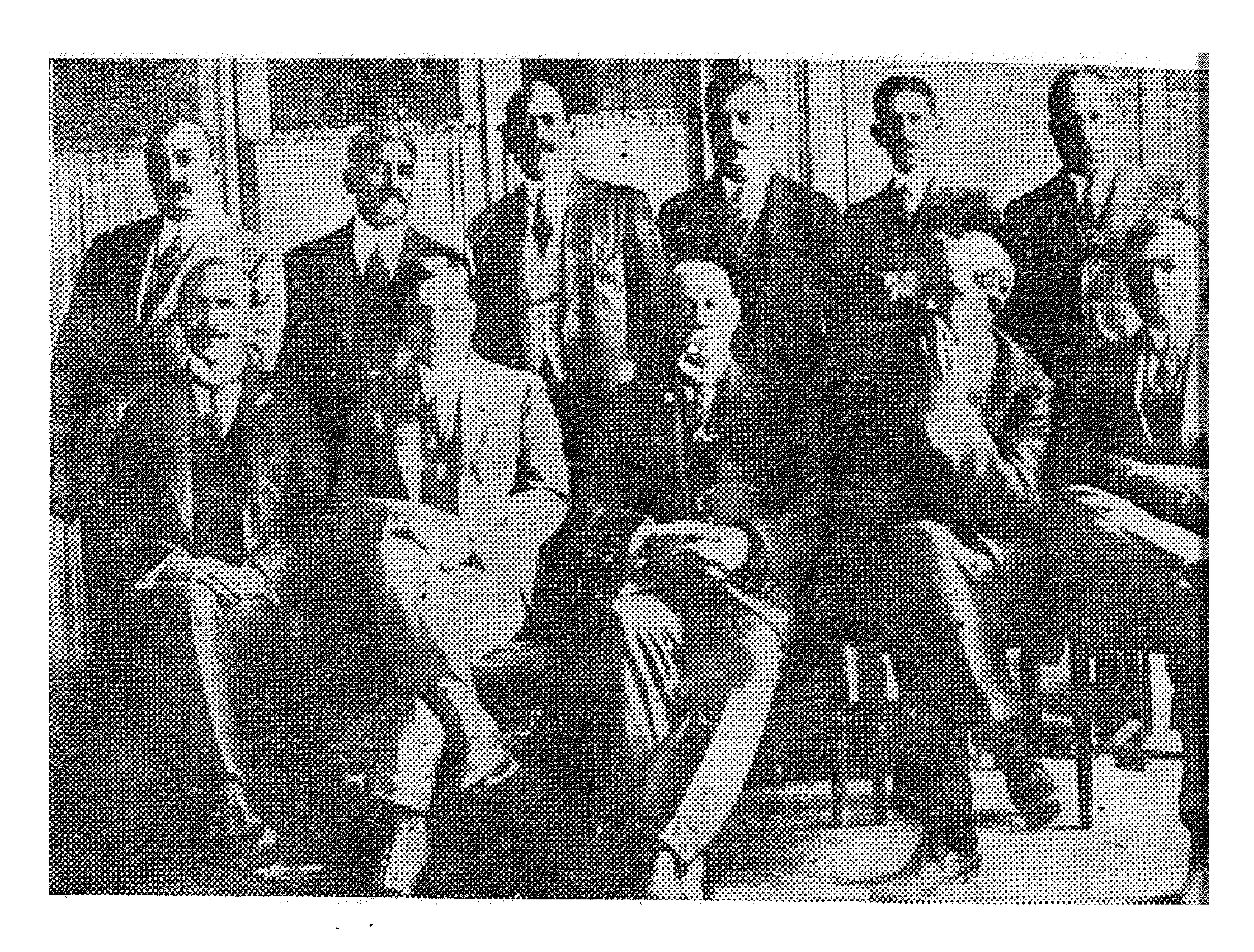
هذا هو الزعيم المنتظر وهذه هى مواهبه وصفاته البارزة المعروفة لاصدقائه وخصومه على السواء وكأنى به وقد فصلته الاقدار تفصيلا رائعا يتواءم مع حاجات البلاد فى حاضرها الرهيب وما يدخره لها الغيب فى مستقبلها القريب .

تاليف الوفد المصرى

مازلنا فى هذا الشهر الاخير من الحرب ..

ومصر كلها فى حماسة منتعشة الامال وفى نفوس ابنائها غليان وفوران وتوثب وترقب وانفعال وانتظار وسؤال واحد ظل يتردد على كل لسان صباح مساء عدة أيام ، « ما هو الطريق العملى الناجح للمطالبة بحقوق مصر ؟ » .

لقد كثرت الروايات والاشاعات وتبلبلت الافكار الى حد ما فترة قصيرة من الزمن . فمن قائل أن الامير عمر طوسون يزاحم الزعيم فى تاليف وفد برئاسته .. ومن قائل أن وفدا يتكون من رجالات الحزب الوطنى .. ثم اختفت الاشاعات فجاة وظهر أن الزعيم سعد زغلول يعمل فى جد ونشاط وفى هدوء وسكون وخفاء على تاليف وفد يكون ممثلا ووكيلا للامة المصرية ...



الزعيم سعد زغلول يتوسط اعضاء الوفد الذى توجه الى باريس عقب الحرب العالمية الاولى من اجل الضغط على بريطانيا للجلاء عن مصر ..

وقيل ان نواة الوفد قد تكونت فعلا من خمسة وهم :

الزعيم سعد زغلول رئيسا وعبد العزيز فهمى بك نقيب المحامين والسيد اليمنى فى الجمعية التشريعية وعلى شعراوى باشا عضو الجمعية ومحمد لطفى السيد بك

والاخيران من رجالات مصر الاكفاء النابهين ومن أصدقاء الزعيم المقربين .

وفى ١٣ من نوفمبر ١٩١٨ ضموا اليهم عضوين آخرين من أعضاء الجمعية التشريعية وهما :

عبد اللطيف المكباتى بك ومحمد على علوبه بك ..

وبعد ذلك أعلن أن وفد مصر أصبح مكونا من سبعة أشخاص وفى هذه المرحلة من حياة الوفد وضعوا مشروع قانون أخص بالذكر منه خمس مواد وردت فيه وهى :

المادة الاولى : تنص على تأليف الوفد من هؤلاء الاعضاء السبعة •

المادة الثانية : تنص على أن مهمة الوفد هى السعى بالطرق السلمية المشروعة حينما وجدوا للسعى سبيلا الى استقلال مصر استقلالا تاما •

المادة الثالثة : على أن الوفد يستمد قوته من رغبة أهالى مصر التى يعبرون عنها رأسا أو بواسطة مندوبيهم فى الهيئات النيابية •

والمادة الخامسة : تنص على انه لا يجوز للوفد أن يتصرف فى المهمة التى انتدب لها فليس للوفد ولا لاحد من أعضائه أن يخرج فى طلباته عن حدود هذه الوكالة التى يستمد منها قوته وهى استقلال مصر استقلالا تاما وما يتبع ذلك من التفاصيل •

والمادة الثامنة : تنص على أن للوفد أن يضم اليه أعضاء آخرين مراعيا فى انتخابهم الفائدة التى تنجم عن اشتراكهم معه فى العمل •

وفى ٢٠ من نوفمبر قرر وفد السبعة أن يضموا اليهم اثنين معروفين بميولهما الظاهرة للحزب الوطنى وهما مصطفى النحاس بك القاضى بالمحاكم الاهلية والدكتور حافظ عفيفى •

ثم عقد الوفد جلسة بأعضائه التسعة وصدقوا على مشروع قانون الوفد فى ٢٣ من نوفمبر ١٩١٨ •

وقد ضم الوفد اليه أعضاء آخرين لاستكمال بعض العناصر التى تمثل طبقات الامة أو لتحقيق بعض الرغبات وهم : حمد الباسل باشا • اسماعيل صدقى باشا • محمود أبو النصر بك • سينوت حنا بك • جورج خياط بك • واصف غالى بك • حسين واصف باشا • عبد الخالق مدكور باشا •

هذا وقد أنشأ الوفد لجنة مركزية فى القاهرة برئاسة محمود باشا سليمان وكان سكرتيرها العام عبد الرحمن فهمى بك ومهمتها جمع التبرعات واحاطة الوفد علما بما يهمه من شئون البلاد وتوجيه وتنسيق الجهود الوطنية لخدمة قضية الاستقلال •

فترة حافلة بالاحداث الجسام

فى هذه الفترة التى استغرقها الوفد فى تكوين نفسه وقبل أن يتمكن من اتمام تأليفه وينظم صفوفه وهى فترة استغرقت حوالى الشهرين وقعت أحداث ستة على أعظم جانب من الاهمية :

(١) تغير ظاهر ملموس طرأ على رشـــدى باشا وتجـلى فى مواقفه وسلوكه •

(٢) ظهور مشروع برونيات الذى يهدف الى تعـديل أو تغيير جميع القوانين المصرية واللوائح والانظمة الداخلية بما ينسجم مع الحماية البريطانية ومقتضياتها •

(٣) انتهاء الحرب العالمية واعلان الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨م •

(٤) حدث تاريخى مشهور فى ١٣ نوفمبر ١٩١٨ •

(٥) البدء فى جميع توكيلات شعبية لتأييد الوفد وتمثيله للبلاد •

(٦) طلب الترخيص للوفد بالسفر الى الخارج فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٨ ، حدث كل ذلك والوفد لايزال مكونا من تسعة أشخاص وقبل أن يضم اليه الموج الاخير فى ٢٢ من نوفمبر ١٩١٨م •

هل تغير رشدى باشا ؟

والآن لابد من بيان موجز عن كل منها والاثار التى نجمت عنها :

ظهور مبـــادىء الرئيس ولسون فى يناير ١٩١٨ ، ومن بينها المبدأ الخاص الذى ينص على حق الشعوب فى تقرير مصيرها •

وظهور التصريح البريطانى الفرنسى للعـرب فى نوفمبر ١٩١٨م والذى ينص صراحة على ضرورة تحرير الشعوب العربيـــة فى منطقة الشرق الاوسط وتركها حرة تختار نظمها واقامة حكوماتها من غير أى تدخل أجنبى فى شئونها وحرية اختيارها واستقلالها •

وظهور الزعيم القوى القدير سـعد زغلول ونزوله الى الميـدان والبدء فى تكوين الوفد •

وانكماش جبروت الانجليز فى مصر فى الشـــهرين الاخيرين من الحرب بعد أن أصبح النصر مضمونا والحرب وشيكة الانتهاء ، فأهمل قانون التجمهر وأصبح المصريون يتحركون ويجتمعون فى غير خوف •

وموجة الحماســـة والتفاؤل والنشوة التى عمت جميع المصريين في جميع أنحاء البلاد ٠

كل هذه الحقائق والعوامل أثرت فى رشدى باشا أعمق الاثر وما كان فى استطاعته ألا يتأثر حتى لو أراد ٠ ولقد تغير الى حد كبير ملحوظ هو وعدلى والرملاء فى الوزارات وأصبح رشدى يتقرب الى الزعيم فكثرت المقابلات بينهما وقيل انه يؤيد الزعيم فى ضرورة تأليف الوفد وفى ضرورة العمل أو فى ضرورة تنسيق العمـــل الرسمى من ناحيته والعمل الشعبى من ناحية الزعيم وأصحابه وأنصاره ، وهذا التعاون الظاهر قد زاد جو التفاؤل فى النجاح والتوفيق بفضل النيات الطيبة وتضافر الجهود الرســمية وغير الرسمية فى خدمة قضية الجلاء والاستقلال ٠

هذا كله ذاع وشاع وتجاوبت به الارجاء ٠

وتشاء المقادير أن تتاح الفرصة لرشدى باشا ليثبت أنه تغير وتطهر وتحرر وذلك برده الوطنى الحازم الحاسم ٠٠ الرافض الساخط على برونيات ومشروعه الخطير مما أرضى الزعيم حتى أثنى عليه ، وعرف المصريون موقف رشدى فاغتبطوا به وقدروه ٠

والآن لابد من كلمة عن هذا المشروع ٠٠

مشروع برونيات

فى ٢٤ من مارس ١٩١٧ أصدر مجلس الوزراء برياسة رشدى باشا قرارا بتأليف لجنة مشـــتركة من مصريين وأجانب لاقتراح التعديلات الواجب ادخالها فى القوانين والنظم الإدارية والقضائية التى تنسجم مع الحماية البريطانية وقد سميت « لجنة الامتيازات الاجنبية » على سبيل التعمية والتضليل وافهام الناس أن الغـرض هو الغاء الامتيازات الاجنبية وهو ما يشتهيه جميع المصريين ٠

وسيروليام برونيات هذا كان عماد هذه اللجنة وروحها ومسيرها وكان مستشارا للداخلية حينا ومستشارا للمالية بالنيابة حينـــا آخر حتى قيام الثورة ٠ وكان الى جانب هذا المستشار الاول فى دار الحماية البريطانية ٠

وقد أتمت هذه اللجنة وضع عدة مشروعات قوانين : قانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات وقانون المرافعات وبعض فصول

من القانون المدني والتجارى والنظام القضائي الذى وضع على أساس ادماج القضاء الاهلى والقضاء المختلط ليكونا نظاما موحدا مختلطا في قواعده وبنيانه مع تغليب العناصر الانجليزية ، هذا وقد تقرر فعلا أن يكون النائب العام بريطانيا •

ولعل الادهى من كل ذلك ما سمى فيما بعد « مشروع برونيات » وهو مشروع قانون نظامى لمصر (أى دستور) ينزل بمصر الى الحضيض من مرتبة المستعمرات التى لا ينفرد أهلهـا بالادارة والتشريع وحدهم بل يشـترك معهم الاجانب فى كل ما له علاقة بالادارة والتشريع •

ويتلخص هذا المشروع العجيب فيما يلى :

١ ـ انشاء مجلس نواب مصرى مؤلف من المصريين ، ولكنـه استشارى محض أى ليست له أية سلطة قطعية حاسمة فى أى أمر من الامور •

٢ ـ وانشاء مجلس شيوخ الى جانبـه يملك وحده السـلطة التشريعية كلها ويؤلف من أعضاء رسميين هم الوزراء المصريون والمستشارون البريطانيون ، ومن أعضاء منتخبين •• منهم ثلاثون مصريا وخمسة عشر أجنبيا • هذا ولقد لوحظ فى تكوين هـذا المجلس أن الاغلبية فيه للاعضاء الرسميين والاعضاء الاجـانب المنتخبين والاقلية للاعضاء المصريين المنتخبين ، ولا شك أن تنفيذ مشروع كهذا معنـاه أن السلطة التشريعية فى البلاد قد أصبحت فى أيدى الاجانب وأصبح المصريون غرباء فى بلادهم •

هذا هو مشروع الدستور الجديد فى أساسه كما وضعه الانجليز•

وهذا هو مشروع برونيات الذى تسلمه رشدى باشا فى السنة الاخيرة من الحرب بعد أن طرأ على رشـدى باشا ذلك التغيير الحميد الذى أشرنا اليه •

عرف المصريون أمر ذلك المشروع فأجمعوا على السخط عليـه والزراية به •

وعرفوا رد رشـدى باشا عليه ردا قـويا حازما فى رفض واستنكار واستهجان فأجمعوا على الثناء عليه والاعجاب به وعفى الله عما سلف ••

كان هذا وذاك من العوامل القوية التى جددت المـــرارة فى نفوس المصريين فارتفعت موجات السخط على السياسة البريطانية وعلى النيات التى يضمرها الانجليز للمصريين حتى فى هــذه الاوقات المبشرة بظهور عهد جديد فى السياسة الدولية ومعاملة الشعوب على أسس من العدل والانصاف •

ولا أعرف مشروعا بريطانيا فى مصر أجمع عليه الشعب ووكلاء الشعب والوزارة القائمة بالسخط والاستنكار والاحتقــار كهـــذا المشروع التعس •

هذا وقد اعترف ملنر نفسه فى تقريره بهذه الحقيقة اذ قال : « ما كاد المشروع يعرف أمره حتى قامت القيامة عليه واشـــتد الاحتجاج ضده » •

وهكذا مات المشروع وقبر الى غير رجعة •

انتهاء الحرب واعلان الهدنة فى ١١ نوفمبر ١٩١٨

عمت الافراح فى جميع أنحاء مصر •

أما الانجليز وحلفاؤهم فقد سكروا وعربدوا فى فرحة لا ضابط لها ولم ينكروا الا دماءهم التى حفظت وحيـــاتهم التى نجت من أخطار الحرب وويلاتها •

وأما المصريون جميعا فقد اشتدت كذلك فرحتهم لشعورهم بقرب الخلاص من كابوس الاحتلال وذل الحماية وبدء عهد جديد من أجل الاستقلال وعز الكرامة والحياة الكريمة فى أمن وسلام •

وكانت مصر كلها بمزاجها الحاضر وعزمها الاكيد مصممة على ادراك كل ما تريد ولو بذلت فى ذلك الدماء وكل أنواع الفداء •

ولم يضيع الزعيم وقتا ، فقد اتصل فى اليوم نفسه برشدى باشا وطلب اليه وساطته لدى المندوب السامى البريطانى لتحديد موعد لمقابلته ومعه اثنان من أعوانه ، فنفذ رشدى الرجاء ••

حديث ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم الذى حدد للمقابلة مع سير ريجنالد ونجت المندوب السامى البريطانى وهو يوم ١٣ نوفمبر ذهب الزعيم سعد زغلول باشا ومعه صاحباه عبد العـزيز



السير
ريجنالد
وينجت

فهمى بك وعلى شعراوى باشا الى دار الحماية ودار بينهم الحديث التاريخى الآتى :

بدأ المندوب « سير ريجنالد » الحديث بقوله :

« ان الصلح قد اقترب موعده وان العالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته زمانا طويلا ، وان مصر سينالها خير كثير وان الله مع الصابرين ، وان المصريين هم أقل الامم تألما من أضرار الحرب وأنهم مع ذلك قد استفادوا منها أموالا طائلة ، وأن عليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التى كانت السبب فى قلة ضررهم وكثرة فائدتهم » •

فأجاب سعد باشا :

« ما تكون بريطانيا فعلته خيرا لمصر فان المصريين بالبداهة يذكرونه لها بالشكر » • وخرج من ذلك الى القول : « ان الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق الا تنظيف آثاره • وانه يرى أن لامحل لدوام الاحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات وأن الناس ينتظرون بفارغ الصبر زوال هذه المراقبة كى ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاهم أكثر من أربع سنوات » •

المندوب : حقا أنا ميال لازالة المراقبة المذكورة وسأتصل فعلا مع القائد العام للجيوش البريطانية فى هذا الصدد • ثم استطرد فقال : لما كانت هذه المسألة عسكرية فانه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد العام سيكتب للحكومة البريطانية ويأمل الوصول الى ما يرضى • ثم استمر قائلا : يجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا أنه متى فرغت بريطانيا من مؤتمر الصلح فانها تلتفت الى مصر وما يلزمها ، ولن يكون الامر الا خيرا •

سعد باشا : ان الهدنة قد عقدت ، والمصريون لهم الحق فى أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ولا مانع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انجلترا لهم •

المندوب : يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم• ان المصريين فى الحقيقة لا ينظرون الى العواقب البعيدة •

سعد باشا : ان هذه العبارة مبهمة ولا افهم المراد بها •

المندوب : أريد أن أقول ان المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر •

سعد باشا : لا أستطيع الموافقة على ذلك • فانى ان وافقت انكرت صفتى فانى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة ، وكان انتخابى بمحض ارادة الرأى العام مع معارضة الحكومة ولورد كتشنر فى انتخابى ، وكذلك كان الامر مع زميلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك •

المندوب : انه قبل الحرب ، كثيرا ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من رجال الحزب الوطنى وكان ذلك بلا تعقل ولا روية فأخرت مصر ولم تنفعها فما هى أغراض المصريين ؟

على شعراوى باشا : اننا نريد أن نكون أصدقاء للانجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر ••

المندوب : اذن انتم تطلبون الاستقلال ؟

سعد باشا : ونحن أهل له ، وماذا ينقصنا لكى يكون لنا الاستقلال كباقى الامم المستقلة ؟

المندوب : ولكن الطفل اذا أعطى من الغذاء أزيد مما يلزم يتخم•

عبد العزيز فهمي بك : نحن نطلب الاستقلال التام ، وقد ذكرتم جنابكم ان الحزب الوطني أتى من الحركات والكتابات بما أخـــر ولم يفد فأقول لجنابكم ان الحزب الوطني كان يطالب بالاستقلال وكل البلاد تطالب بالاستقلال ، وغاية الامر ان طريقة الطلب التي سار عليها الحزب الوطني ربما كان فيها ما يؤخذ علينا ، وذلك راجع الى طبيعة الشبان في كل جهة ، فلاجـــل ازالة الاعتراض الوارد على أسلوب الحزب الوطني في تنفيذ مبدئه الاساسي الذي هو مبدأ كل الامم وهو الاستقلال التام ، قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف في الاجراءات وأسسوا حـــزب الامة وأنشأوا صحيفة الجريدة وكان قصدهم هم أيضا الاستقلال التام وطريقتهم أخف في الحدة من طريقة الحزب الوطني وذلك معروف للجميع ، ولكن الغرض هو خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض ، ونحن في طلبنا الاستقلال التام لسنا مبالغين فيه ، فان أمتنا أرقى من البلغار والصرب والجبل الاسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديما وحديثا •

المندوب : ولكن نسبة الاميين في مصر كبيرة لا كما في البلاد التي ذكرتها الا الجبل الاسود والالبان على ما أظن ••

عبد العزيز فهمي بك : ان هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الامم ، فان لمصر تاريخا قديما باهرا وسوابق في الاستقلال التام وهي قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحدة كبيرة العدد وبلادهم غنية ، وبالجملة فشروط الاستقلال التام متوافر في مصر • ومن جهة نسبة الاميين للمتعلمين فان هذه مسألة لا دخل لها في الاستقلال كما قدمت ، لان الذين يقودون الامم في كل البلاد أفراد قلائل واني لاعرف أن لانجلترا وهي بلاد العظمـــة والحرية عند اهلها ثقة كبرى بحكومتها ، ورجال الحكومة افراد قلائل وهم الذين يقودونها وهي تتبعهم بلا مناقشة في كثير من الاحوال لشدة ثقتها بهم وتسليمها لهم ولذلك فان مجلس نوابها ليس كل أفراده من العاملين وانما العامل منهم فئة قليلة ، فبلاد مصر يكفي أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بادارتها بدليل ان أولي الحل والعقد تسمع منهم في كثير من الاحيان أن التعليم قد زاد في البلد حتى صار فيها طائفة من المتعلمين العاطلين وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم اذا غذي بأزيد من اللازم ، فاسمحوا لي أن أقول أن مصر حاليا ليست مما ينطبق عليها هذا التشبيه ، في الواقع اننا

كالمريض مهما أتيت له من نطس الاطباء استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موضع دائه ، بل هو نفسه الذي يشعر بألم الداء ويرشد اليه ، فالمصرى وحده هو الذى يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف وما يفيده في الاشغال العمومية وفى القضاء ٠

فالاستقلال ضرورى لرقينا ٠

المندوب : أتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير أمورها ؟٠٠

عبد العزيز فهمى بك : ان معرفة ذلك راجعة الى المستقبل ومع ذلك اذا كانت بلاد العرب وهى دون مصر بمراحـــل قد أخـــذت استقلالها ، فمصر بلاشك اجدر بذلك ٠

المندوب : قد كانت مصر عبدا لتركيا ، أفتكون أحط منها لو كانت عبدا لانجلترا ؟

شعراوى باشا : قد أكون عبدا لرجل فى الحالين ومع ذلك لا تسرنى كلتا الحالين لان العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسى أن تبقى تحت ذلهـــا ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصـــدقاء لبريطانيا صداقة الاحرار لا صداقة العبيد ٠

المندوب : لكن مركز مصر حربيا وجغرافيا يجعلها عرضـــة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير انجلترا ٠

سعد باشا : متى ساعدتنا بريطانيا على استقلالنا التام فاننا نعطيها ضمانة معقولة مع عـــدم تمكين أية دولة من اســـتقلالنا والمساس بمصالح بريطانيا ٠ نعطيها ضمانة لتأمين طريقها الى الهند وهى قناة السويس بأن نجعل لها الاولوية دون غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من الجنود ٠

شعراوى باشا : يبقى أمر آخر وهو حقوق أرباب الديون من الاجانب ٠ يمكن ابقاء المستشار الانجليزى بحيث تكون ســلطته هى سلطة صندوق الدين العمومى ٠

سعد باشا :نحن نعرف الآن أن بريطانيا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية ، واننا نعترف لها بالاعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر ونحن نطلب باسم هذه المبادىء أن تجعلنا أصـــدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر ، اننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك

بصفتك ممثلا لهذه الدولة العظيمة ، وعند الاقتضاء نسافر للتكلم بشأنها مع ولاة الامور فيانجلترا ، ولا نلتجيء هنا الى سواك ، ولا في الخارج لغير رجال الدولة الانجليزيه ونطلب منك بصفتك عارفا لمصر مطلعا على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب •

المندوب : قد سمعت أقوالكم واني أعتبر محادثتنا غير رسمية بل بصفة ودية فاني لا اعرف شيئا عن أفكار الحكومة البريطانية في هذا الصدد ، وعلى كل حال فاني شاكر لزيارتكم وأرجو كل خير » •

وهنا شكره الثلاثة على حسن وفادته وانصرفوا حيث كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا • (أي أن المحادثة استغرقت ساعة كاملة) •

ملاحظة :

زعم بعض المصريين ، أن هؤلاء الزعماء الثلاثة لم يطالبوا بالاستقلال التام والغاء الحماية عند مقابلتهم للمندوب السامي البريطاني ، وانما اكتفوا بالمطالبة بما يشبه تنظيم الحماية ، وهذا خطأ وافتراء ظالم ، وفيما يلي الدليل القاطع :

الحديث من الوثائق البريطانية

سجل ملنر في تقريره الى الحكومة البريطانية اشارة الى هذا الحديث فقال : « •• في ١٣ نوفمبر ١٩١٨ زار زغلول باشا ومعه اثنان من زعماء الصف الاول في الحركة الوطنية المعتمد السامي البريطاني واعربوا له عن رغبتهم في السفر الى لندن لعرض قضية الاسقلال التام لمصر » •

جمع التوكيلات الشعبية للوفد

لولا رشدي باشا ما كانت قصة هذه التوكيلات وأزمة هذه التوكيلات •

أزمة اغضبت الوفد وأغضبت رشدي وأغضبت الانجليز وكشفت الانجليز ، وقد اثبت رشدي بمسلكه فيها أنه يريد أن يخدم الوفد ويتعاون -٥- •

وذلك أنه فى مساء اليوم نفسه الذى جرى فيه الحـــديث بين الزعماء الثلاثه وبين المندوب البريطانى ، اتصل رشــدى باشا تليفونيا بالزعيم سعد زغلول فى بيته وطلب مقابلته فاتفقـــا على اللقاء فى نادى محمد على بعد ساعة واحدة من الحديث التليفونى ، فلما اجتمعا : قال رشدى لسعد أنه قابل المندوب السامى البريطانى فى دار الحماية حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر وسأله عن أثر المحادثة فى نفسه فأجابه بأنها كانت ودية وغير رسمية ، ثم تساءل المندوب فى شبه استنكار :

« بأى حق وبأى صفة يتحدث ثلاثة من المصريين باسم الشعب المصرى كله ؟ قد يكونون من كبار المصريين ولكن هــذا لا يعطيهم أيه صفه للتحدث باسم الامه وطلبات الامة » •

فأجاب رشدى : **« بانهم أعضاء فى الجمعية التشريعية ، وأن سعد باشا هو الوكيل المنتخب لتلك الجمعية » •**

فأجابه سير ونجت المندوب البريطانى : **« هذه ليست صــفة تعطيهم حق التمثيل والتحدث باسم مصر •• ان الجمعيه التشريعية نفسها ليست لها هذه الصفة » •**

ولم يشأ رشدى باشا أن يجيب بعد ذلك وانتهى الحديث بين رئيس الوزراء والمندوب البريطانى ••

هذه الملاحظة العابرة من جانب المندوب الســـامى البريطانى وهذا الحرص من جانب رشدى باشا على نقلها الى الزعيم كانا السبب المباشر فى اجتماع الوفد واتخاذ قرار حاسم •

كان الوفد ما يزال فى مرحلته الثانية من التكوين ، وعــدد أعضائه سبعة فقط اجتمعوا برياسة سعد فى صبيحة اليوم التــالى أى يوم ١٤ نوفمبر وقرروا ضرورة عمل شىء يثبت لهذا الوفــد صفة التحدث عن الامة ، ورأوا أن الوســيلة العملية الوحيــدة لتحقيق ذلك هى وضع صيغة توكيل يوقعها أعضاء الهيئات النيابية كالجمعية التشريعية ومجالس المديريات والمجالس البــلدية واكبر عدد ممكن من ذوى الرأى من المتعلمين والاعيان وسائر طبقـــات الشعب ، ورأوا بحق أن هذا العمل هو بمثابة استفتاء عام للامة المصرية عن وكالة الوفد عنها ، ووضعت صيغة التوكيـل بالنص الآتى :

« نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات :

١ ـ سعد زغلول باشا ٠

٢ ـ على شعراوى باشا ٠

٣ ـ عبد العزيز فهمى باشا ٠

٤ ـ محمد على علوية بك ٠

٥ ـ عبد اللطيف المكباتى ٠

٦ ـ محمد محمود باشا ٠

٧ ـ أحمد لطفى السيد ٠

ولهم أن يضموا اليهم من يختارون فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما »٠

طبعت هذه الصيغة ليلا بكميات كبيرة جدا وسافر بها عشرات المئات من الشبان الى جميع أنحاء البلاد ، فأقبل الناس فى حماسة بالغة على التوقيع عليها ، وعاد بعضهم ومعهم مئات الالوف من الامضاءات الى منزل الزعيم سعد زغلول ٠ وأخيرا وبعد أسبوع واحد من اجراء هذه العملية التى نفذت على أوسع نطاق وبأسرع ما يمكن وبتأييد شفوى من رشــدى باشا الى المديرين ، أدرك المستشار البريطانى لوزارة الداخلية (مســتر هينز) ما تنطوى عليه هذه العملية من أخطار على السياسة الاستعمارية البريطانية المتمثلة فى الحماية ، ورآها محاولة ناجحة لتعبئة المشاعر الوطنية المصرية والهاب الوعى العام بالسخط الشديد على الحماية والعمل على ازالتها وتكتيل الشعب حول زعامة الوفد ، فأصدر الاوامـر المشددة بمنع تداول هذه التوكيلات ومصـادرة ما جمع منهـا واعتقال القائمين بها ٠

خطابات من الزعيم سعد زغلول الى رشدى باشا

الاول : بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ وقد جاء فيه :

« ألفت مع جماعة من ثقات الامة ونوابها وأصحاب الرأى فيها وفدا لينوب عنها والتعبير عن رأيها فى مستقبلها ، وشرعنا فى جمع هذا الرأى بصيغة توكيل خاص فوق ما للكثير منا من صفة النيابة العامة ، فأقبل الناس على امضاء هذا التوكيل اقبالا عظيما مع السكينة والهدوء ، وهذا أقل مظهر نعرفه من مظاهر الاغـتراب

عن رأى الامة فى مصيرها ولكن قد اتصل بنا أن وزارة الداخلية قد أمرت بالكف عن امضاء هذه التوكيلات •

الى ان قال : « والتمس من دولتكم باسم الحرية والعدل أن تأمروا بترك الناس وحريتهم يتمون عملهم المشروع •• الخ » •

والثانى : فى اليوم التالى أى يوم ٢٤ نوفمبر ، أرسله الزعيم سعد زغلول الى رشدى باشا وجاء فيه ما يلى :

« ان رجال الحكومة لم يقتصروا على منع التوقيع على التوكيلات بل تجاوزوه الى مصادرة ما تم التوقيع عليه منها ، فألفت نظر دولتكم الى هذه المعاملة التى يأباها عدلكم ومبادىء العصر الحاضر»

رد رشدى باشا

وفى يوم ٢٥ من نوفمبر رد رشدى باشا على الخطابين قائلا بكل صراحة ان الاوامر انما صدرت بهذا المنع والمصادرة من مستشار وزارة الداخلية وأن السبب يرجع الى وجود الاحكام العرفية والى عبارة التوكيلات مما قد يدعو الى الاخلال بالنظام العام •

هذا ولهجة الرد وأسلوبه يدلان على تنصل رشدى باشا من تبعة هذه الاوامر والقائها على عاتق المستشار البريطانى •

وفى هذه الازمة الطارئة عم الغضب والسخط جهات ثلاثا •

أظهر الوفد غضبه وسخطه على المنع والمصادرة ولكنه حقق بذلك كل ما أراد •

وأظهر رشدى غضبه وسخطه بالتنصل من التبعة والقائها على كاهل الانجليز •

وكتم الانجليز غضبهم وسخطهم على الوفد ورشدى وانكشفت نياتهم السيئة ولا حيلة لهم فى ذلك •

واذا كان الوفد قد فاته اتمام جميع كل ما أراد من التوكيلات فقد سجل رسميا ما هو أهم منها • سجل منعها ومصادرتها بأوامر الانجليز وحدهم ، ولا يدل هذا المنع وهذه المصادرة الا على شىء واحد لا ثانى له وهو خوف الانجليز من الضياع اذا تمتع المصريون بممارسة حق تقرير المصير وطبقوه كمبدأ أساسى أقره الانجليز ضمن مبادىء الرئيس ولسون ، تلك المبادىء التى تظاهروا بالموافقة عليها والاعجاب بها •

الفصل السادس

مشكلة سفر الوفد الى الخارج

فى هذا الوقت برزت مشكلة المشكلات وأزمة الازمات ولا يمكن أن تنتهى الا بقارعة على ما يظهر ، لقد سبق أن بينت أن السلبية ومشاعرها العميقة قد انتهت بعد أن سادت وعمت منذ نكبت مصر بالاحتلال البريطانى ثم بالحماية ، أما اليوم فقد أصبح سلوك المصريين ايجابيا قائما على تحديد الاهداف ورسم الخطط ثم العزم الصادق على العمل مهما تكن العقبات ، ومهما تتلاحق التهديدات وتتفاقم الاخطار ، وكيف يكون الامر غير ذلك وقد تجلى الامل الحافز للنجاح وظهر الزعيم القوى الصالح للجهاد وتم تكوين الوفد وكيلا عن الشعب المصرى كله ، وتحددت الاهداف فى الغاء الحماية الكريهة والاعتراف بالاستقلال وانهاء الاحتلال بتحقيق الجلاء ، ورسمت الخطط على أساس السفر الى الخارج والعمل بالعزم الصادق الاكيد بعرض قضية الوطن أمام مؤتمر السلام فى فرسايل والعقبة الوحيدة الكأداء الآن هى معارضة بريطانيا المنتصرة لكل ما استقر عليه اجماع مصر ، وهى فى مركز القوة المتحدية هذه المشكلة الكبرى ..

لقد مرت هذه المشكلة فى خمس مراحل امتازت كل مرحلة منها بمعالمها الخاصة ، ولكن كانت كل واحدة منها مقدمة ممهدة لما بعدها وهى :

أ ـ مرحلة المحاولات .

ب ـ مرحلة الاحتجاجات .

جـ ـ مرحلة التحدى •
د ـ مرحلة النفر والثورة •
هـ ـ مرحلة الافراج والسفر •

مرحلة المحاولات

المحاولة الاولى : فى ٢٠ من نوفمبر ١٩١٨ طلب الزعيم كتابة من قيادة الجيش البريطانى جوازا له ولاعضاء الوفد بالسفر الى انجلترا ، وكان منح جوازات سـفر الى الخارج من اختصاص السلطة العسكرية البريطانية فى ذلك الوقت بحجة أن البلاد تحت الاحكام العرفية البريطانية ، فالكلمة الاولى فى البلاد هى لقائد هذه القوات العسكرية •

وفى اليوم التالى ردت السلطات العسكرية أن هذا الطلب سينظر فيه فى أقرب وقت ممكن •

المحاولة الثانية : بعد انقضاء أسبوع واحـد أى فى يوم ٢٨ نوفمبر أرسل الزعيم خطابا آخر يستعجل النظر والبت فى طلبه •

وفى اليوم التالى ردت السلطة العسكرية البريطانية بأنه « قد عرضت صعوبات تمنع من اجابة الطلب فى الوقت الحاضر ، ومتى زالت تلك الصعوبات تبادر السلطات باعطائه وصحبه الجوازات التى يطلبونها » •

المحاولة الثالثة : فى ٢٩ نوفمبر أرسل الزعيم خطابا الى المندوب السامى البريطانى ذكر فيه انه كتب الى السلطة العسكرية البريطانية بطلب جوازات سفر له ولاعضاء الوفد بقصد السـفر الى لندن لمفاوضة أولى الحل والعقد البريطانيين بشأن مستقبل مصر فرفضت تلك السلطة بحجة وجود صعوبات تمنع من اجابة الطلب فى الوقت الحاضر ، ورجا المندوب أن يبذل وساطته للحصـول على هذه الجوازات سريعا حتى يكون الوفد فى لندن قبل الاسبوع الاخير من شهر ديسمبر •

ومضى يوم أو يومان فلم يرد المندوب السامى البريطانى على هذه المكاتبة ولا هو كلف أحدا من مستشاريه أو كبار موظفيه ليتولى الرد وانما كلف نائب سكرتيره الخاص أن يرد على زعيم البلاد ••

ولما كان هذا الرد بشكله وموضوعه على أعظم جانب من الاهمية فقد رأيت أن أسجله هنا كاملا (مترجما عن النص الانجليزى الذى ورد به) •

اول ديسمبر ١٩١٨

« كلفت من قبل فخامة المعتمد السامي البريطاني باحاطتكم علما بوصول خطابكم المؤرخ في ٢٩ نوفمبر الماضي واخباركم بأن فخامته قد رأى بعد استشارة حكومه جلاله الملك أنه لا يستطيع التوسط لدى السلطة العسكرية في هذا الموضوع ، وأضيف الى ذلك انكم اذا كنتم تريدون تقديم اقتراحات بخصوص كيفية الحكم في مصر بما لا يخرج عن الخطة التى رسمتها حكومة جلالة الملك وأعلنتها من قبل ، فالافضل أن مثل هذه المقترحات تقدم كتابة الى فخامته » •

« وبهذه المناسبه ألفت نظركم الى خطاب سير ملن شيتهام الذى أرسله بناء على أمر الحكومه البريطانية الى المرحـــوم السلطان حسين عند توليته عرش مصر » •

ج• س• بسيمز
(السكرتير الخاص بالنيابة)

رأى الزعيم بحق ورأى معه أعضاء الوفد أن هــذا الخطاب وضح فى أسلوبه وفى موضوعه وفى مصدره أو معنــاه أن الوفد لا يستطيع السفر الى الخارج بل يظل سجينا فى مصر ، ومعناه أيضا أن الوفد يحصر اقتراحاته فى دائرة الحماية وأن يقدمها الى ممثــل الدولة الحامية وهى أمور غير مقبولة ولا معقولة ولا محتملة ، وهى مرفوضة رفضا باتا ، بل هى أمور مثيرة الى الدرجة القصوى ••

ورأى الوفد أن يسجل اعتراضاته فى خطاب يرسله الى المنــدوب السامى نفسه مرة أخرى •

المحاولة الرابعة : فى ٣ ديسمبر أرســـــل الزعيم خطاب الوفد الى المندوب السامى البريطانى وفيما يلى أهم ما جاء فيه :

« أبادر بابلاغكم بأنه ليس فى وسعى ولا فى وسع أى عضو من أعضاء الوفد أن يعرض اقتراحات لا تكون مطابقــة لارادة الامة المصريه المعبر عنها صراحة فى التوكيلات التى أعطيت لنا • وانى ألفت نظركم الى ان هذه التوكيلات أقبل الشعب على التوقيع عليها فى شغف وحماسه ، وكان فى الطليعة كبراء الامة ومن بينهم أعضاء الجمعية التشريعية والهيئات النيابية الاخرى ، وكان من المنتظر ان يصل هذا الاقبال الى حد الاجمــاع لولا أن تدخلت الادارة فمنعت تداولها ثم عملت على مصادرتها •

ـ « وان من المستحيل علينا أن نصل الى غايتنـــا عن طريق مخابرات بسيطة تجرى بيننا وبينكم هنا فى مصر ، فان القضـية التى ندافع عنها يجب أن تعرض بادىء ذى بدء على الرأى العام البريطانى الذى لاشك فى انه فى حاجة الى الحصول على تفصيلات لا يمكن أن يبديها الا الممثلون الطبيعيون للشعب المصرى ذاته •

ـ « وان العراقيل التى وضعت فى سبيل سفرنا من شأنها أن تمنع تحقيق المهمة الملقاة على عاتقنا وهى مهمة اظهار ارادة الشعب المصرى » •

ومضت الايام ولا جواب من ممثل الدولة المحتـــلة ، ولا حتى « من نائب سكرتيره الخاص » ! •

ومع ذلك رأى الوفد أن يقوم بمحاولة محلية أخيرة فقام بها وهو شبه يائس من جدواها بل لعل قصاراها ان تبعد رشدى من حظيرة الانجليز وتقربه الى صفوف المجاهدين •

المحاولة الخامسة

فى ٤ من ديسمبر أرسل الزعيم خطابا من الوفد الى رشدى أبلغه فيه خلاصة محاولات الوفد للسفر الى الخـــارج وردود الانجليز عليها بالرفض وناشده أن يبذل مساعيه ويسـتعمل نفوذه كرئيس للحكومة المصرية لتمكين الوفد من السفر •

ولكن هل لرشدى أو لأى مصرى نفوذ أو مكانة عند الانجليز الى هذا الحد ؟ سنرى !! لقد كان من مصادفات الاقدار فى ذلك الوقت بالذات أن رشدى باشا كان من ناحيته معتزما السفر الى انجلترا ومعه زميله عدلى يكن باشا ، ومشروع سفره هذا كان قد بدا من قبل السلطان نفسه وكان يقصد بسفره هذا أن يعرض مطالب الحكومة المصرية على الحكومة البريطانية •

وماذا كانت مطالب رشدى وحكومته التى أراد أن يعرضها على الحكومة البريطانية ؟

انها لم تكن الغاء الحماية أو انهاء الاحتـــلال أو الاعـتراف بالاستقلال كما يطلب الوفد ، وانما هى شىء متواضع جـدا وهو الحصول على ما يمكن الحصول عليه من الحكومة البريطانية !!

فاذا كانت الحكومة البريطانية قد رفضت سفر الزعيم والوفد الى الخارج وهذه هى مطالبهم المحددة الجريئة الى قلبهـــا المعارضة

لاهدافها الاستعمارية فى مصر ، فهل يعقــل أن ترفض الحكومة البريطانية سفر رشــدى وعدلى الى لندن لمفاوضتها ومطالبهمــا مقصورة على مجرد الحصول : « على أكثر ما يمكن من الحــرية لمصر » كما سجل ذلك رشدى باشا على نفسه فى استقالته بتاريخ ٢ ديسمبر ؟

سنرى !!

– فى اليوم التالى أى فى ٥ ديسمبر اجتمع الوفد كالعادة فى منزل الزعيم وقد امتاز هذا الاجتماع بأمرين على أعظم جانب من الاهمية :

نبأ استقالة رشدى باشا ووزارته

ذكر الزعيم أنه تقابل مع رشدى باشا مساء أمس فى نادى محمد على وسأله عما ينوى عمله استجابة لخطاب الوفد الذى أرسله له صباح أمس ، فاجاب رشدى باشا بانه قدم استقالته الى السلطان يوم ٢ ديسمبر لان الحكومة البريطانية رفضت ســفره مع عدلى باشا الى لندن ، واخرج من جيبه صورة الاستقاله وسلمهــا الى الزعيم .

وهنا تلا الزعيم نص الاستقالة وقد جاء فيها ما نص :

« عندما اخذت على عاتقى امام ضــميرى وامام وطنى وأمام التاريخ مسئوليه منصبى فى عهد النظام الجديد : عاهدت نفسى عهدا أساسيا ان اطلب من الحكومه البريطانيه عنـد الشروع فى مفاوضات الصلح اكثر ما يمكن من الحــريه لمصر ، والان وقد اوشكت هذه المفاوضات ان تبدا طلبت من الحكومه البريطانيه بعد تصديق عظمتكم ان تسمح بسفرى فكان جوابها بمثابة التسويف الى ما بعد الصلح مع انى بالعكس ارى أن الوقت الحاضر هو الذى ينبغى فيه عرض ما لمصر من الامانى القوميــه وتاييده ، فلهـذه الاسباب أتشرف بتقديم استقالتى بين يدى عظمتكم من رياســه مجلس الوزراء ووزاره الداخليه . وان زميلى عدلى يكن باشا الذى عينتموه لمرافقتى ومهمتى يتمسك بمشاركتى فى هــذا الامر ، فهو يقدم شخصيا استعفاءه من وزارة المعارف العمومية » .

ثم قال الزعيم انه عندما اطلع على صورة هذه الاستقالة تاثر وتالم لان رشدى لم يسجل فيها مسألة منع سفر الوفد الوكيل عن

الامة المصرية ، وهى حادثة تاريخية كان يجب أن تذكر فى وثيقة رسمية ولم يسعه الا أن يقول لرشدى معاتبا :

« انك جعلت من تسويف الانجليز لسفرك سببا لاستقالتك ، أفما كان خليقا بك وأكرم لو أنك جعلت من رفضهم لسفر الوفد سببا آخر لاستقالتك وانك لتعلم أن الوفد هو الوكيل الشعبى المختار المعبر عن رغبات الامة المصرية ؟

فاعتذر رشدى ووعد بذكر ذلك فى استقالته الثانية وقال : ان السلطان دعاه صباح أمس الى مقابلته وأبلغه بأنه لايوافق على استقالته هذه ، وأن المندوب السامى نفسه غير موافق ووعد بأنه سيعيد الكرة مع الحكومة الانجليزيه عسى أن يفلح فى تلك المرة ، فاذا لم يوفق فان رشدى مصمم على تقديم استقالته من جديد •

أول قرار خطير يوافق الوفد عليه بالاجماع

بعد أن فرغ الوفد من مسألة استقالة رشدى وتعليقات الاعضاء عليها أبرز الزعيم من جيبه مشروع قرار أعده بنفسه وتلاه وطلب الموافقة عليه وهو مكون من خمس فقرات وهذا نصها :

١ ـ العدول عن فكرة السفر الى لنـــدن والتحـلل من خطة الاقتصار على مفاوضة الانجليز وحدهم •

٢ ـ نقل القضية المصرية الى الميدان الدولى والاتصال المباشر بممثلى جميع الدول الاجنبية •

٣ ـ السعى الحثيث لسفر الوفد الى باريس لحضــور مؤتمر الصلح فى فرسايل •

٤ ـ الاتصال بالرئيس ولسون ومسيو كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح بشتى الطرق ، الوقت بعد الوقت ، وفى كل مناسبة ما دام أن الوفد سيظل ممنوعا من السفر الى باريس •

٥ ـ عدم تنفيذ أى أمر يصدر الى الوفد من السلطات البريطانية عسكرية أو غير عسكرية اذا كان هذا الامر فيه أقل مساس بقضية البلاد ، الغاء الحماية وانهاء الاحتلال وتحقيق الاستقلال ، أو كان فيه أقل تعطيل لنشاط الوفد وجهاده أو المساس بكرامته وحريته •

ووسط الاعجاب الشديد وافق الوفد بالاجماع على هذا القرار الخطير ••

وهذا القرار لا يحتاج الى تعليق طويل فهو أية تدل على صدق العزيمة والوطنية وروح التحدى والشجاعة والجهاد حتى الفداء •

مرحلة الاحتجاجات والاستقالات

فتح الوفد بهذا القرار صفحة جديدة فى الجهاد وأسلوبا جديدا فى العمل ، ونقل قضية البلاد من ميدان ضيق الى ميدان رحيب ، الى مؤتمر الصلح فى باريس ، وان مؤتمر الصلح هذا سيفتح أبوابه ويبدأ أعماله يوم ١٨ يناير ١٩١٩ أى بعد شهر ونصف شهر تقريبا من هذا اليوم الذى عدل فيه الوفد عن خطته القديمة وبدأ خطة سياسية تنفيذية جديدة بفضل قراره الخطير ••

فى هذه الفترة القصيرة أرسل الوفد عددا كبيرا من البرقيات الى رؤساء الدول المدعوة الى هذا المؤتمر ، وكان عددهم ثلاثين دولة وهى التى ساهمت فى الحرب ضد المانيا والنمسا وتركيا ، أخص بالذكر من هذه البرقيات ما يأتى على سبيل المثال لا الحصر لأبين كيف كان أسلوب الوفد فى الاحتجاج والمناشدة طلبا للمساعدة :

برقية احتجاج الى رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج ، « فى ديسمبر » :

يحتج الوفد المصرى بشدة على استبداد السلطات البريطانية فى مصر ومنعهم الوفد الممثل للشعب المصرى من السفر لعرض قضية استقلال مصر على مؤتمر الصلح فى باريس كما يستنكر الوفد ما طلبه المندوب السامى البريطانى بأن يكتفى الوفد بتقديم اقتراحاته الخاصة بطريقة الحكم فى مصر الى جنابه بشرط الا تخرج عن دائرة الحماية التى أجمعت الامة المصرية على رفضها واستنكارها وضرورة الخلاص منها وانهائها • ونرجو ان تعيدوا النظر فى هذا الموقف فى ضوء مادىء الرئيس ولسون وحق تقرير المصير الذى أعلنتم على الملأ موافقتكم عليه وعليها نرجو الا يحال بيننا وبين السفر طويلا •

وصول الرئيس ولسون الى باريس يوم ١٣ ديسمبر :

لقد تسلم يوم وصوله برقية احتجاج من الوفد على منع بريطانيا لمصر من اسماع صوتها والافضاء بمطالبها فى مؤتمر الصلح وذلك بمنع الوفد ممثل الامة المصرية من السفر •

واستطرد الرئيس سعد فى برقيته هذه فقال :

« ان السلطات البريطانية فى مصر طلبت الينا ان نبدى اقتراحاتنا عن طريقه اداره مصر بشرط الا تخرج عن دائره الحمايه التى رتبتها بريطانيا وفرضتها على مصر فرضا ، انها بذلك انما تطلب المحال منا لان مصر لم تقبل ولن تقبل هذه الحمايه التى ليست الا عملاً من الاعمال الحربيه وهى مناهضة لاملنا فى الاستقلال ، بل هى مناقضه حتى للاستقلال الذى كسبناه وتمتعنا به من تركيا ، ولا يمكن ان يرضيكم ان هذه الحرب التى انتهت فى ضوء مبادئكم يترتب عليها تضييق دائره الحقوق التى سبق لنا ان كسبناها ، بل على العكس يجب ان توسع تطبيقا لمبادئكم الجديدة التى تقضى باحترام حقوق الشعوب وفى طليعتها حق تقرير المصير » .

وفى ١٥ ديسمبر ارسل الزعيم سعد احتجاج الوفد الى جميع ممثلى الدول الاجنبيه فى مصر على تعسف السلطات العسكريه فى خنقها للحريات جميعا ومنعها الوفد من السفر الى الخـــارج ، وانتهى بالجملة الاتية :

« ان كل قرار يمكن ان يتخذ بشأن مستقبل مصر وفى غيبة ممثلى مصر يعتبر عديم الجدوى ، فلا بد من سماع ممثلى الامة المصريه» .

ومع الاحتجاج بيان بتحديد مطالب الوفد الوكيل عن الشعب المصرى ، ورجاء بابلاغ هذه المطالب الى حكومات بلادهم .

بيان بمطالب الوفد

١ ـ تطلب مصر الاستقلال التام :

أ ـ لان الاستقلال حق طبيعى .

ب ـ لان مصر لم تهمل قط امر المطالبة بهذا الاستقلال بل هى قد سعدت فى سبيله ثم نالته وبعد كان ما حازته من النصر فى ميدان القتال حتى ترد السياده اليها لولا اجماع الدول العظمى فى سنة ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ واكراهها على تقليل مطامعها الى حد أدنى ممكن وجعلها تكتفى بالاستقلال الداخلى فقط وهو مع ذلك واسع النطاق يكاد يبلغ حد الاستقلال التام .

جـ ـ ان مصر تعتبر نفسها خالصة من آخر رباط كان يربطهـــا بتركيا وهو رباط السياده الاسمية ، اذ اصبحت تركيـــا بسبب نتائج الحرب لا تستطيع التمسك بتلك السيادة .

د ـ ان مصر ترى أن الوقت قد حان لان تعلن استقلالها التام الذى يؤيده مركزها الجغرافى وأحوالها الماديه والادبية ٠

٢ ـ تريد مصر أن تكون حكومتها دســـــتوريه وان تراعى فى تفاصيل النظام حالة البلاد الخاصه من جهه ما للاجانب فيها من مصالح وان تقوم بعمل اصلاحات اقتصاديه واداريه واجتماعيه تستعين على تحقيقها بذوى العلم من اهل البلاد العربيه كما كانت تلك عادتها فيما مضى ٠

٣ ـ تعلن مصر أن امتيازات الاجانب فيها ستحترم بكل دقة واذا كان العمل أظهر أن بعضها يدعو الى تحوير اليق بمقتضيات الاحوال فانها تعرض ما يعن لها من وجوه التحســينات التى من شانها المساعدة على تقديم البلاد من حيثيه المصالح المقصوره لها وتكون فيما تعرضه من ذلك واســـعه الصدر غايه فى الاخـــلاص والمجاملة ٠

٤ ـ تتعهد مصر بالبحث فى وضع طريقة للمراقبة المالية لاتقل اهميتها بالنسبة للبلاد الاجنبيه ذوات المصلحه مما كان متبعا قبل اتفاقية ١٩٠٤ ويكون أهم قائم بها هو صندوق الدين العمومى ٠

٥ ـ تكون مصر مستعدة لقبول كل ما تراه الدول من الاحتياطات مفيدا للمحافظة على قناة السويس وحيادها ٠

٦ ـ تعتبر مصر نفسها حائزة لاكبر شرف بوضـــع استقلالها تحت ضمانه عصبه الامم وأن تشترك بقدر ما لديها من الوسائل فى تحقيق مبادىء الدول والحق على النمط الحديث ٠

◎❖◎

نقف الآن عن سرد الحديث على الاحتجاجات من الوفد الى خارج البلاد وداخلها لنرى ماذا تم فى امر استقالة رشدى التى لم تقبل توطئة لاعادة الكرة والرجاء من جانب المندوب الســامى لحكومته حتى توافق على سفر الوزيرين رشدى وعدلى ولنرى كذلك ماذا عسى أن يكون سلوك رشدى ازاء الوفد فى حالة الرفض أو الموافقة ٠

ملاحظة : علم الوفد يوم ٢٠ ديسمبر أن رد الحكومة البريطانية على الاستقالة قد وصل ٠

● في ٢٣ ديسمبر ١٩١٨ قدم رشدى استقالته الثانيـة الى السلطان وقد جاء فيها ما نصه : « سبق ان رفع الرجاء الى عظمتكم ألا تقبلوا استقالتي الا بعد مراجعة لندن ، فلم يكن جوابها الجديد الا مؤيدا للجواب الاول • لهذا أصررت على الاستقالة ، ومن ذلك الحين لم نرد تبليغات رسمية ، ولكن حدثت مساع ومخابرات أخرى لم توصل الى نتيجة ما ، وفي هذه الاثناء تألف وفد من أعضاء الهيئات البرلمانية في البلاد وطلبوا أن يسمح لهم بالسفر الى لندن للدفاع عن مصالح مصر ، فنصحت أن يؤذن لهم في ذلك وأن تسمع أقوالهم ، فلم يصغ لنصحى ، ولم يكتفوا بذلك بل ابوا على أنا نفسى أن تسمع اقوالى فيما عساه أن يكون نظام الحماية ، لهذا التصرف ستحرم مصر دون غـيرها من الامم من أن يسمع صوتها في الوقت الذى يبت فيه في مصيرها •

« وبناء على هذه الاعتبارات يلزمني أن أعود فالح على عظمتكم مع الاحترام بقبول استعفائى » •

⊙❖⊙

يذكر رشدى ـ في هذه الاستقالة ـ الوفد ولا يذكر مهمة الوفد ، وكان خليقا به ان يسجلها للتاريخ وأن المرء ليعجب كيف جاز في عقل رشدى ان يتقدم في وقت واحد بمطلبين متمـاثلين لهدفين مختلفين :

انه يطلب سـفره الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية وهدفه هو تنظيم الحماية ، ويطلب سفر الوفد الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية وهدفه هو الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال •

ـ كيف جاز في عقله ذلك فيجمع بين النقيضين ولا يرى في ذلك غضاضة رغم ما فيه من عبث ظاهر وحرج أكيد ؟

لو أن رشـــدى قدم استقالته لسبب غير ذلك السبب وهدف غير ذلك الهدف وترك الميدان للوفد لكى يسافر وحده بناء على طلبه ونصحه لقدم بذلك خدمة عظيمة للوفد وخدمة أعظم لقضية البلاد ، ولقلنا انه آثر المصلحة العامة ورفعها فوق كل اعتبار ، ولكن ما فعله بهذه الاستقالة (اقل ما يقال عنه) انه ينطوى على تناقض واحراج • احراج لنفسه واحراج للوفد واحراج لقضية البلاد •

ومع أنه كان من حسن حظ البلاد في ذلك الوقت أن الاستقالة لم تنشر ولم يعرف الناس محتوياتها ، وكان هذا الجهل سببا في أن ذاع وشاع أن رشدى قدم استقالته تضامنا مع الوفد فارتفع شانه

وعلا ذكره ، واشتدت حماسة الجماهير وتزايدت موجات السخط والغضب على الانجليز •

ولم يمض أسبوع واحد ، حتى قدم رشدي استقالته الثالثة الى السلطان فى ٢٠ ديسمبر وقد جاء فيها ما نصه : « يا صاحب العظمة السلطانية : ان التأجيل فى قبول استعفائى قد يدون من عواقبه تحميل المسئولية التى أردت والتى أريد قطعيا اجتنابها وهى مسئولية قيامى بمنصب الوزير الاول لمصر وعدم اهتمامى مع ذلك بمصيرها فى الوقت الذى سيحصل فيه البت فى امرها نهائيا ، فأتوسل الى عظمتكم بقبول ذلك الاستعفاء بدون ارجاء ، وكيلا أجعل سبيلا الى تجديد التسويف أجاهر أنه قطعى لارجوع فيه فلم يعد محلا للمفاوضات فيما يتعلق به ولم يبق سوى الاشتغال بتأليف وزارة جديدة » •

هذه بلا شك استقالة حاسمة فى ظاهرها ولكنها ليست حاسمة فى طبيعتها لسببين :

الاول : لان الانجليز لم يكن فى استطاعتهم قبولها فى هذه الظروف الخطيرة التى تتحفز فيها مصر للثورة •

والثانى : لان رشدى ليس من قوة الارادة بالقدر الذى تحمله على القطع والبت الحاسم وهو مستعد دائما للتراجع وعرضة لسرعة التأثر وقبول الرجاء •

أما الانجليز فانهم يدركون تمام الادراك أن محاولتهم تأليف وزارة جديدة بعد رشدى أمر عسير غاية العسر ان لم يكن مستحيلا للاعتبارات الآتية :

١ ـ ان المصرى الذى يقبل تأليف وزارة جديدة ، يقبل فى الواقع أن يتحدى الشعور الوطنى الفوار ويعنى أنه موافق على سياسة الحكومة البريطانية وتضامنه معها فى فكرة وضع المسألة المصرية على الرف حتى تنتهى بريطانيا من مؤتمر الصلح فى فرساى وحل كل مشاكلها •

٢ ـ ويعنى أنه موافق على قرار الحكومة البريطانية فى منع الزعيم والوفد من السفر الى الخارج وحبسهما داخل حدود مصر حتى لا يتمكنوا من خدمة قضية الاستقلال •

٣ ـ ويعنى انه لا يؤمن بالاستقلال لبلاده وأنه يؤمن بالحماية البريطانية الكريهة •

٤ ـ وتؤكد البداهة أنه لا يوجد مصرى واحد يجرؤ على البروز بهذه المظاهر المخزية ويرتكب جريمة الخيانه السافرة ، وبينما وصل الشعور الوطنى الى درجة الغليان واوشك على الانفجار ٠

فماذا يعمل الانجليز ؟ لقد عادوا الى بذل المساعى مع رشدى حتى يعدل عن هذه الاستقالة أيضا ، ووعد المندوب السامى ببذل مجهود اخر مع الحكومة البريطانية وقال انه مسافر الى لندن قريبا بناء على دعوة الحكومة البريطانيه وطلب الى رشدى أن يصبر ويصبر قليلا ، فقبل رشدى أن يصبر ويصبر قليلا ووعد بسحب استقالته اذا قبلت الحكومة البريطانيه ان يسافر هو وعدلى الى لندن وأن يسافر الوفد كذلك ٠ ورجا من المندوب السامى أن يرسل اليه برقية بجواب الحكومة البريطانيه فى اقرب وقت مناسب بعد وصول المندوب السامى الى لندن ٠

فما هى تلك المناسبة لارسال تلك البرقية المنشودة ؟

مضى شهر وعشرة أيام على استقالته الاخيره ولم يرد شىء من المندوب السامى فقدم رشدى استقالته الرابعه فى ١٠ فبراير ١٩١٩ الى السلطان وجاء فيها ما نصه :

٠٠ على اثر كتابى المرفوع الى سدتكم العليه بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنه ١٩١٨ الذى التمست فيه بت ارتياح مع عظمتكم بقبول استعفائى ، قد كنت رضيت من باب التوفيق بالاتفاق الاتى بيانه : وهو ان صاحب المقام الجليل المندوب السامى ينتهز فرصة سفره الى لندن فيشرح شفهيا للحكومه البريطانيه انه بعد وصول الحاله الى الحد الذى بلغته أصبحت لا ارى بما عرض على وسيلة من سفرى أنا وزميلى عدلى باشا الى لندن فى النصف الاول من فبراير وانى اشترطت لسحب استعفائى شرطا اساسيا وهو اباحه السفر الى أوربا لمن يطلب من المصريين ٠ ومن ضمن ذلك الاتفاق ورود الجواب من الحكومه البريطانيه بالتلغراف فى بحر مده مناسبه من وصول المندوب السامى الى انجلترا وانه اذا كان هذا الجواب سلبيا فان عظمتكم تقبلون استعفائى فورا ، واننى فى أثناء هذه الفتره اباشر بصفه مؤقته محصته تسيير الامور المستعجله، الامر الذى دعانى الى التوقيع على مرسوم بتجديد المحاكم المختلطة منعا لوقف سير القضاء ٠ على أنه قد مضى عشره ايام على الاقل بعد الوقت الذى لا بد أن يكون المندوب السامى وصل فيه الى لوندره ومع ذلك فلم يصل جواب ما ٠

« يستحيل على أن اقبل اى تأخير جديد وانني أعتبر في حل من القيام ولو موقتا بأى عمل حتى ولو كان مستعجلا . فأعود الى التمسك بكتابي المشار اليه المؤرخ في ٣٠ ديسمبر ١٩١٨ والتمس من عظمتكم بدون ابطاء انهاء حالة شاذة قد زاد طول العهد عليها» .

هنا قبلت الحكومة البريطانية سفر رشدى وعدلى وارسلت اليهما الدعوة الرسمية ليحضرا الى لندن في أواسط شهر فبراير . أما سفر الوفد فقد رفضته الحكومة البريطانية مرة أخرى وقررت قرارها السابق من انه لا فائدة مطلقا من السماح لرجال الوفد بالحضور الى لندن .

وظلت استقالة الوزارة معلقة أكثر من أسبوعين ، فأصر رشدى على موقفه وطلب قبول الاستقالة .

وأخيرا في اول مارس قبلت الاستقالة ، مع رجاء السلطان في كتابه الى رشدى « الاستمرار في ادارة الاعمال الى أن يتم تأليف الوزارة الجديدة » . وهذا الرجاء المكتوب أعجوبة الاعاجيب ، وزراء سابقون يستمرون في ادارة أعمال الحكومة من منازلهم ورغم قبول استقالتهم . انه رجاء سلطاني غير قابل للتنفيذ .

وكانت النتيجة ان عكف رشدى ووزراؤه في منازلهم لايمارسون أى عمل من الاعمال و حجبت الحكومة المصرية من الوجود وأصبحت جميع الوزارات وأقسامها وفروعها والجيش والبوليس في يد الرؤساء الانجليز مباشرة ، يامرون وينهون وينفذون ما يشاءون بغير ضابط او قانون أو مراعاة لاية مصلحة سوى المصلحة البريطانية وحدها دون سواها .

فترة حاسمة

في مشكلة السفر الى الخارج

فترة لا تكاد تتجاوز ثلاثة اشهر بذلت فيها محاولات للسفر الى الخارج من جانبين : جانب الزعيم والوفد وجانب رشدى وعدلى .

انتهت هذه محاولات بالنسبة لرشدى وصاحبه في اول مارس ١٩١٩ ولم تنته بعد بالنسبه للزعيم والوفد .

والآن فلننظر كيف عولجت مشكلة السفر الى الخارج من كل من الجانبين .

انها عولجت باسلوبين مختلفين وانتهت الى نهايتين متباينتين :

١ ـ كان أسلوب رشدى أسلوبا سلبيا • رجـــاء ثم خيبة أمل وتألم ومسالمة وتسليم ثم تقديم الاستقالات على فترات متقاربة أو متباعدة ، ولما قبلت استقالته النهائية فى أول مارس خـــرج من الوزارة ومن الحياة العامة معززا مكرما من السلطان والانجليز كما ظل طوال مدة الحرب معززا مكرما من السلطان والانجلـــيز ، ثم انزوى واعتكف عن كل نشـــاط ، وعاش فى داره آمنا على سربه مطمئنا هانئا ناعما بالحياة ، مدخرا نفسه للعودة الى الوزارة مرة أخرى عندما يحين الاوان •

فمسلكه فى الواقع قائم على الهروب من المسئولية وقبول الهزيمة والاعتزال •

٢ ـ أما مســلك الزعيم والوفد فقد قام على التمســك بالواجب والاضطلاع بالمسئوليــة ورفض الهزيمة واستمرار النشـــاط حتى النصر ، أو بعبارة أخرى كان أسلوب الزعيم أسلوبا ايجابيا • طلب ثم مغاضبة ومقاومة واحتجاج ثم عمل وكفاح وتحـد وصدام ثم اعتقال ونفى وابعاد ثم ثورة وافراج وانتصار ثم سفر •

بهذا تتجلى طبيعة الرجلين ، وتبرز قيمة الاسلوبين • ولهذا كتب التوفيق والنجاح للزعيم والوفد فى حل مشكلة السفر الى الخارج •

بينما كتب العجز والفشل لرشدى وعدلى •

ولهذا نترك رشدى الان حيث انتهى ••

ولنتحدث عن الزعيم والوفد الذين ظلوا وقوفا عاملين فى ميدان الجهاد ، معرضين لاشد الاخطار ، مستعدين لاقصى الفداء ••

لقد ظل الزعيم والوفد فى اجتماعات متصلة الحلقات يوميا ، وظهر الزعيم فى حركة دائبــة ونشـــاط متزايد • وتجلى ذلك النشاط الفريد فى برقيات الاحتجاج على نظام الانجليز يرسلهـا تباعا الى رؤساء الوفود المجتمعين فى مؤتمر الصلح فى فرساي، وفى الاجتماعات يعقدها فى داره أو يحضرها خارج داره ، وفى الخطب المثيرة يلقيها وفى البيانات يصدرها الى ممثلى الـــدول الاجنبية فى مصر : حتى ضاق الانجليز ذرعا بأمره واشـــتدت نقمتهم عـيه • فماذا يفعلون مع هذا الزعيم الجـــرىء المستميت الذى لا يهاب ولا يهمد ؟ ، لقد أكثروا من اجتماعاتهم العسكرية والمدنية وتساءلوا فيما بينهم وهم محنقـــون : ما فائدة الاحكام العرفيـــة البريطانية ؟ وما فائدة كل ما فى أيديهم من وسائل الردع والعقاب

والتشريد والتعذيب اذا كان هذا الزعيم المصرى يتكلم ويفعل مايشاء وينتقد الحماية ويحتج ويفضح الانجليز ويلعنهم كما يريد ، مستخفا بهم ولا يقيم وزنا لجبروتهم ، ويعلن الاستقلال جهارا نهارا وأنوف الانجليز فى الرغام !! هل يعتقلونه ؟ هل يحاكمونه ؟ هل يحاصرونه فى بيته ؟ هل يعزلونه عن النـــاس بنقله الى الريف بعيـدا عن العاصمة؟ وهل ينفونه خارج البلاد ، وأصحابه البارزون ماذا يفعلون بهم وكيف يشردونهم ، ثم أنصارهم وهم أفراد الشـعب المصرى كله ماذا يكون أمرهم ؟

أسئلة خطيرة والاجابة عنها أشد خطورة ، فلنتركها اذن مؤقتا الى الايام القليلة المقبلة ، فليس بين انتهاء هذه الفترة الحاسمة وبدء الثورة العارمة الا أسبوع واحد .

وما الاسبوع الواحد ببعيد ، ثم ما لنا نتعجل الاحداث الجسام ؟

علينا أن نذكر ونسجل هنا بعض ما صدر عن هذا الزعيم فى تلك الفترة الحاسمة من برقيات وخطب وأعمـــال وتحديات حتى لا يكون الكلام جزافا فى وصف الحال ومن غير دليل .

الاستمرار فى مرحلة الاحتجاجات

● فى ١٠ يناير : أرسل الزعيم برقية الى مسيو كلمنصـــو رئيس مؤتمر السلام جاء فيها :

« باسم الانسانية التى تأبى أن تكره الامن على أن تنقل من يد الى يد أخرى كما تنقل منحية السبع ، نناديك من وراء البحار ألا تحد سكوتنا الاكراهى الذى هو نتيجة الطبيعية لحبســنا داخل حدود بلادنا ، دليلا على رضانا بسيادة الغير علينا وألا تسمح بالحكم فى مصيرنا من غير أن تسمع أقوالنا .

● فى ١٢ يناير : وصل الوفد السورى الى مصر فى طريقه الى فرنسا لتمثيل بلاده فى مؤتمر الصلح فى باريس « فرسايل » كما وصلت الانباء وذاعت عن الترخيص لوفود من الهند والحجاز وارمينيا والعراق بالسفر الى مؤتمر الصلح والاعلان عن مطالبها أمامه . فانتشرت فى مصر موجات من السخط والحقد على الحلفاء عامة وعلى انجلترا خاصة ، وانى لاميل الى الاعتقاد بأن فى هذه اللحظة السريعة من يوم ١٢ يناير ١٩١٩ بدأ الشعب وزعماؤه ييأسون من الطرق السلمية التى يتبعونها للوصول الى الاهـــداف القومية وفى طليعتها الآن مسألة السفر الى الخارج .

وبدأ الشباب المصرى فى التفكير الجدى فى الثورة •

● وفى ١٢ يناير ارسل الزعيم برقيتين أخريين :
برقية أولى الى المسيو كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح ، وبرقية ثانية الى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ، وهذا نصهما :

« ان الحالة فى مصر لا تطاق ، ان الشعب المصرى بأسره من أكبر وزير الى أصغر فرد محبوسون داخل بلادهم لا يسمح لأحد بالخروج من هذا الحصار الشديد •

ثم استطرد قال : « انكم استعنتم فى هذه الحرب برجال مصر وأموال مصر ، وصرحتم فى مواطن شتى بان ذلك كان من أكبر العوامل التى ساعدت على احراز النصر فى الشرق • والان بينما مصر المسالمة تحتم بمصر ان تعامل المعاملة اللائقة بها وينسى خدماتها لكم ، اذ فى ترحم غداة الهدنة تنكرون لها وتعتبرون لها ظهر المجن ، وتحبسون أبناءها داخل حدودها على الذل والهوان ••
قد يكون مسموحا « على المبادىء القديمة » أن يكون رجل سياسة استعماريا ، ولكن كيف يسمح اليوم لاحدى الدول ان تعميها حب الاستعمار وتجبر به مصر امة عزلاء ليس بينهما حرب ، انتم الذين تتبعون مبادىء الرئيس ولسون ؟

مرحلة التحدى

لم يبق الا خمسة ايام على افتتاح مؤتمر الصلح فى فرساي « باريس » وما زال الوفد عاجزا عن مبارحة مصر لحضور هذا المؤتمر وثورة الغضب ومرارة الكمد تملأن كل الصدور والسخط على الانجليز فاق كل الحدود ، ومن اليسير جدا تصوره ، ولكن من العسير جدا وصفه وصفا دقيقا •

فاتفق الزعماء على ان يقيم حمد الباسل باشا فى داره الرحبة حفلة شاى يدعو اليها جماعة من ذوى الراى فى مختلف الطبقات ويلقى الزعيم فى الجمع الحاشد خطبة سياسية فيها من التحدى بقدر ما فيها من الاستفزاز ، وفيها من الحقائق التى يجب ان تسجل وتعلن وتنعش المصريين بقدر ما فيها من السخط ضد المحتلين ••

وهذه هى أول خطبة سياسية يلقيها الزعيم بعد الهدنة ، قال :

« أيها السادة ، انى اشكر زميلى حمد الباسل باشا على ان هيأ هذه الفرصة التى انتهزها لاحدثكم عن تفاصيل هذه الازمة

التى تجتازها مصر فى الوقت الحاضر حتى لا يفوت بعض أولى الرأى عندنا شىء من أعمال الوفد الذى شرفته البلاد بتوكيلها للسعى فى قضيتها الكبرى ، قضيه الاستقلال .

« ليست فكره الاستقلال جديده فى مصر ، بل هى قديمه يتأجج فى قلوب المصريين الشوق الى تحقيقها كلما لاحت بارقة امل فيه ، وخبو تاره كلما استطاعت القوه ان تحمد اقدس حق ، ولقد كان الوقت الحاضر انسب فرصه لتحقيق هذه القدره لان رابطة السياده التركيه احدثت تتضاءل حتى لم يبق شىء فى استطاعتها ، وان الاحتلال الفعلى لا يجد فرصه انسب من هذه الفرصه لتحقيق رجاء لورد سالسبرى الذى قاله فى ١ نوفمبر ١٨٨٦ ، « نحن لا نبحث الا عن الخروج من مصر بشرف » .

« قلب هذا الاحتلال الذى لم يكن له حق فى البقاء ، الى حماية فى بادى رأى الانجليز ومن غير اتفاق مع مصر ، ولكنها هى أيضا باطله بطلانا اصليا امام القانون الدولى ، ومخالفه مخالفه صريحه للمبادىء الجديدة التى خرجت بها الانسانيه من هذه الحرب الهائله ، فنحن امام القانون الانسانى اصبحنا احرارا من كل حكم اجنبى فلا ينقصنا الا ان يعترف مؤتمر السلام بهذا الاستقلال فتزول العوائق التى تقف بيننا وبين التمتع به بالفعل .

« بهذا الغرض السامى المطلق لما فى نفوس المصريين جميعا الفت انا واصحابى الوفد المصرى للسعى فى الوصول الى الاعتراف بهذا الاستقلال ، وسرنا بتوكيل الامه ايمانا ، وما صرنا ان امرت الحكومه الناس بالكف عن تلك التوكيلات وبمصادرتها ، لان ما لدينا منها ومن خطاب الوزير الاول الذى تعترف فيه الحكومه بعملها ما يكفى فى الافاده بان الامه مجمعه على طلب الاستقلال والغاء الحمايه . هنا يرد على خاطرى ان اتساءل ، هل بأمه حاجه الى ان يطلب رأيها فى الاستقلال ؟ هل امه كمصر مدنيتها اقدم المدنيات وصلاتها الاجتماعية التى تنتقل بالوراثة من جيل الى جيل ظاهرة الاثر من حيث وداعة الاخلاق وحب احترام القوانين والتماثل التام فى الميول ، يمكن ان تسأل فى أمر استقلالها من غير أن تجرح مشاعرها المدنية بهذا السؤال ؟ وهل أبناء المدنيه الفرعونية والمدنية العربيه غريب عليهم أن يستقلوا فيساهموا فى تقدم المدنيه فى خطواتها الى الامام .

« غير اننا كنا مضطرين الى هذا التوكيل لانه قد عزى الينا اننا لا نطلب من الحياة الا الدرك الاسفل ، أن نعيش آمنين طاعمين كاسين ، فكان توكيل الامة الجواب القاطع على هذا الاتهام .

« منعنا من السفر وصودرت الحرية في اشخاصنا وفي المصريين جميعا فلم نغادر مرجعا من المراجع الا احتججنا لديه على هـــذا التصرف الجائر ، وها نحن أولاء لا نزال نطمع في أن يخلى بيننا وبين القيام بمهمتنا بانفسنا .

« وان ما اوجده نحم هو ان هذا المنع لم يزد زملائي الا حبـــا في التقدم الى المعرض العام ، وحدة في تضحيه ، كل ما تستدعيه من الضحايا ، سائرين سبل الحق والعدل وما لنا غيره من سبيل».

واستطرد بعد ذلك الى التحدث عن مبادىء الرئيس ولســـون وكيف انها يجب ان تسود العالم ، ولبيان مطالب الوفد التى يدعـــو الى تحقيقها فقال :

« ان ايماننا بقواعد الحق والعدل هو عدتنا وكفى به عدة ، وان اجماع أمتنا على الاستقلال حجة قائمة ، وما ينقصنا الا أن يسمع مؤتمر السلام صوت الامه ، ولكن هذا الصوت سيصله حتما ولو من بعيد ، سيصله فينصت اليه على رغم ما يقال من أن مؤتمر السلام الذى يعقد بعد ايام قلائل أشبه ما يكون بما ســـبقه من المؤتمرات ، هذا هو النحو الذى ننحوه فى قضيتنا » .

وهنا شرح الزعيم مطالب الوفد كما حددها فى بيانه الى معتمدى الدول الاجنبيه فى مصر حوالى منتصف شهر ديسمبر الماضى ، ثم شرح رأيه ورأى الوفد فى مسألة السودان والعـــلاقه الازليه بين السودان ومصر فوجزها فى جملة صغيرة تغنى عن أطول مقال اذ قال : « ان من المصلحه ان نقرر بأن كل ما نقـــوله عن مصر ونطلبه لمصر ينسحب على السودان ، لان السودان ومصر كل لا يقبل التجزئة ، بل ان السودان كما قال المستشار المالى الانجليزى نفسه فى تقريره ١٩١٤ : « ان السودان ألزم لمصر من الاسكندريه »

ثم انتقل الزعيم الى شرح رأيه فى « مسألة الامتيازات الاجنبيه » فقال : « قد يطيش اسهم فيظن أن هناك منافاة بين طلب الاستقلال والرضا بالامتيازات الاجنبيه . كلا لا منافاة بين الاثنين فى الوجود وان كان فيه تضييق لدائرة الســـيادة التامة التى يقتضـــيها الاستقلال .. » الى ان قال : « ان تجيب الاجانب فى الآفاق فى

مصر وتسهيل سبل العمل لهم مفيد للبلاد أكبر فائدة ، فلنقدم عن طيب خاطر مرغبات هذه الاقلية ، ولنسهل بما هى طاقتنا سبيل المزاحمه التعليمية والتجارية والصناعيه ، فانكم لا تنكــرون أن هذه القرون الاخيرة قد عزلتنا عن الحركة العالميه بعض الشيء ، وأن الاجانب فى مصر صلة أنعم بها من صلة بيننا وبين ينابيع العلم ومواطن الاختراع والاكتشاف ، وأن مصر المستقله لا بد لها من الدخول فى المسابقة العالمية ، ولا شك فى أنه يهمها جداً أن تكون باكورات هذه المسابقة فى بلادها •• » •

وختم الزعيم هذه الخطبة باقتراح ارسال برقيــة الى الرئيس ولسون بتحيته والاعجاب بمبادئه وبأن المجتمعين « يعرضون عليه قضية مصر التى يتسلط عليها الانجليز تسلطا يأباه أهلها أجمعون »

فوافق الحاضرون على البرقية بالاجماع •

ملاحظة : هذه الخطبة لم تنشرها ولم تشر اليها أية جريدة فى مصر بأمر الرقيب ، بل لم تشر اليها أية جريدة أجنبية ، ولكن الوفد طبع منها بضعة آلاف نسخة وزعها على الناس فى العاصمة وفى الاقاليم •

ثم لابد هنا من كلمة أخرى يجب أن تقال فى هذه الخطبة بالنسبة للمقاييس الحالية • قد يراها بعض أبناء هذا الجيل أنها خطبة بسيطة أو معتدلة أو لا تدل على الجرأة والاقــدام ، وقد يراها البعض الآخر أنها خطبة مسالمة غير جديرة بزعيم يقال عنــه انه جرىء مقدام ، ولكن هذا الرأى خطأ وظالم معا فى وقت واحد ، لانها بمقاييس الجيل السابق وفى الظروف التى ألقيت فيهـــا من طغيان الانجليز وسيطرتهم على البلاد سيطرة تامة اداريا وعسكريا وعرفيا ومن فتكهم بالمصريين أفرادا وجمــاعات بسبب أو بغير سبب حتى بالشبهات ، ومن عجز المصريين العجز المطلق عن الدفاع عن أنفسهم ، فى هذه الظروف اعتبرت تلك الخطبة مثلاً رائعــا للشجاعة واثارة الجماهير •

حسبها أنها تناولت الحماية البريطانية بالاستنكار والحكم عليها بالبطلان بطلانا أصليا وتناولت الاحتلال بالسخط عليــه والحكم عليه بالبطلان كذلك ، وضرورة انهائه فوراً ، وتناولت الاســتقلال ومبادىء ولسون والحريات ومسألة الســودان ومصر وقضيتهما المشتركه وعلاقاتهما الخالدة وما الى ذلك •

أثارت هذه الخطبة المصريين ، ونفخت فيهم روحا جديدة زادت وطنيتهم اشتعالا ونزلت على الانجليز كالصواعق اسحقتهم وأذهلتهم ، اذ ما كانوا يظنون مصريا كائنا من كان يجرؤ على السخط علنا على الحماية التي وضعوها فوق متناول المناقشات بل فوق كل بحث أو تفكير ..

والآن فلننظر كيف تطورت الأمور .

الحكومة البريطانية تسحب مندوبها السامي من مصر

سافر من مصر في ٢١ يناير ، سير ريجنالد ونجت المندوب السامي البريطاني عائدا الى بلاده بناء على دعوة من حكومته لاستطلاع رأيه واستشارته .

هذا ما أذيع لتبرير دعوة لم تعقبها عودة ..

الحالة العامة قبيل سفره وبعدها

كان سفر المندوب السامي من مصر فاتحة لاستئناف عهد الارهاب البريطاني في حكم البلاد وعودة العسكريين الانجليز الى الظهور بالشدة والقسوة والطغيان .. كانت قبضتهم على مصر في الشهرين الاخيرين خفيفة : خفة ملحوظة لا سيما بعد صدور التصريح البريطاني الفرنسي للعرب في شهر نوفمبر الماضي وبعد عقد الهدنة وفي أثناء الاستعدادات والتمهيدات لعقد مؤتمر الصلح في باريس وفي أثناء سفر الوفود لممثلي الدول لحضور ذلك المؤتمر .

خفت قبضتهم حتى تغافلوا وتغاضوا عن أمر التجمهر الذي يحرم اجتماع أكثر من خمسة مصريين في أي مكان ، فأخذ المصريون يجتمعون بالمئات والالوف وبدأت المشاعر الوطنية تلتهب علنا والسخط يظهر جهارا الى آخر ما رأينا من نشاط الزعيم والوفد .

والآن تغير الحال : امتلأت الشوارع بالجنود البريطانيين المدججين بالسلاح وتجولت السيارات واللوريات الحربية البريطانية في الشوارع والميادين لمنع المظاهرات ومنع الاجتماعات وكثرت الاعتقالات ، فأصابت كل من يهمس بالسخط على الحماية أو التحدث عن الاستقلال .

الاجتماع المحرم

دعا الزعيم في ٣١ يناير ١٩١٩ ، بعض ذوي الرأي والمكانة من المصريين الى اجتماع خاص يعقد في بيته ، وما كانت الدعوة

توجه قبل الاجتماع بيومين اثنين حتى سارع قائد القوات العسكرية البريطانية فى مصر فأصدر أمرا عسكريا بالمنع فلم يتم عقد هـذا الاجتماع بالقوة القاهرة .. فهل سكت الزعيم ؟ هل لان واستكان ازاء هذا المنع بالقوة القاهرة ؟

كلا .. انه أرسل فى الحال ثلاث برقيات الى الخارج ، الاولى الى رئيس الوزارة البريطانية والثانية الى الرئيس ولسون صاحب المبادىء المشهورة والثالثة الى مسيو كلمنصو رئيس مؤتمر الصلح فى باريس . وكلها برقيات احتجاج وسخط ، ذكر فيهـا الزعيم عسف الانجليز ومنعهم حتى الاجتماعات الخاصة التى تعقد داخل المنازل وأن السلطات العسكرية البريطانية لا تقيم وزنا لابسط أنواع الحريه الشخصية ، مع الرجاء بعرض قضـيـة مصر على مؤتمر الصلح بعد دعوة ممثلى مصر لسماع رأيهم أسوة بشعوب هى دون شعب مصر ، مدنية وثقافة وتاريخا ومكانة وعراقة .

ان الزعيم وأعوانه لا يعرفون اليأس ولا يفكـرون فى الاعتزال والانزواء ، وما أكثر الفرص لمن يريد أن يعمل ويجاهد فى خدمة بلاده .

الاجتماع المباح

ومن عجب أن السلطات العسكرية البريطانية التى منعت عقـد اجتماع خاص فى منزل الزعيم ، أباحت بعد أيام عقد اجتماع عام فى مكان عام هو دار جمعية الاقتصاد والاحصاء والتشريع لكى يلقى أحد المستشارين الانجليز محاضرة نصفهـا قانونى ونصفها الاخر سياسى خاص بالحماية .

هذه هى فرصة الزعيم ليظهر ويعمل مرة أخـــرى ، وقد ظهر واستغلها الى أقصى حد يخطر بالبال ..

خطبة الزعيم سعد زغلول
فى دار جمعية الاقتصاد والاحصاء والتشريع

فى ٧ فبراير ١٩١٩ ، أعدت جمعية الاقتصاد والتشريع اجتماعا فى دارها لسماع المحاضرة الثانية للمســتر برسيفال المستشار بمحكمة الاستئناف الاهلية ، وكان معروفا أن المحـاضرة ستتناول التشريع الجديد المنسجم مع الحماية البريطانية ، فصـمم الزعيم على حضور هذا الاجتماع وعلى الخطابة فيه عقب انتهاء المحاضرة تعليقا وتعقيبا على ما يســمعه وبهذا يرفع صوت مصر ببطلان الحماية .

وحضر مع الزعيم جميع أعضاء الوفد وعدد كبير جـــدا من الوطنيين وغصت القاعة بجمع حاشد من المستمعين ورجال القانون والمحاماة ، وكان بين الحاضرين وزير الحقانية ووكيلها والمستشار البريطانى لوزارة الحقانية مستر ايموس ·

وما كاد مستر برسينال ينتهى من القائه محاضرته ، وكان يلقيها بالفرنسية ، حتى وقف الزعيم واعتلى منبر الخطـــابة ، وقال ان لديه ملاحظات يريد ابداءها ، وبما أن المحاضر يفهم العربية فانه سيلقى ملاحظته باللغة العربية · واذا بهذه الملاحظات تنقلب الى خطة وطنية رائعة واذا بالزعيم يقلب الدعاية للحماية الى الدعاية للاستقلال ··· قال :

« ايها السادة ، انى أشكر حضرة المحاضر على ما قاله من أنه يريد أن يكون لمصر فى المستقبل شرع خاص ، ولكننى أقول لحضرته أن هذا الشرع موجود فعلا منذ أمد بعيد ·· ان أمتنا المصرية ليست من قبيل الاقوام الهمج الذين ليست لهم شرائع مقررة وانما بلدنا بلد له حياة عريقة فى القـــوانين والشرائع ، وأرى أن من حسن الحظ أن يعهد الى تغيير كلى فى شرعه بدون أن تدعو الضرورة لذلك أو تهدى اليه التجربه والاختيار ·

« ان قانون العقوبات المصرى المأخوذ عن القانون الفرنسى جرى عليه العمل منذ زمن طويل ، فهو جزء من محصولنا القانونى تشربته أفئدة قضاتنا ومحامينا · وسرى فى أخـــلاق الامة سير الـــدم فى الجسد · قد يكون فى المشروع الذى تكلم عنه حضرة المحاضر بعض نصوص صالحة فى ذاتها ، ولكننى لا أرى محـــلا لقلب التشريع الموجود الآن رأسا على عقب ، من الارض الى السماء ومن السماء الى الارض ، ان فى ذلك ضررا عظيما بما ألفـــه الناس فى هذه البلاد من المصطلحات القانونية ، ولكن يظهر أن المراد هو التخلص من النظريات والتقاليد المؤسسه عليها هذه المصطلحات لاجل وضع نصوص قانونية مكان أخرى موجودة من قبل ، ينبغى أولا أن تكون هذه النصوص الجديدة متفقة مع أخلاق البلاد وعاداتها ومألوفاتها العلمية · وثانيا أن تقوم الادلة على ضرورة وضعها بالاحصائيات وقضاء المحاكم وآراء أهل الفن ··

« لست أنكر الفائدة من مناقشة مشروع جديد بهذه الجمعية ، ولكن الاحظ أن موضوع المناقشة الآن ليس مجرد مذهب علمى فى مسألة بعينها ، وانما هو أعظم من ذلك كثيرا ، هو أمر يمس حالتنا

السياسيه والاجتماعية مما لا يصح أن يتخذ هذا المبدأ أداة له ..»
ونستميحكم القول بأنى أخشى كثيرا أن يكون في بحث هذا الموضوع في هذه الجمعيه العامه خروج بها عما وضعته له ، وأن يتخذ سبيلا وسيلة للقول برضاء الامه بهـذا التقنين ، وانه يستغنى به عن مناقشات الجمعيه التشريعيه التى هى الاداة التشريعية النظاميه فى البلاد .

« ان حضرة المحاضر قد أشار الى أنه تحول على الجمعيـة التشريعية مشروع يتضمن تعديلا في نصوص القـانون الخاصة بالضربات والجروح ولم تفعل فيـه شيئا . نعم ان هـذا المشروع تحول على لجنه الحقانيه التى أنا رئيسـها ، فرأت اللجنـه أنه يلزمها للاقتنـاع بضرورة التعديلات المعروضة بيانات واحصاءات طلبت من وزارة الحقانيه تقديمها اليها ، وكررت هذا الطلب عدة مرات حتى انتهى دور الجمعيه ولم ترد هذه البيانات ..

« رأيت من واجبى أن ابدى لحضراتكم ما قدمت من الملاحظات ولكن هناك أمر آخر هو أهم ما يجب التنبيه اليه ، قد تكلم حضرة المحاضر عن الباب الثانى من الكتاب الثانى من المشروع ، وفى هذا الباب ما يتعلق مجاله بسياسة لا وجود لها الآن بمصر.. ان بلادنا لها استقلال ذاتى ضمنته معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ واعترفت به جميع المعاهدات الدوليه الاخرى ، وعبثا يحاولون الاعتماد على ماحصل من تغيير هذا النظام السياسى أثناء الحرب .

« انكم أيها السادة تعلمون وكل علماء القانون الدولى يقررون أن الحماية لا تنتج الا من عقد بين أمتين ، تطلب احـداهما أن تكون تحت رعايه الاخرى وتقبل الاخرى تحمل أعباء هذه الحماية، فهى نتيجة عقد ذى طرفين موجب وقابل ، ولم يحصـل فى مصر ولن يحصل منها مطلقا شيء من ذلك .

« فى سنه ١٩١٤ ، أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها بدون أن تطلبها أو تقبلهـا الامة المصرية ، فهى حمـاية باطلة لا وجود لها قانونا ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتهـا ، ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » .

وما كاد الزعيم ينتهى من خطبته ويختمها ببطلان الحماية حتى دوى المكان بالتصفيق الحاد المتواصـل من جانب المصريين وهم الكثرة من قضاة ومحامين وموظفين وسـامعين . أما الموظفون الانجليز وعلى رأسـهم المستشار الانجليزى لوزارة الحقـانية

والحاضر نفسه مستر برسينال فقد فوجئوا مفاجأة قوية ، وظهر عليه الغضب والانفعال والارتباك والحيرة والاضطراب ، ولكن ماذا يفعلون ازاء هذا الزعيم المصرى الجرىء الذى صفعهم ورمى بالحماية في وجوههم وسفه مزاعمهم فى الوقت الذى يتيهون فيه بالنصر وبالثقة العمياء بأنفسهم وبجبروتهم فى مصر ..

انصرف الحاضرون وكانوا فريقين ، وخرجوا بحالين .. أما المصريون فقد خرجوا منتعشين مبتهجين باسمين متهللين . وأما الانجليز فقد خرجوا منقبضين مغتاظين عابسين راغبين فى الانتقام.

الشهر السابق للثورة

لقد ثبت للانجليز الان أن الحالة بينهم من جهة وبين الزعيم والوفد من جهة أخرى ، قد بلغت غاية الحرج وأصبحت تنذر بالمتاعب التى لا نهاية لها وأصبح الناس جميعا من مصريين وأجانب يدركون أن الكفاح قد بلغ أقصاه ولابد من عمل حاسم ..

ان المصريين شعبا ووفدا وزعيما ، قد أبرموا حبال العزيمة على الاستمرار فى الجهاد مهما بلغت تكاليفه وأخطاره ، وأن الوفد لابد أن يسافر الى الخارج ويتصل بمؤتمر الصلح لالغاء الحماية وانهاء الاحتلال ونيل الاعتراف بالاستقلال . وأما الانجليز فقد علموا الان علم اليقين أن هذا الزعيم المصرى الجرىء لا ينوى أن يقصر جهوده على البرقيات والرسائل التى ينشرها فى الداخل أو يرسلها الى الخارج وانما هو رجل مستميت وعنيد ينوى أن يقتحم كل باب ويخطب فى كل اجتماع ويثير الناس باستمرار ولا يبالى بالنتائج .. ان ساعة الصدام قد قربت وهى آتية لاريب فيها ..

انقضى شهر فبراير كله فى استعدادات على أوسع نطاق من الجانبين ، الانجليز والمصريين . كان الانجليز يستعدون للقارعة ويستعدون لعمليات الفتك الشامل بالمصريين وزعمائهم ، وكانوا يعالجون مسألة استقالة وزارة رشدى فى مرحلتها النهائية .. وكانوا يحتلون بجنودهم مواقع أخرى فى المدن والريف غير مافى أيديهم وهو كثير وفى كل مكان ، وكانوا يبثون العيون ويزيدون فى نشر الجواسيس بواسطة بعض الاجانب المستوطنين فى مصر من زمان طويل ،يغشون الاندية والمقاهى والحوانيت وكل اجتماع كبير أو صغير فى أى مكان . وبدأوا فى مراقبة منازل أعضاء الوفد عامة ومنزل الزعيم خاصة وأحاطوها بما يشبه الحصار نشرا للارهاب ومنعا من الزائرين بقدر الامكان ..

ثم كانت أمامهم كبرى المشاكل ، وهى مشكلة الزعيم والوفد : كيف يحلونها ؟ بالاعتقال ، بالحبس ، بالمحاكمة ، بالغرامات ، بالنفى ، بالمصادرة ، بالاعدام ، بالتعذيب ؟ كل شيء جائز والاستشارات مستمرة بين العسكريين منهم فى مصر وبين الحكومة البريطانية للاهتداء الى الحل الصحيح .

وكان الزعيم والوفد من جهة أخرى يستعدون لساعة الفداء عن طيب خاطر ، واستمروا ينظمون اللجان فى العواصم والريف ، ويعملون على تكتيل الشباب بوسائل غير مباشرة ، ووقع الاختيار على عدد غير قليل من المطابع لطبع المنشورات الوفدية وتوزيعها فى الخفاء . فكانت أشبه بخطب جديدة يلقيها الزعيم على الشعب المتعطش لكلماته .

وانضم عدد كبير من الموظفين المصريين ورؤسائهم الى الحركة الوطنية فى شكل حماسى رائع حتى اذا وقعت الواقعة كان الشعب كله والموظفون المصريون جميعا على أهبة الاستعداد للعمل والثورة ، وكان لهؤلاء الكبار من الموظفين المصريين اجتماعات خاصة بهم ، واتصالات بالوفد وبالزعيم بواسطة بعض أفرادهم وبطرق غير مباشرة ..

وهكذا كانت روح المجازفة والشجاعة والتحدى تنعش نفوس المصريين جميعا وتصهرهم وتزيد استعدادهم لملاقاة الساعة الحاسمة فى اقبال تغلب عليه الحماسة الفياضة .

كان الاجماع فريدا ورائعا حقا اذ كانوا جميعا شيوخا وشبانا رجالا ونساء يتحدثون عن السجن والاعتقال والموقف فى استهانة واستخفاف كأنها مسائل عاديه ومنتظرة . وكل شيء وكل عذاب يهون فى سبيل الوطن ، هكذا فكروا وهكذا شعروا وتحدثوا ، روح فدائية سيطرت على أفراد الشعب جميعا .

وأخيرا وليس هذا بأقل أهمية من كل ما سبق ، اقام الوفد من بين أعضائه لجنتين لاعداد الوثائق والمستندات والمذكرات الضافية المستفيضة عن القضية المصرية قديمها وحديثها لتقديمها الى مؤتمر الصلح فى باريس عندما يسافر الوفد الى باريس ..

وبهذا أثبت الوفد أن روح التفاؤل وروح الفداء يمكن أن يكونا معا متجاورين ومتعاونين فى كيانه وأنهما لعاملان من أقوى وأنشط عوامل الحياة ..

ولعل هذا هو السر فى قوة الوفد وصموده فى وجه بريطانيا وهى فى نشوة انتصارها فى أكبر حرب خاضتها فى حياتها وفى ذروة قوتها وجبروتها واتساع سلطانها وعظم نفوذها بين الدول جميعا .

الفترة القاصمة الحاسمة

نحن الآن فى أول مارس سنة ١٩١٩ ، وليس بيننا وبين الثورة الا أسبوع واحد، كيف انقضى هذا الاسبوع بأحداثه الجسام ؟ فلأذكر أهم الاحداث يوما بيوم .

اليوم الاول فى أول مارس : قبلت استقالة رشدى ووزرائه كما سبق أن بينا ، وبدأ السلطان والانجليز يفكرون ويعملون لاختيار خلف له يؤلف الوزارة الجديدة .

قنبلة الوفد الاولى
كتاب الوفد الى السلطان

فى اليوم الثانى فى ٢ مارس :

أرسل الوفد كتابا الى السلطان هذا نصه :

يا صاحب العظمة

« يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى أن يرفعوا الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الامه ما يلى :

« لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادىء الحق والعدل أساسا للصلح وأعلنوا أن الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رايها فى حكم نفسها أخذنا على عاتقنا السعي فى استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها أمام مؤتمر السلام مادام ان حق الاقوى قد زال من ميدان السياسه ، ومادامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركيه حرة من كل حق عليها لان الحمايه التى أعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الامة المصرية باطلة ، ولم تكن فى الواقع الا ضرورة حربيه تزول بزوال الحرب .. واعتمادا على الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم فى صف القائلين بحمايه حريه الامم الصغرى لا يكون لدى مؤتمر السلم ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التى أسس عليها .

« عرضنا رغبتنا فى السفر ، على كبير وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدى باشا فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقا منه اننا انما نعبر عن رأى الامة كافة ، فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا

داخل حدود بلادنا بقـوة الاستبداد لا بقوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الامة الاسيفة ، ولما لم يستطع دولته أن يحتمل مسئولية البقاء في منصبه في حين أن الشعب يصادر في مشيئته ، استقال هو وزميله صاحب المعـالي عدلي يكن باشـا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شـخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

« ولقد كان الناس يظنون أنه كان لهما في وقفتهما الشريفة دفاعا عن الحرية عضـد قوى من نفحات عظمتكم ، لذلك لم يكن أحـد يتوقع أن يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين لان في ذلك متابعة للطامعين في الالغاء وتمكينا للعقبة التي ألقيت في سبيل الادلاء بحجة عدم الذهاب الى المؤتمـر وايذانا بالرضى بحكم الاجنبي علينا الى الابد .

« قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبلوا عرش أبيكم العظيم الذى خـلا بانتقال أخيكم المغفـور له السلطان حسين ، ولكن الامة من جهة أخرى كانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرض في زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظـروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم . غير أن حل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهـرا احترامهما لارادة الامة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليه من حب لخير بلادكم والاعتداد بمشيئة شعبكم لذلك عجب الناس من مستشاريكم كيف أنهم لم يلتفتوا الى الامة في هذا الظرف العصيب .

« اننا نطلب منكم يا أرشد أبناء محررنا الكبير محمد على ، أن تكون لها العون الاول على نيل استقلالها مهما كلفـكم ذلك فان همتكم أرفع من أن تحددها الظروف . كيف فات مستشـاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لاتسمح لرجل مصرى ذى كرامه ووطنية أن يخلفه في مركزه ؟ كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟

« عفوا يا مولانا ، قد تكون مداخلتنا في هذا الامر وفي غير هذه الظروف غير لائقة ، ولكن الامر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن الذى أنت خادمه الامين .

« ان لمولانا أكبر مقام في البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها . وفيه أكبر رجاء لها وانا لا تكذبه النصيحة اذا تضرعنا اليه أن يتعرف

راى أمته قبل ان يتخذ قرارا نهائيا فى أمر الازمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد فى رعاياه من اقصى البلاد الى اقصاها الا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الامة وبين طلبتها مسئولية لم يتحر مستشارو مولانا امرها بالدقة الواجبة • لذلك دفعنا واجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور امته التى هى الآن أشد ما تكون رجـــاء فى استقلالها ، وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدى الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتنال بذلك غرضها ، وانه على ذلك لقدير •

« واننا نتشرف بأن نرفع عبارات الاخلاص الى مقـام عظمتكم الكريمة » •

توقيعـــات
سعد زغلول وجميع أعضاء الوفد

هذا الكتاب رجاء وتضرع ونداء فى ظاهره ، أما فى باطنه فهو احتجاج وتحد وانذار ••

احتجاج على السلطان لانه قبل استقالة رشدى ، وهــذا القبول ينطوى على أمرين خطيرين : الاول ، منع الوفد من الســـفر الى الخارج منعا نهائيا حتى لا يحضر مؤتمر الصلح فى باريس ويعرض قضية الغاء الحماية وانهاء الاحتلال والاعتراف بالاســـتقلال •• والثانى ، حرمان مصر دون سائر الدول من أن يسمع صوتها فى الوقت الذى يبت فيه فى مصيرها كما سجل ذلك رشدى فى استقالته •

وتحد للسلطان حتى لا يفكر أو يحاول تعيين خلف لرشدى وانه لن يجد مصريا يقبل على ضميره أن يخرج على اجماع الامة ويرتكب خيانه وطنية كبرى ••

ثم انذار للسلطان حتى لا يخرج هو نفسه على هـــذا الاجماع وان من الواجب عليه أن يحترم ارادة الامة مهمـــا تكن ظروفه الخاصة وأن ينضم الى جانب أمته اذا لزم الامر •

هذ كتاب ناعم فى ملمســـه غاية النعومة ولكنه خشـن غاية الخشونه فى معناه ومغزاه والغاية منه • معناه مطالبة السلطان ان يؤثر الوقوف الى جانب الامة ، فهذا هو واجبه ومغزاه ألا تكون فى مصر أية حكومة مصرية بعد اليوم • والغاية منه كشف الانجليز أمام العالم أجمع وفضيحتهم فى الاوساط الدولية ، اذ تظهر مصر

أى هذه المرحلة متحدة شعبا وقيادة ووزارة مستقلة وسلطانا ، ويظهر الانجليز فى صف معارض، يحكمون مصر بالعنت والاستبداد والحديد والنار · حينذاك يرى العالم الاستعمار البريطانى على حقيقته ويفهمون معنى حمايته وفى ذلك خير دعاية لمصر بل فى ذلك خير دفاع عن قضيتها لا يقل عن دفاع الوفد أمام مؤتمر السلام ·

٣ ـ اليوم الثالث ٣ مارس :

تكهرب الجو اذ منعت الرقابة البريطانية نشر كتاب الوفد الى السلطان بل حتى مجرد الاشارة اليه ، ولكن هذا لم يمنع أن قامت بعض المطابع فى الخفاء بطبع مئات الالوف منه ووزعت على أوسع نطاق وأصبحت النسخ فى متناول الناس جميعا فى المدن والريف ، فى المحافظات وجميع المديريات · بينما يصادر البولسيس النسخ اذا وجدها ويعتقل حامليها أو قارئيها اذا عثر عليهم ، واشتدت حماسة الناس وجاوزت أبعد مداها ··

ويجتمع الانجليز صباحا وظهرا ومساء فى مركز القيادة البريطانية وفى دار الحماية ونشطت الدوريات البريطانية فى جميع الشوارع والميادين ··

قنبلة الوفد الثانية

احتجاج الوفد لدى ممثلى الدول الاجنبية فى مصر

٤ ـ اليوم الرابع ٤ مارس :

فى هذا الجو المكهرب وجه الوفد ضربة ثانية قاصمة للانجليز ، فقد أرسل الزعيم صباح اليوم الاحتجاج الآتى نصه باللغة الفرنسية الى معتمدى الدول الاجنبية فى مصر :

جناب المعتمد :

« قضى الامر وبلغ العسف غايته ، لم ينفع مصر ان كانت مشرقا لاقدم اشعة المدنية فى العالم ، ولا أنها زينت صحف التاريخ باثار مجدها الخالد، لم ينفعها أن نالتحريتها من قبل بسفك دماء أبنائها، ولا أنها مازالت دائبة يوما بعد يوم من عهد محمد على الكبير الى الآن على أن تستعيد المركز الذى لها حق الوجود فيه بين الامم ، لم ينفعها ما قدمته لقضية الحلفاء أثناء الحرب من معونات متنوعة أفادتهم اعظم فائدة واعترف بفضلها ساستهم وقوادهم ، ومع ذلك افتتحت بريطانيا العظمى تلك الحرب بانزالها بمصر أشد

ضروب التصرفات السياسية ظلما وهو اعلانها الحماية • لم ينفع مصر مالها من وحدة العنصر ونبوغ الطبقة الراقية ، وما عليه أهلها من الشغف بالنظام وحب الحرية والتسامح العظيم ، تلك الخصائص التى تجعلها جديرة بالاستقلال ••

« اذن فكل شيء يجب أن يتوارى امام مطامع الاستعماريين اللامتناهية • ان المصريين دون جميع الامم التى غيرت الحرب مركزها السياسى ، هم وحدهم الذين بطشت بهم يد القوة فحرمتهم حتى من حقهم فى أسماع صوتهم فى مؤتمر السلام : ظلم صارخ يزيد فى ايلامه للانفس ما يصلنا كل يوم من الانباء عن المطالب القومية التى يعرضها على المؤتمر نواب الحجاز وأرمينيا وفلسطين وسوريا والعراق ولبنان ، تلك البلاد التى كانت بالامس ولايات تركية •• ها نحن وحدنا محكوم علينا بالبكم نعلك فيه شكيمة الغيظ والحزن المبرح نلبس ثياب الحداد كمدا على حريتنا المسلوبة ••

«ان الدول التى تسومنا هذا الخسف ما لبثت أن قررت نهائيا قطع الطريق علينا الى المؤتمر ، ساخرة بوعودها كأنها لم تقصد بتلك الوعود سوى أن تفوت على الامه فرصة نفيسة وأن تخيب آمال بنيها •

« ان الوزارات التى اندفعت بوطنيتها الى انتهاج ما يوافق القضيه المصرية قد اضطرت الى الاستقالة لانها لم تستطع المتابعة على مثل هذا الانتهاك اللاحق بأقدس حقوقنا ونحن نعتقد انه لايوجد مصرى واحد جدير بأن يدعى مصريا يستطيع أن يؤلف وزارة يكون مفروضا عليها حتما أن تسير على برنامج يومى الى خنق مصر والقضاء على البقيةالباقية لها من الحقوق ••

« اننا أبلغنا جنابكم من قبل أمانيالبلاد ومطالبها ، فمن الفضلة تكريس بيانها الآن ، وغير خاف على جنابكم أيضا جميع أساليب الدهاء المستعملة لابتلاعمصر جملة تحت ستار مايسمونه اصلاحات سياسيه وقضائية وادارية وليس يعنينا الآن ألا أن نشهدكم على المعاملة الجائرة التى ترزأ بها مصر كى تبلغوا حكومتكم انه على الرغم من العهود التى التزمت بها بريطانيا على رؤوس الاشهاد ، وعلى الرغم من المبادىء التى أقرها الحلفاء بالاجماع ، مازالت فى العالم أمة واحدة تتحكم فيها القوة الغاشمة لخدمة مصالح لا تتفق مع دواعى المدنية ، بل هى أقل اتفاقا مع كل مبادىء الحق والانصاف »•

الجو يتكهرب الى درجة الانفجار

اليوم الخامس : ٥ مارس :

طبعت صور من هذا الاحتجاج ووزعت بنفس الطريقة التى اتبعت فى كتاب الوفد الى السلطان ، ولم يعد هناك الآن أقل شك فى أن الوفد بدأ المعركة مع الانجليز بقنبلتين مصريتين ، وما هى الا ساعات معدودات حتى يبدأ الصدام ·

انذار السلطات العسكرية البريطانية

اليوم السادس : ٦ مارس :

استدعى ميجر جنرال واطسون قائد القوات العسكرية البريطانية فى مصر صبيحة هذا اليوم ، الزعيم سعد زغلول وأعضاء الوفد للحضور الى مركز القيادة بفندق سافوى بميدان سليمان باشا · وفى الموعد المحدد فى الساعة الثالثة بعد الظهر عقد الاجتماع وكانوا جميعا وقوفا فألقى عليهم القائد البريطانى البلاغ الآتى باللغة الانجليزية وهذه ترجمته :

« علمت انكم تضعون مسألة وجود الحماية موضع المناقشة ، وانكم تقيمون العقبات فى سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعى فى منع تشكيل وزارة جديدة ، وحيث ان البلاد لاتزال تحت الاحكام العرفية « العسكرية » لذلك يلزمنى أن انذركم أن أى عمل منكم يرمى الى عرقلة سير الادارة ، يجعلكم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب الاحكام العرفية » ·

وبعد الفراغ من تلاوته بالانجليزية القى ترجمته بالفرنسية ضابط بريطانى ·

وأراد الزعيم أن يتكلم فرفض الميجر البريطانى أن يسمع وقال بالانجليزية « لا مناقشة » ، وتركهم وانصرف ، ثم تقدم الضابط البريطانى وسلم الزعيم نسخة من الانذار بنصه الانجليزى ·

قنبلة الوفد الثالثة
رد الوفد على الانذار البريطانى

لم يتراجع أعضاء الوفد أمام هذا الانذار وأسلوبه الوقح ، بل قاوموه ورفضوه وتحدوه وأعلنوا على الملأ انه لن يثنيهم عن أهدافهم ولن يفت فى عضدهم ، وتجلى ذلك فى مسلكهم الرائع الذى برز للعيان بعد ساعات معدودات ·

فقد عقدوا اجتماعا بعد وصولهم الى منزل الزعيم وأسفر الاجتماع عن برقية أعدوها ووافقوا عليها بالاجماع أرسلها الزعيم الى رئيس الوزارة البريطانية وفيما يلى أهم ما جاء فيها :

« ان السلطه العسكريه البريطانية أنذرتنا اليوم بأننا نضع الحمايه موضع البحث والمناقشه واننا نعرقل تأليف الوزارة الجديدة وتوعدتنا باشد العقاب العسكرى • على أنها فيما يظهر تجهل اننا نطالب بالاستقلال التام ونستنكر الحمايه ونرى أنها غير مشروعة • ان تلك السلطه العسكرية البريطانية لاشك تعلم اننا أخذنا على عاتقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن أدائه بالطرق المشروعه مهما كلفنا ذلك ، وحسبنا أن نذكر لكم هذا التصرف الجائر الذى يجر على اصحابه سخط العالم المتمدين ، ونرجو أن تفكروا فى حل هذه الازمه بسفر الوفد حتى يرتاح بال الشعب المصرى » •

حال لا يطاق

لو أن دارسا للتاريخ عنى بجمع الاسباب المتعددة للثورات التى قامت فى هذا العالم قديما وحديثا لوجد أن هذه الاسباب قد اجتمعت وتوافرت فى مصر ، خنق الحريات جميعا للافراد والجماعات ، اضطهاد واستبداد ومظالم لا أمل مطلقا فى ازالتها بالوسائل السلميه ، عنف الحكام وعنتهم وغطرستهم وجبروتهم وجمودهم ومخالفتهم لكل مبادىء المروءة والانسانية والحق والعدل والانصاف ، ثفور الشعب وغيظه وسخطه المتزايد المستمر على حكامه الاجانب الطغاة ونظام الحكم الفاسد المدمر لكل أمن وطمأنينة وكرامة شعور عام بالمهانة واجماع الرغبة فى الانتقام • استحالة التوفيق بين الحياة العزيزة وهذه المعيشة الكريهة المحمومة المسمومة التى يضيع فيها كل شعوره بالشرف وحب الحياة ، ثم ذكريات مريرة طويلة عميقة مثيرة عن مظالم واعتداءات واهانات وقسوة واعنات بعد اعنات استمر أكثر من ٣٧ عاما من ١٨٨٢ ـ ١٩١٩ • لقد توافرت للثورة المصرية كل العناصر والمسببات للثورات قديما وحديثا ، فالثورة أمر واقع ليس له من دافع ، وغدا تبدأ شرارتها وان غدا لناظره قريب •

الفصل السابع

شرارة الثورة

اعتقال ونفى الزعيم

يوم السبت ٨ مارس ١٩١٩ :

في الساعة الثالثة بعد ظهر هذا اليوم حضر الى منزل الزعيم ضابط بريطاني ومعه مترجم قبرصي وخمسة من الجنود الانجليز المسلحين بالمسدسات في سيارة كبيرة بريطانية تحمل مدفعا رشاشا « متراليوز » ووقف ثلاثة من هؤلاء الجنود على الباب الخارجي للمنزل ودخل الضابط والمترجم وجنديان على الزعيم في مكتبه وهو يجمع أوراقه ويستعد لفترة الراحة بعد الغداء ، وأبلغه الضابط الانجليزي الامر باعتقاله فورا بلا مناقشة فخرج وركب معهم سيارتهم الحربية وانطلقوا به الى ثكنة قصر النيل • وبعد حوالي نصف ساعة لحق به ثلاثة من زملائه هم محمد محمود باشا واسماعيل صدقي باشا وحمد الباسل باشا ، اعتقلتهم السلطات العسكرية البريطانية بنفس الطريقة من منازلهم في الساعة الثالثة بعد الظهر كذلك وفي ثكنة قصر النيل حيث قضوا جميعا ليلتهم ، وقد أحضرت لهم حقائبهم بملابس تكفي شهرا لكل منهم(١) •

---

(١) تم كل هذا في سرعة خاطفة ولم تنشر الجرائد اى نبأ عنه ولا حتى مجرد اشارة وأول من عرف خبر الاعتقال هم بطبيعة الحال بقية أعضاء الوفد وقد عرفوه تليفونيا بعد وقوعه بدقائق معدودات ••

وفى صبيحة اليوم التالى ٩ مارس نقلوا الى بورسعيد فى ديوان خاص بهم بقطار الصباح وكان فى حراستهم ضابط بريطانى وعشرون جنديا من الانجليز شاهرى السلاح ، وما أن دخلوا الى الميناء حتى أصعدوهم الى باخرة صغيرة وهى نقالة بريطانية تقل الفين من الجنود البريطانيين فى طريقهم الى بلادهم .

وبعد ثلاثة أيام من ابحارهم وصلوا الى جزيرة مالطة التى اختارتها الحكومة البريطانية لتكون لهم منفى ومستقرا ..

كتاب احتجاج الى السلطان
من بقية أعضاء الوفد

فى الوقت الذى كان فيه قطار بورسعيد المقل للزعيم وزملائه الثلاثة ، ينهب الارض نهبا كان أعضاء الوفد الباقون فى مصر مجتمعين فى بيت الامة « منزل الزعيم » يدرسون مشروع كتاب أعده الاستاذ عبد العزيز فهمى بك توطئة لارساله الى السلطان .

وقبل أن يصل القطار الى بورسعيد وصل الكتاب الى يد السلطان فى سراى عابدين وهذا نصه :

« يا صاحب العظمة :

« يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى برفع مايلى الى مقام عظمتكم السامى : قبلتم استقالة الوزيرين رشدى باشا وعدلى باشا فلما فهمنا أن هذا ربما كان الحل الوحيد لمسألة سفر الوفد المكلف بالدفاع عن قضية بلدكم الاسيفه ، وانه حل لا يسمح لرجل مصرى ذى كرامة ووطنية أن يقبل تأليف الوزارة مادام الوزيران المستقيلان علقا سحب استقالتهما على أمر سفر الوفد ، عرضنا لسدتكم العلية متضرعين أن تتعرفوا رأى الامة قبل البت نهائيا فى هذا الامر وأن تعيدوا النظر فى الخطة التى اختطها مستشاروكم وأن تبدو للامة آية من آيات ما جبلتم عليه من حبها فتكونوا فى صفها مدافعين عنها لتنال غرضها ، تضرعنا بذلك الى مولانا ولبثنا متطلعين بكمال الثقة فى أن ابن اسماعيل الجالس على عرش محمد على الكبير سيرينا من نفحاته ما يحقق الامل ..

« غير انه لم يمض الا يومان حتى استدعتنا السلطة العسكرية البريطانية فى ٦ مارس ، وأبلغتنا أنها علمت اننا نضع مسألة الحماية موضع البحث واننا نلقى العراقيل فى سبيل الحكومة المصرية تحت الحمايه بمحاولة منع تشكيل الوزارة ، وأنذرتنا بالعقاب العسكرى الشديد ان أتينا عملا يرمى الى تعطيل سير الادارة ، ثم منعتنا من مناقشتها فى هذا البلاغ . لم تصب السلطة

في رأيها ، فان هذه الحماية باطلة ولكل انسان الحق المطلق في أن يضعها تحت البحث والمناقشة القانونيـــة ، وأما عدم نجـاح الحكومة في تشكيل الوزارة فانما هو النتيجة الطبيعيه للخطة التى اتخذت في مسألة سفر الوفد ، فان كل مصرى ذى كرامة لا يمكنه حقيقة أن يقبل الوزارة في هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده .

« ولم يقف الامر عند هذا الانذار ، بل قبضت السلطة أمس على رئيسنا سعد زغلول باشا وزملائنا محمد محمود باشا وحمـــد الباسل باشا واسماعيل صدقى باشا وزجوهم في قصر النيل ثم سيق بهم اليوم الى بور سعيد فالى حيث لا نعلم ، وذنبنا في ذلك اننا نطلب حريتنا السياسية طبقا للمبادىء الشريفه التى اتخـذت قاعدة للسياسة العالميه الجديدة والتى قبلتها بريطانيا نفسـها ، وبينا أننا لم نتعد حدود القانون ، فلم نهيج في البلاد طائرا ولم نحرك ساكنا ، بل قبلنا توكيل الشعب ايانا ان نأتمر بأمره ونسعى لتحقيق مشيئته عند الذين يقولون انه لم يبق في العالم شعب سيد وشعب مسود ، بل العالم الانسانى في الاخاء الانسانى سواء ..

« وفي هذه الاعتبارات يصعب علينا يا مولانا أن نفهم مبررا لهذه الخطة القاسـية التى جرتهـا علينا السياسة الانجليزية تحت ثوب الاحكام العسكرية تلك الاحكام التى لا ندرى ما يسـوغ وجودها الى الآن بعد الهدنه بأربعة أشهر وبعد أن امتحنت مصر في أشـد ظروف الحرب حرجا ، فلم يكن منها الا اطاعه للاوامر العسكرية من غير بحث واخلاد الى السكينة التى لم يكن لها مثيل حتى في بريطانيا العظمى نفسها .

« اليكم يا صاحب العظمة وأنتم تتبوأون أكبر مقـــام في مصر وعليكم أكبر مسئولية منها ، نرفع باسم الامة أمر هـذا التصرف القاسى ، فان شعبكم الآن يحـــق له أن يعتبر هذه الطريقة بادرة تخيفه على مستقبله كما يحق له أن يكرر الضراعة لسدتكم العلية أن تقفوا في صفه ، مدافعين عن قضيته العادلة .

واننا مع كمال الاحترام نتشرف برفع آيات اخلاصنا الى مقـام عظمتكم الكريمة » .

توقيعات أعضاء الوفد

٩ مارس ١٩١٩

هذا الكتاب في الواقع انما هو صرخة من الوفد الى السلطان لكى يتحرك ، وعتاب قوى لكى يستيقظ ضميره ويتدخـل ، ثم هو

مناشدة صريحة لكي يقف الى جانب الشـعب فى محنته فى هذه الازمة العصيبة عسى أن يكون فى تدخله ووقفته فى صف الشعب ما يحمل الانجليز على العدول عن مظالمهـم ، وهو على اية حال مكسب هائل لقضية البلاد لو أنه تم · ولـكن السلطان لم يتحرك ولم يتدخل ولم يتأثر وظل وليا صميما للانجليز ، فذهبت صرخـة الوفد فى الفضاء اذ وقعت على أذن صماء ··

ومهما يكن من أمر فان طبع هذا الكتاب وتوزيعه على الشعب بالطريقة السرية المعتادة أحدث دويا قويا فى جميع أنحـاء البلاد بعد أن كشف أمر الاعتقال والنفى وكل الحقائق ، كشفا واضحا مؤثرا ··

وفى اليوم نفسـه أرسل الوفد برقيـات ثلاثا الى كل من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ومستر ولسون صـاحب المبادىء المشهورة ومسيو كلمينصو رئيس الحكومة الفرنسية ورئيس مؤتمر الصلح فى فرسـايل ، وقد انطوت هـذه البرقيات الثلاث على الاحتجاج الشديد على أعمال السلطة العسـكرية البريطانية فى مصر من اعتقال الزعيم وأصـحابه الثلاثة ونفيهـم الى مالطة والاستنكار الشـديد لتحدى بريطانيا للمبـادىء التى قام مؤتمر الصلح على أساسها ، ثم العزم الاكيد على مواصـلة الوفد فى جهاده لتحقيق استقلال البلاد وازالة الاحتلال والحماية عن مصر ·

فصادر الرقيب البريطانى هذه البرقيات الثلاث ، ومنع خروجها من مصر ولكنها طبعت سرا ووزعت فى مصر ·

الثـــورة

فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ :

كان اعتقال الزعيم وصحبه كما قلنا الشرارة المنتظرة لقيـام ثورة عارمة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ البلاد ، ولكن أى شـكل او أسلوب اتخذته الثورة ؟

ان الثورة لم تنفجر بالشرارة انفجار القنبلة ذات الدوى القوى القصير السريع المؤقت ، ولا كانت كانفجار البركان يرمى بالحمم المتأججة والمنصهرات المتدفقة ذات التخريب المريع ثم يسكن ويخمد··

ولكن الثورة كانت أشبه بحريق هائل شامل بدأته شرارة زحفت وزحفت حتى وصلت الى هشيم مملوء بالديناميت وشـتى أنواع المتفجرات ، وهذا هو الوصف الصادق الصحيح لنفسية الشعب المصرى أفرادا وجماعات فى تلك الفترة العصيبة ، واستمر الحريق

الهائل المدمر يتزايد ويتفاقم وقد بذل الانجليز أقصى ما يملكون من قوة وجهد وعنف وقسوة لاطفائه وانهاء التـــورة فأزعجهــم ذلك وأعياهم ، فاضطروا اضطرارا الى الافراج عن الزعيم وصحبه بعد شهر واحد من اعتقالهم ونفيهم الى مالطة ، أى بعـد ثلاثين يوما لا أكثر من قيام هذه الثورة المباركة ، وكان ذلك في ٧ ابريل سنة ١٩١٩ .

ولكن مالنا نسارع فنسبق الحوادث ، نذكر نتيجتها قبل أن نصف هذه الثورة العارمة الموفقة في هذا الشهر الاول من قيامها . انها ثورة شعبية كاملة هائلة لم تعرف مصر لها مثيلا في تاريخها الطويل فلنر الآن ..

لقد مرت الثورة في مراحل ثلاث تداخل بعضها في بعض وتفاعل بعضها مع بعض ، والعجيب أن المراحل الثلاث استمرت متعاونة ومتساندة طوال الشهر فلم تنته احداها بظهور الاخـرى بل كان من تعاونها جميعها وتساندها وتفاعلها واتساع دائرتها ما جعل لهيبها وسعيرها يعم البلاد كلها من اقصاها الى اقصاها ، ومما جعل آثرها اقوى وأنجع وانجح وجعل بركاتها اعم واشمل وابقى .

المرحلة الاولى : مرحلة المظاهرات العامة

سبق أن قلنا ان الاعتقال تم في سرعة خاطفة وفي خفية كاملة واستعداد مرتب منظم من جانب الانجليز ، ثم كتم الامر عن الناس أجمعين بدقة مدروسة وحرص معدوم النظير ، فمنعت الجرائد حتى من مجرد الاشارة والتلميح الى تلك الاحداث المرعجة المدهشة ، واشتدت سيطرة الرقابة العســكرية البريطانية حتى على رسائل البرق والبريد فما عرف الناس شيئا عما حدث ..

هكذا فعل الانجليز بعد أن فكروا ودبروا وتآمروا وقدروا فسخرت منهم المقادير ، ولكن الشرارة قد وجدت على كل حال ، وهي ككل شرارة حية أحدثت تزحف ثم تزحف ، وقد زحفت وسفلت بالدعوة في سرعة بلغت حد الاعجاز ..

حسبك أن نعلم انه لم يمض يوم واحد حتى عرفته القاهرة كلها، ولم تمض ثلاثة أيام حتى عرفه المصريون أجمعـــون في الريف والحضر . ففي اليوم التالي للاعتقـــال أى يوم ٩ مارس قامت مظاهرات سلمية في القاهرة فبدأت بقيامها بوادر الثورة .. قام بها طلبة المدارس العالية ، الحقوق والهندسة والمعلمين والطب والزراعة والتجارة وغيرها ، خرجوا من مدارســهم بأعـلامهم ، ففتك الجنود البريطانيون بهم باطلاق الرصـاص عليهم لتفريقهم فقتلوا وجرحوا عشرات بل مئات . وفي اليوم التـــالي بل الايام

المتتالية استمرت المظاهرات على نطاق أوسع وأشمل وأكمل قام بها طلبة المدارس جميعا « العالية والثانوية والابتدائية » وطلبة الازهر والمعاهد الدينية وانضم الى المظاهرات جميع فئات الشعب : عمال المنائر والسكك الحديدية والمحامون الاهليون والشرعيون ورجال القضاء والاطباء والمعلمون ، كما اشترك فى جميع المظاهرات المسلمون والاقباط فى اقبال وحماسة وتضحية على السواء ، وكان خطباء المسلمين يدخلون الكنائس ويخطبون فيها ، وخطباء الاقباط يدخلون المساجد ويخطبون فيها • فلم يخل شارع ولا ميدان فى القاهرة والاسكندرية من مظاهرات قابلها الجنود البريطانيون بقسوة بالغة اذ أمطروا المتظاهرين كل يوم وابلا من رصاص المدافع الرشاشة فسقط عدد كبير جدا من القتلى والجرحى، ولم يكن المتظاهرون حينذاك قد ارتكبوا أية جريمة اللهم الا مجرد التظاهر السلمي والهتاف بسقوط الحماية والمناداة بحياة الزعيم والنداء بالاستقلال ••

هذا العنف الدموى الشديد من جانب السلطات العسكرية البريطانية حتى معاملتهم لمظاهرات جنازات الشهداء •• لم يكن القصد منه الا سحق الحركة الوطنية وارهاب المصريين وقتل الروح الوطنية بأسرع ما يمكن ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ زادت المظاهرات عددا وزاد اشتراك جميع الهيئات والافراد على اختلاف مراكزهم وأعمارهم حتى السيدات المصريات قمن بمظاهرات ضخمة فخمة فى ١٦ مارس وهن مازلن تحت الحجاب ، وقد حاصرهن الجنود فى بعض الشوارع وحول بيت الامة وتركوهن واقفات محصورات ساعات طوالا تحت شمس حارة فى يوم عاصف وكان من مظاهر الجلال لهذا النضال الباسل ان المتظاهرين والمتظاهرات ازدادوا اقبالا واستماتة وتحديا واستخفافا بالموت والتعذيب كلما زاد الجنود البريطانيون فتكا بالمظاهرات وتقتيلا وتعذيبا •

روح الوطنية ما أعجبها وما أعمقها ! وشجاعة ما أنبلها وما أروعها !! وعقلية فدائية تجلت بوادرها وظهر اتساعها ، وليس معنى الروح الفدائية أن يتحمل الانسان التعذيب والموت فى جرأة واستخفاف فحسب ، بل فى أن يصب الانسان التعذيب والموت على خصومه وأعدائه كذلك ، ولقد تجلى ذلك الى حد ما فى المرحلة الثانية ثم تجلى الى أبعد الحدود وفاق كل حسبان فى المرحلة الثالثة من الثورة حيث جرى التقتيل والتعذيب على أوسع نطاق ، ورد المصريون الصاع صاعين للانجليز حتى أرعبوهم وأذهلوهم •

المرحلة الثانية : مرحلة الاضراب العام

بدأت مرحلة الاضراب العام بعد مرحله المظاهرات بوقت قصير جدا لا يزيد على يوم واحد ، بل ان بعض الاضرابات وقعت فعلا في نفس الوقت الذى قامت فيه أول مظاهرة ، كمظاهرات طلبه المدارس العالية واضرابهم عن الدراسة حدثت جنبا الى جنب باستمرار ، ثم جرت الاضرابات بعد ذلك تباعا على اختلاف جهاتها متتابعة متلاحقة متزايدة • أضرب طلبه الازهر والمعاهد الدينيه وتلاميذ المدارس جميعا • أغلقت المتاجر والدكاكين • أضرب عمال الترام وسيارات التاكسى وعربات الاجره « الحناطير » فتعطلت جميع المواصلات داخل العاصمة واقتصر الانتقال سيرا على الاقدام أو ركوبا على الحمير كلما وجدت • ثم اضرب المحامون الاهليون والشرعيون فتعطلت المحاكم وتم بذلك أضراب القضاه واضراب عمال العنابر « السكك الحديديه » وهم أكثر من خمسه الاف فتعطلت المواصلات بين القاهرة والمديريات والمحافظات يومين ثانيين استطاع الانجليز بعدهما بواسطة جنودهم السائقين السابقين للقطارات في بريطانيا ان يعيدوا تسيير بعض القطارات ؛ وكان المضربون ينزلون الى الشوارع فى مظاهرات باعلامهم فلم ينقطع سيل المظاهرات يوما واحدا رغم ما استباحه الانجليز لنفسهم من الفتك بالمتظاهرين بالمدافع الرشاشة والقبض على العشرات بل المئات لتعذيبهم في السجون أو لتقديمهم الى المحاكم العسكرية البريطانيه التى كانت تصدر ضدهم احكاما جارفه تنم عن القسوة البالغة والرغبه في الانتقام •

ثم أضرب عدد غير قليل من الموظفين فأسرع القائد العام للقوات البريطانيه الى توجيه انذار شديد اللهجة اليهم ، طالبهم فيه بضرورة اجتناب الحركات السياسة والاستمرار في أعمالهم والا عرضوا أنفسهم لاشد العقاب بمقتضى الاحكام العرفية •

هذا ولم تقتصر حركة الاضرابات على القاهرة وحدها بل عمت جميع المدن والمحافظات حتى وقع الشلل في بعض الاجهزة الحكومية في بعض المصالح والادارات •

المرحله الثالثة ـ مرحلة الثورة الايجابيه ونشاط الفدائيين وحرب العصابات وأعمال التقتيل والتحطيم والتخريب في جميع أنحاء البلاد

رأينا كيف اندمجت الاضرابات في المظاهرات واصبحت المرحلتان في الواقع ظاهرة واحدة شاملة، فالمضربون متظاهرون والمتظاهرون

مضربون ، وتعطلت الاعمال وماجت الشوارع والميادين بجمـــوع زاحرة من المتظاهرين الساخطين الحانقين وكان فتك الجنــــود البريطانيين بالمتظاهرين وبالســـائرين المشـيعين لجنازات الشهداء شنيعا فظيعا قاسيا باغيا بوحشية معدومة النظير • حسبى الآن أن أقدم دليلا رسميا مكتوبا فى ذلك الوقت العصيب بأقلام رجال مسئولين يثبت صحة الاوصاف عن عمليات الفتك الاستعمارية ، وهذا نص الوثيقة :

مستشفى قصر العينى : القاهرة فى ١٥ مارس ســـنة ١٩١٩.
جناب مدير مصلحة الصحة العمومية « تحولت فيما بعـــد الى وزارة الصحة » •

« نحن الموقعين على هذا أطباء مستشفى قصر العينى ومدرسة الطب والاطباء الشرعيين لدى المحاكم الاهلية نتشرف برفع هذا لجنابكم « وهو مدير انجليزى » .

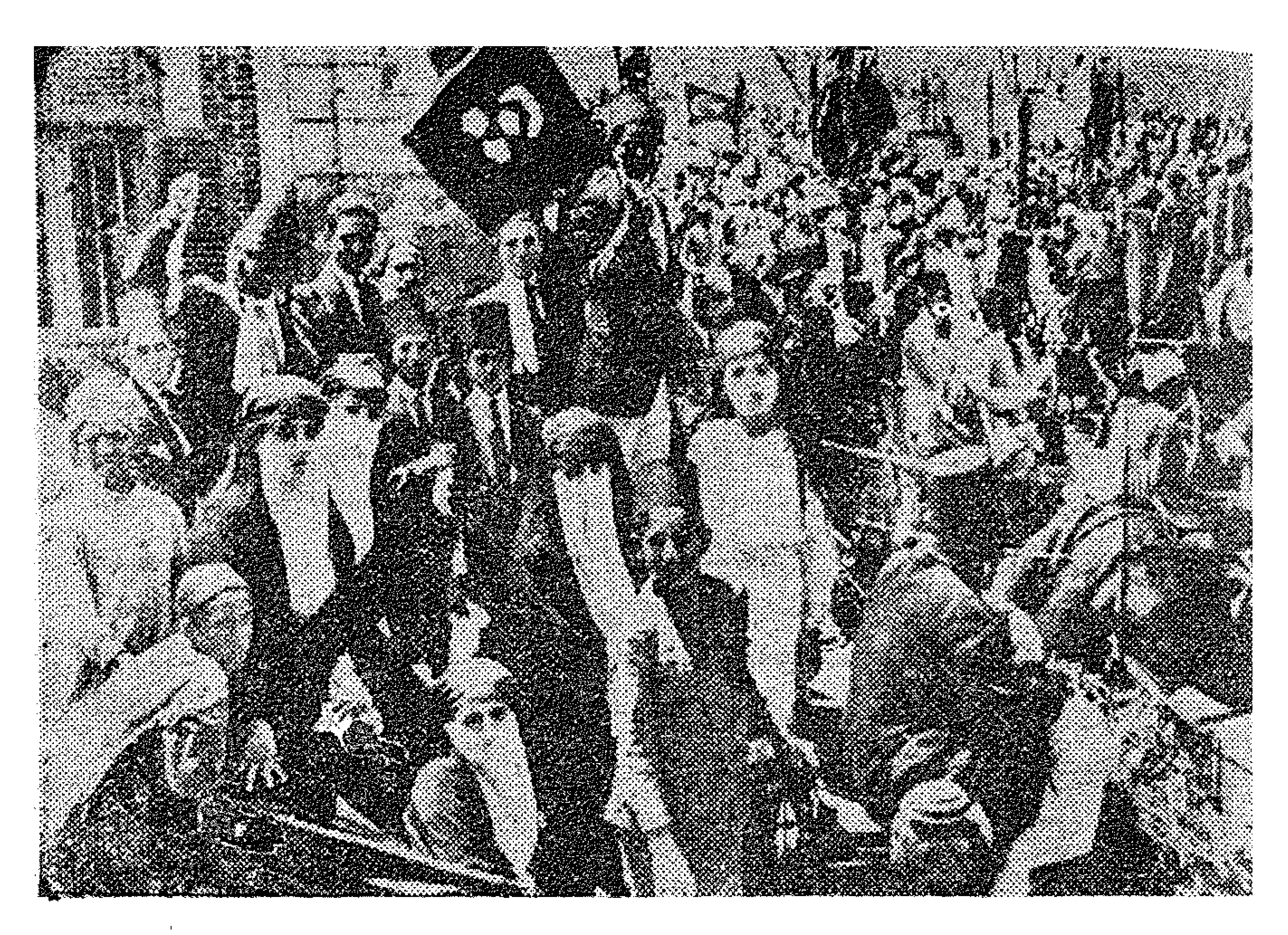
انه يحزننا ان نرى السلطة العسكرية البريطانية قد استعملت ضرب الرصاص والمدافع الرشاشة فى تفريق الجماهير المجتمعة لغرض سلمى وهى غير مسلحة مطلقا ورأينا من بين المصـــابين أطفالا ونساء قتلى وجرحى ، ولا يمكن مطلقا ان يكون قد وقع منهم أى اعتداء على السلطة ، كما رأينا أن عددا ليس بالقليـــل من الجرحى مصابون اصابات خطرة منهكة فى البطن والصدر ممـــا يدل على ان ضربهم بالرصاص كان اعتباطا وبغير مبالاة ، ولم يكن الغرض منه كما هو اللازم مجرد تخويفهم وتفريقهم ، مع العلم بأنه كان يكفى لتفريق اجتماعات مثل هذه وليس بها شخص واحد مسلح قط ، طرق اخرى غير ضرب الرصاص من المدافع الرشاشة والبنادق جزافا •

« لذلك نحتج أشد الاحتجاج على هذا ، ونطلب من جنـــابكم بصفتكم مديرا عاما لمصلحة الصحه المصرية تبليغ هذا الاحتجاج الى جهة الاختصاص منعا لما ينتج عن مثل هذه الاعمـــال فى المستقبل خصوصا وان العاطفة التى دفعت المتظاهرين الى عملهم عاطفة بشرية توجد فى جميع الامم •

التوقيعات

من جميع الاطباءِ وعلى رأسهم الدكتور سليمان عزمى

ذهب هذا الاحتجـــاج صرخة فى واد ونزل على اذان بريطانية صماء ، وتعرض هؤلاء الاطباء أنفسهم الى كثير من اللوم والانذارات واللعنات والتهديد من جانب رؤسائهم الانجليز • فكان اذن لا بد



عمت الثورة البلاد وشملت كافة فئات الشعب من عمال وموظفين وطلبة رجالا ونساء

من انتقال الثورة الى مرحلة جديدة حاسمة فان للصبر نهاية وللاحتمال حدودا ، وما كان فى طاقة البشر أن يتحملوا التقتيل والتعذيب والاذلال وهم صاغرون مكتفون بالصراخ والعويل والاحتجاجات والمظاهرات والمكاتبات بالبرق والبريد ٠

من هنا كان حتما أن تبدأ المرحلة الثالثة الايجابية حرب العصابات ونشاط الفدائيين وأعمال القتل والانتقام(١) والتحطيم

---

(١) فى بحر الاسبوع الاول لهذه المرحلة الايجابية للثورة وقعت حوادث خطف واغتيال لاكثر من عشرين جنديا انجليزيا فى شوارع القاهرة ليلا وخمسة وعشرين باسكندرية واثنين فى بورسعيد حتى اضطر الجنود المسلحون بالمدافع الرشاشة الا يتحركوا ويتنقلوا فرادى بل خمسات وعشرات لمن يسيرون متجولين فى الشوارع٠ حينذاك جن الانجليز من تطور الثورة الى هذا الشكل الخطير واتخاذها هذا الاسلوب الرهيب وقد ساعد على ذلك تحطيم الناس لعدد غير قليل من فوانيس الشوارع ، فاشتد الظلام وأصبحت الشوارع مهجورة فى المدن لا سيما فى القاهرة والاسكندرية فى شكل مقفر وليس فيها انسان ولا حيوان اللهم الا الجنود البريطانيون يتنقلون فى اللوريات فى الشوارع والميادين واخرون يحتلون مداخل الشوارع الكبيرة منها والصغيرة ٠٠

والتخريب على أوسع نطاق لكل ما من شأنه شل الانجليز فى جميع أنحاء البلاد • فانتشر فى جميع القرى والمدن فى الوجهين البحرى والقبلى كثيرون من الطلبة ورجال الثورة الفدائيين فأصبحت فى حالة غليان للعمل الجدى واستعداد للقيام بعمليـــات التحطيم والتخريب والتقتيل واشعال الحرائق فى محطات السكك الحديدية ، وقطعت أسلاك البرق والتليفون على أوسع نطاق وانـتزعت بعض قضبان السكك الحديدية فى أكثر من مكان ، فتعطلت جميع الموصلات والاتصالات وأصبحت المراكب الشراعية فى النيل وسيلة الانتقال الوحيدة بين القاهرة وسائر المدن وقرى الريف ••

فماذا يفعل القائد العام للقوات العسكرية البريطانية ؟ لقـــد استفحلت الامور وخرج الزمام فى حكم البلاد من أيدى المستعمرين أو كاد ، ولكنه أصدر ثلاثة انذارات متتاليـــة نشرت فى جميع الجرائد بالخط العريض ولصقت على الجدران فى جميع الشوارع •

الانذار الاول : فى ١٤ من مارس يحذر وينذر بأن كل من يتلف مواصلات السكك الحديدية أو التلغراف أو التليفون أو يلحق أى عطل بها أو يعبث بها بأى وجه من الوجوه يعرض نفسه للاعدام رميا بالرصاص بمقتضى الاحكام العرفية البريطانية •

فماذا كانت النتيجة ؟ لقد زادت أعمال التخريب فى قضبان السكك الحديد وأسلاك البرق والتليفون وأحرق عدد غير قليل من محطات السكك الحديدية وحطمت بقية فوانيس النور فى شـــوارع القاهرة وسائر المدن فى أنحاء البلاد ، فتحول الليل الى ظلام حالك•

الانذار الثانى : فى ١٧ مارس وجاء فيه ما يلى :

« ان القرى الواقعه بقرب خطوط السكك الحديديه التى يحـــدث تلف فى قضبانها تكون مسـئوله عن جميع نفقـــات الترميمات ، وكذلك التعويضات فى حالة احراق المحطات او حدوث نهب وسلب »•

فماذا كانت النتيجة ؟ ازدادت الحرائق فى المبانى الحكومية وتعددت أعمال التخريب والتدمير وامتدت الى مســاكن الانجليز وسياراتهم وخطوط السكك الحديدية التى علق الانجليز عليها كل أهمية وكل اهتمام •

الانذار الثالث : فى ٢٠ مارس ، وهو أشد وأعنف من الانذارين السابقين اذ جاء فيه : **« كل حادث جديد من حوادث تدمير محطات السكك الحديدية أو المهمات الاخرى يعاقب عليـه باحراق القرية التى هى أقرب من غيرها الى مكان التدمير ، وهذا آخر انذار » •**

فماذا كانت النتيجة ؟ اتسعت دائرة التخريب بدل ان تضيق وزاد عدد الحرائق والاغتيال بدل أن يقل . لقد ظهر جليا أن من العبث والسخف الاستمرار فى اصدار مثل هذه الانذارات التى لم تطفىء حريقا ولم تمنع تخريبا ولم ترهب أحدا بل لعلها زادت الثورة قوة واتساعا وتفاقما وثبت للمصريين الثائرين أنهم الان على الطريق المستقيم فى الثورة ، وأن هذه الاعمال الايجابية أصبحت كاوية شاوية للانجليز ومحطمة لزهوهم وغطرستهم وتحديا سافرا لقوتهم وطغيانهم وجبروتهم وهم الذين خرجت بلادهم من الحرب العالمية الكبرى أقوى نفوذا وأشد بأسا وأوسع سلطانا مما كانت عليه قبل الحرب .

فماذا يفعل الآن القائد العام للقوات العسكرية البريطانية وهو الحاكم بأمره فى البلاد ؟.. كيف يسيطر على الموقف ؟ كيف يعيد الامن والنظام والاستقرار ؟ لقد ثبت بصورة مقنعة واضحة ان الانحلال والتفتت فى الادارة الحكومية يعمان البلاد كلها وان حرية العمل قد انتقلت فى الحقيقة الى أيدى المصريين الثائرين الذين بدأوا الثورة متظاهرين سالمين فاصبحوا الآن عمالقة أقوياء يضربون فى الصميم ضربات مدوخة قاتلة لعدوهم الطاغية .

وفيما يلى ما فعله القائد العام بعد تلك الانذارات الفاشلة :

١ ـ دعا لمقابلته فى مركز القيادة البريطانية بعض الاعيان والوزراء السابقين وأنذرهم فى غلظة وعنف بأن يبذلوا كل ما فى وسعهم لتهدئة الاهالى ومنعهم من احداث القلاقل والقيام بأعمال التخريب حتى لا يضطر الى الالتجاء الى حرق القرى والبلاد وتخريب البيوت وتدمير العمائر وختم انذاره بتحذيرهم من حمله على انتهاج خطة تكون عاقبتها وبالا على مصر كلها .

٢ ـ استخدم الانجليز الطائرات الحربية لحماية خطوط السكك الحديدية نهارا .

٣ ـ استخدموا كذلك كتائب من الجنود المسلحين بالمدافع الرشاشة « المتراليوز » لتجوب البلاد فى اللوريات والسيارات المصفحة وكانوا يطلقون الرصاص على كل جماعة يشاهدونها فوقعت خسائر كبيرة من القتلى والجرحى .

٤ ـ منعوا الناس من الخروج من منازلهم ليلا من التاسعة مساء حتى الرابعة صباحا اذ وجدوا بالتجربة أن تخريب الخطوط الحديدية لا يحدث الا ليلا ..

٥ ـ منعوا حتى الخفراء المصريين من السهر للمحافظة على خطوط السكك الحديدية بعد غروب الشمس وتولى القيام بهذه المهمة الجنود البريطانيون •

٦ ـ أرسلوا تجريدات عسكرية تأديبية مسلحة فى لوريات الى بعض بلاد الوجه البحرى مثل الاسكندرية ورشيد وبور سعيد وزفتى وطنطا والمحلة الكبرى وبركة السبع وقلين وميت غمر ودسوق وشبين الكوم والمنصورة وغيرها وكانت خسائر المصريين جسيمة فى القتلى والجرحى • كما أرسلوا الى الوجه القبلى تجريدات عسكرية مسلحة بواسطة البواخر النيلية التى حملت معهم كميات كبيرة من مدافع المتراليوز والذخائر الحربية •

٧ ـ أصلح المهندسون الانجليز عددا قليلا من خطوط السكك الحديدية الرئيسية مثل خط القاهرة ـ الاسكندرية ، خط القاهرة ـ الاسماعيلية ـ بور سعيد ، وخط القاهرة ـ قنا ـ الاقصر •

وأعلنوا أنه لا يسمح بالسفر على هذه القطارات الا لفئات معينه وهم الاوربيون المرخص لهم بالسفر الى الخارج وموظفو الحكومة الذين يحملون معهم ترخيصا موقعا عليه من أحد رؤسائهم الانجليز ، والمصريون الذين يحصلون على ترخيص خاص من السلطة العسكرية البريطانية نفسها •

وبعد يومين اثنين من هذا الاعلان وقع تخريب فى أكثر من مكان فى هذه الخطوط الجديدة ، فأعلن القائد البريطانى انه سينفذ وعيده وانذاره باحراق القرى المجاورة لمناطق التخريب واعطاء الاهالى درسا لن ينسوه حتى لا يعودوا الى مثل هذه الاعمال التخريبية مرة أخرى ، وقد نفذ فعلا وعيده باعمال التقتيل الوحشية على أوسع نطاق وتحصيل الغرامات الباهظة لعمليات الاصلاح الجديدة لمحطات السكك الحديدية التى أحرقت والقضبان التى أتلفت • وأسرع المهندسون البريطانيون فى اصلاح ما خرب وعادت هذه الخطوط الى الاستعمال مرة أخرى •

القرى التى أحرقت ـ والفتك بالاهالى على أوسع نطاق

من العسير المؤلم أن نذكر هنا على سبيل الحصر جميع القرى التى احترقت وجميع الاعمال الاجرامية التى ارتكبها الانجليز ضد الاهالى الآمنين حتى بغير استثناء للشيوخ والنساء والاطفال • فلنذكر بعضها وأهمها على سبيل المثال :

ديروط ودير مواس :

هاجم الثوار القطار القادم من الاقصر الى القاهرة عند وقوفه في هاتين المحطتين وكان به بعض الضباط والجنود الانجليز فقتلوا ثلاثة من الضباط وخمسة من الجنود المسلحين ودارت معركة داخل القطار وخارجه فقتل عدد كبير من الثائرين واشعلت النار في القريتين ولكن سرعان ما تمكن الاهالى من اطفاء الحريق قبل ان يستفحل ثم عاد الانجليز بعد يومين وأتموا احراق القريتين ٠

آسيوط :

بلغت فيها الثورة ذروتهـا ، فتحصن الضـبـاط والجنـود البريطانيون في مبنى المدرسه الثانويه ومعهم من المدنيين البريطانيين حوالى ٢٠٠ شخص مسلح وتمكن الثـوار المصريون المهاجمـون من اختراق الاسوار الخارجية لمبنى المدرسة وقتلوا عددا من الجنود البريطانيين الذين اطلقوا على الثوار كل ما في ايديهم من المدافع الرشاشه فقتلوا مئات منهم ، ومع ذلك استمرت المعركه ثلاثه ايام حتى وصلت نجدة عسكريه بريطانية وسبقتها بعض الطائرات التى ألقت قنابلها على الثوار واستمرت النجدات تصل الى اسـيوط بواسطة البواخر النيليه وقد أحرقت بعض القرى المجاورة لاسيوط وامتد الحريق الى اسيوط نفسها ٠

العزيزيه والبدرشين :

انقض على هاتين القريتين النائمتين بعد منتصف الليل شرذمتان بريطانيتان مكونه كل منهما من أكثر من ٢٠٠ جـنـدى مدججين بالمدافع الرشاشه والقنابل اليدوية عدا المسدسات وطلبوا من العمدة في كل من القريتين ان يسلم ما فيها من أسلحه قبـل مضى ربع ساعة ، وهو مطلب عسير بل مطلب مستحيل ٠ فلما انقضى الزمن المحدد بدأوا في احراق القريتين في وقت واحد ، فخرج الاهالى من بيوتهم مذعورين للحرائق ومن ضرب الرصاص بغير وعى ولا حساب ، ولم يرحمهم الجنود يهجرون القريتين بل حاصروهما واخذوا في تفتيشهم ، وكان بعضهم يحمل معه أعز ما يملك « مال وحلى » فاستولوا عليها اغتصابا ، وحتى النساء فتشوهن بوقاحة سافرة وحاولوا الاعتداء على بعضهن ، فدافع عنهن أزواجهن الذين فقدوا حياتهم برصاص المسدسات دفاعا عن نسائهم وشرفهم ٠ فازدادت ثورة الاهالى وسخطهم وهاجموا الجنود بكل ما يملكون من عصى

ونبابيت وحجارة وقتلوا من هؤلاء الجنود المعتدين أكثر من عشرين جنديا عدا الجرحى ، ومات من الاهالى عشرات بل مئات ٠

امبابه والعياط :

أشعلت فيهما الحرائق وارتكبت جرائم القتل كذلك على أوسع نطاق ٠

نزله الشويك :

ارتكبت فيها فظائع زادت عما حل بالقرى الاربع التى ذكرتها آنفا ٠ فقد وصل اليها قطار مسلح يحمل قوة كبيرة من الجنـــود المدججين بالسلاح ، وبعد اقتحامهم لمنازل القريه طهرا ، سلبوا كل ما فيها من مال وحلى للنساء تم حاولوا الاعتداء على أعراض النساء فوقعت ملاحم دموية قتل فيها كثيرون من الرجال والنساء، ولكن مقاومة الاهالى الباسلة اسفرت عن مقتل خمسة عشر جنديا بريطانيا ، ثم أشعل المجرمون البريطانيون النار فى منازل القرية فاحترق منها ١٤٤ بيتا من ٢١٠ بيوت هى كل القرية الصغيرة ٠

هذا فيما يختص بالوجه القبلى ٠

ووقعت فى مديريات الوجه البحرى وقراه أمثــال هذه الجرائم والفظائع نخص بالذكر منها ما يأتى :

الشبانات :

« مركز الزقازيق » أحرقت وظلت النيران مشـتعلة فيها يومين كاملين حتى دمرت ثلاثة أرباع القرية ٠

صفط الملوك مركز ايتاى البارود بمديريه البحيرة :

أحرقت مع القرى القريبة منها واستمرت الحرائق فيها يوما كاملا ٠٠

ووقعت أمثال هذه الفظائع الوحشية فى بـــلاد عديدة أخص بالذكر منها رشيد وقليوب وفاقوس والواسطى وملوى والمنيا ٠

هنا سؤال بل أسئلة تقحم نفسها وتصرخ بطلب الجواب :

ـ ماذا كان من أثر هذه الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية فى الصورة المصرية ؟

ـ هل أخمدت الثورة أو أضعفتها أو عدلتها أو خففتها كما أمل المستعمرون ؟

ـ هل نشرت الارهاب والذعـــر بين المصريين وجعلتهم يؤثرون الاستكانة والسلامة ؟

ـ هل انتهت حركة الاضرابات وأعمال التخريب وقتل الانجليز حيثما وجدوا فى المدن والقرى ؟

ـ هل منعت أو قللت نشاط الفدائيين واشعال الحرائق هنـــا وهناك وفى مساكن الانجليز أنفسهم ؟

الجواب على ذلك كله بالنفى القاطع الحاسم ، فلم تتغير الثورة فى سيرها أو اتجاهها ؟ أو أهدافها أو قوة انطلاقها وعنفوانهـا ، بل ان الثورة قد زاد لهيبها واتسع نطاقها وكأنها كانت فى أشــد الحاجة الى تلك الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية لتزداد قوة وجـــرأة وثباتا وانتشارا وعـــزما واتساعا • وآية ذلك أن تخريب خطوط السكك الحديدية استمر ولم ينقطـــع ، واذا كان الانجليز قد أسرفوا فى اشعال الحرائق فى القرى وتقتيل الاهالى فان الثوار المصريين قد ثأروا لانفسهم باشعال الحرائق فى المحال التجارية الانجليزية فى المدن وفى العاصمة بصفة خاصة مثـــل محـــلات دافز براين ومخازن روبرت هيوز ، كما برعوا فى صنع القنابل اليدوية وقذفها على الجنـــود البريطانيين من النوافـــذ والاسطح ، وقتلهم نهارا وليلا بأساليب حـــيرت وأذهلت الانجليز كلهم من عسكريين ومدنيين •

والآن لابد لنا من وقفة ونظرة فاحصـــة لهذه الثـــورة بدل الاسترسال فى تكرار وصف بقية المآسى التى جرت كلها على وتيرة واحدة •

ظاهرتان بارزتان

ان هذه الثورة قد امتازت بظاهرتين بارزتين على جانب عظيم من الاهمية :

الظاهرة الاولى :

ان الشعب المصرى بجميع أفراده وطبقاته وهيئـاته قد قام بها واكتوى بنارها واشترك فيها بروح فدائية عجيبة • الطلبة والمثقفون والعمال والفلاحون والازهريون والموظفون وأصحاب المهن الحرة ، حتى النساء المحجبات خلعـــن البراقع ونزلن الى الشـــوارع فى مظاهرات عديدة وجرأة فريدة وتعرضن للحصار بالجنود البريطانيين المدججين بالسلاح فضلا عما لقينه من الاعنات والمتاعب القاسية •

الظاهرة الثانية :

لم يكون قيادة الثورة فرد معروف ، بل كانت هنـــاك قيادات

شعبية محلية متفرقة فى كل مـــدينة وفى كل حى وكل قرية . لم يتلقوا الاوامر والتوجيهات من أية جهـــة ، بل كانوا يجاهدون ويكافحون ويقودون بروح المنافسة والفداء وكان هناك جوائز تمنح لمن كان أعظم جرأة وأكبر فدائية وأخطر عملا .

ألم اقل انها ثورة شعبية كاملة شاملة هائلة لم تعرف مصر لها مثيلا فى تاريخها الطويل ؟

أليست هذه معجزة ثورية ؟ ان المصريين المعروفين بالمسالمـــة والوداعه قد أصبحوا محاربين صامدين وزهادا فدائيين يستخفون بالحياة والموت على السواء ، فما عادوا يرون للحياة قيمـه ولا للموت رهبة ، فاما الخـــلاص والكرامة والاســتقلال واما الموت والفناء .. والانسان لا يموت الا مرة ..

لقد أصبح جليا للعيان أن أمام الانجليز من عسكريين ومدنيين حلين للازمة لا ثالث لهما ولابد من اختيار أحدهما .

أما الاستمرار فى سياسة القمع والتنكيل والتعذيب والقتـــل والاحراق حتى يتمكنوا من ابادة الشعب المصرى كله وازالتـه من الوجود .

أو الافراج عن الزعيم وصحبه وتمكين الوفد كله من السفر الى مؤتمر الصلح فى باريس وعرض قضية البلاد القائمة على أساس الغاء الحماية والاعتراف بالاستقلال وانهـــاء الاحتلال بتحقيـق الجلاء ..

واختارت الحكومة البريطانية الحل الثانى بعد شهر واحد من قيام هذه الثورة المباركة العارمة ، ولكن كان لابد من تمهيد لهذا الحل حتى لا تبدو هزيمة الحكومة البريطانيـــة كالحة كاملة وحتى لاتبدو أنها بدلت سياستها ازاء مصررأسا على عقب فى لمح البصر.

فكيف كان هذا التمهيد ؟

التمهيد للافراج عن الزعيم وصحبه

فى ٨ مارس ١٩١٩ اعتقل الزعيم وصحبه كما ذكرت .

ـ فى ٢١ مارس ١٩١٩ عين اللنبى مندوبا ساميا فوق العادة فى مصر والسودان ، وأذيع فى لندن بيان رسمى جاء فيه « بسبب خطورة الحالة عين الجنرال اللنبى مندوبا ساميا فوق العادة فى مصر والسودان . ووكل اليه أن يقوم بالسلطة العليـــا فى جميع المسائل العسكرية والمدنية وأن يتخذ جميع الوســـائل التى يرى ضرورتها ومناسبتها حتى يعيد القانون والنظام فى هذه البـــلاد وحتى يدبر جميع الشئون اذا لزم الامر ناظرا الى ضرورة تأييـد حماية جلالة الملك على مصر على قاعدة ثابتة وعدالة » .

في ٢٥ مارس وصل اللنبي الى القاهرة ٠

في ٢٦ مارس أدلى بالتصريح الآتي على بعض أعيان القاهرة الذين دعاهم لسماعه : « لقد تعطف جلالة الملك(١) بتعييني نائبا عن جلالته في مصر ورغبتي وواجبي يقضيان على أن أساعد على اعادة السلام والامن والراحة الى البلاد ولى أغراض ثلاثة وهي :

١ ان أضع حدا ونهاية للاضطرابات الحالية ٠

٢ ـ أن أعمل تحريات دقيقة في جميع الاسباب التي حملت أهل البلاد على الشكاوى ٠

٣ ـ أن أزيل كل الشكاوى التي تستوجب العدالة ازالتها ٠٠

« وفي استطاعتكم أنتم أن تقودوا الشعب المصري والواجب يقضي عليكم أن تعملوا لمصلحة بلادكم ، ولست أظن أن أحدا منكم يحجم عن مساعدتي بكل ما في طاقته لادراك الاغراض التي أسعى اليها ٠ واني مستعد أن أعتمد عليكم لتبدأوا بالعمل فورا بقصد تهدئة الخواطر المتهيجة الآن ٠ وبعد اعادة الامن الى البلاد فان لى ملء الثقه بأنكم تعتمدون على بأن أنظر بلا محاباة في جميع أسباب الشكاوى وبأن أوصى باجراء كل ما يلزم لسعادة الشعب المصري وراحته » ٠

استمرت الثورة في رحلتها التالية عنيفة مطردة الخطى كما سبق وصفها رغم نداء الاعيان والكبراء بتهدئة الحالة ٠

في ٢٨ مارس : استدعى اللنبي رشدي باشا وأعضاء وزارته المستقيلة ليعرف أراءهم في أسباب الثورة « وكأنه يجهلها » ثم دعا لمقابلته أعضاء الوفد المصري الباقين في القاهرة وسألهم كذلك عن أسباب الاضطرابات والثورة ولم يتركهم يشرحونها له بل طلب منهم بعد دقيقة واحدة من مقابلته أن يسجلوها له كتابة في تقرير أو مذكرة ٠ ثم وقف ايذانا بانتهاء الاجتماع ٠ وفي اليوم التالي مباشرة أي في يوم ٢٩ مارس قدموا له مذكرة من ثلاث صفحات نسبوا فيها الثورة الى أسباب مباشرة وأسباب غيرة مباشرة ٠ أما الاسباب المباشرة فهي في نفي الزعيم وصحبه الى مالطة ومنعهم ظلما وعدوانا من السفر الى باريس ونسف قضية البلاد أمام مؤتمر الصلح ٠ وأما الاسباب الاخرى فتنحصر في سخط المصريين جميعا

---

(١) بلغ من صلف الانجليز وتعاليهم على البشر انهم اذا قالوا جلالة الملك » فمعناها عندهم » ملك بريطانيا العظمى » لا شريك له بلا حاجة الى تعيين أوتحديد، عكس ما تفعله الممالك الاخرى ٠

على نظام الانجليز وقسوتهم باعلان الحماية على مصر • واشتد استياء المصريين بصفة عامة لعدم معاملتهم بالمساواة مع الامم الاخرى حتى الصغيرة منها •

ثم قالوا فى ختام المذكرة :« ان المصريين قد نفد صبرهم ودفعهم اليأس من الانصاف الى اظهار ما فى نفوسهم ، كل يترجمه على شاكلته ، فالرجال المسئولون من رسميين وغير رسميين قد ترجموه بالاحتجاجات المختلفة وبالامتناع عن العمل كالمحامين والقضاة والمدرسين والشبان بالمظاهرات السلمية والبعض الآخر بالاعتداءات المختلفة ردا على فظائع الانجليز فى قمع المظاهرات • تلك هى حقيقة الوضع الذى فيه بلادنا الان بسطناها الى فخامتكم باختصار لهذا نرجو ان تأمروا بتحقيقها والرجاء معقود أن تفرجوا عن الزعيم وصحبه المنفيين وأن تزيلوا هذا الاستياء بالقضاء على أسبابه فان الاخذ بناصر أمة باسرها أقدس واجب على عظماء الرجال » •

خطبة كيرزون تخدم الثورة

لم يمض يوم واحد على هاتين المقابلتين اللتين قام بهما اللنبى مع رشدى ووزرائه السابقين ومع أعضاء الوفد الباقين حتى ثارت موجات من السخط الشديد بين جميع موظفى الحكومة ورجال الجيش المصرى ورجال البوليس ذلك لان الجرائد هنا فى مصر نشرت خلاصة الخطبة التى ألقاها وزير خارجية بريطانيا لورد كيرزون فى مجلس اللوردات يوم ٢٤ مارس ، وقد جاء فيها ثناء على هذه الفئات الثلاث ، الموظفين ورجال الجيش المصرى ورجال البوليس ، واشادة بسلوكهم فى أثناء الاضطرابات واستنتاج بأن عقلاء الامة المصرية لم يشتركوا فى الثورة ، ثم زعم بأن هذا كله برهان على صداقتهم للانجليز وعدم رضائهم عن الثائرين •

وانه لثناء من عدو مهين مثير للنفوس ، وانه لاستنتاج باطل سخيف بأن الاجماع غير منعقد على المطالبة بتحقيق المطالب الوطنية التى قامت من أجلها تلك الثورة الشعبية العارمة الكاملة الشاملة •

فماذا كانت النتيجة ؟

قرر الموظفون جميعا الاضراب العام ثلاثة أيام فى جميع الوزارات والادارات والمصالح التابعة لها احتجاجا على ما صدر من وزير خارجية بريطانيا من اتهام كاذب خطير لوطنيتهم وعدم اشتراكهم فى ثورتهم ، وكان الاتهام فى شكل ثناء كاذب واستنتاج باطل وعلى غير أساس من الصحة •

وبهذا صدر التكذيب فورا لمزاعم كيرزون من جميــع موظفى الحكومة المصرية باضرابهم الكامل الشامل وسنعود الى الحــديث فيما بعد عن هذا الاضراب الرائع الذى كان حاسما فى نجــاح الثورة التى ازدادت حدتها وشدتها وقوتها بهذا الاضراب ، والثورة فى مرحلتها الثالثة وقد بلغت الذروة بهذا التعاون الجديد من جانب جميع موظفى الحكومة المصرية فأصيبت الادارة الحكومية بشلل تام •

هذا وقد ورد فى الخطبة نقطتان أخريان تلفتان النظر ، ومغزاهما على أعظم جانب من الاهمية •

الاولى : ثناء على رشدى وعدلى وأسف لعدم تمكينهما من السفر لانجلترا مع أن وجودهما فى انجلترا يقابل بمنتهى الرضا والارتياح للخدمات التى قدماها لمصر وللامبراطورية البريطانيــة خلال الحرب ، ثم قال : « **اننا نرى دائما ان من أهم الامور أن نتفق معهما على تحديد الشكل الذى ستكون عليه الحماية البريطانية فى مستقبل الايام** » •

الثانية : سخط على الزعيم سعد زغلول وصحبه ، اذ قال :

« **ان الحال مع سعد زغلول باشا يختلف كل الاختلاف عنها مع هؤلاء لانه وأعوانه أعداء لبريطانيا وهم الذين دبروا هذه الاضطرابات وأنهم قوم غير مسئولين ، وغرضهم هو اخراج الانجليز من مصر وقد اختاروا وقت انعقاد مؤتمر الصلح فى باريس موعدا للقيام بهذه الحركة الثورية ، فلا سبيل للمناقشة معهم لان وجودهم هنا فى انجلترا كان يساء فهمه فى مصر ويتخذ دليلا على أننا راضون بالبحث معهم عن التخلى عن تبعاتنا نحو تلك البلاد تخليا تاما ، وكان فوق ذلك يهيىء الاسباب لعرقلة واحباط المباحثــات التى ننتظرها ولاتزال تنتظرها اذا ما حانت الفرصــة الملائمـة لوضع تسوية تكون مرضية لمصر وللدولة الحامية** » •

ما معنى هذه الخطبة فى الحقيقة وماذا تكشف عنه ؟ انها تكشف أمرين أو حقيقتين :

الاولى : ان الحكومة البريطانية تحب رشدى وعدلى وتثق فيهما وتريد المفاوضة معهما لتنظيم الحماية البريطانية وتحديد الشكل الذى ستكون عليه فى مستقبل الايام ، وهى تنتظر الفرصة الملائمة لذلك •

الثانية : أن الحكومة البريطانية تكره الزعيم سعد زغلول ولا

تطيقه ولن تتفاوض معه لانه يهدف الى اخراج الانجليز من مصر والغاء الحماية البريطانية وبريطانيا لا تريد ذلك ٠

فهل سيتحقق لهذه الحكومة الاستعمارية ما تريد ؟ هيهات هيهات !! وسنرى عما قريب ٠

اضراب جميع موظفى الحكومة

الاضراب العام من جميع موظفى الحكومة جدد النشاط فى المظاهرات فازداد ما فيها من دفع ثورى وماجت بها الشوارع والميادين كأول العهد بها وجدد الحيوية فى الاضرابات العامة الاخرى فازداد عددها واتسع نطاقها ودفع الدم الجديد فى عروق الفدائيين والثائرين فى كل مكان ، وبهذا كله عادت الثورة بمراحلها الثلاث تعمل متعاونة متفاعلة مترافعة شديدة الوهج والهياج ، وبعد أن كانت شعبية فقط أصبحت شعبية وحكومية معا ، وتجلى الكذب والبهتان فى مزاعم وزير خارجية بريطانيا الذى استثنى الموظفين وما سماهم بالعقلاء من الاشتراك فى الثورة بحماسة واجماع ٠

فى ٢ ابريل :

بدأ هذا الاضراب الفعلى الشامل لجميع موظفى الحكومة فخلت المصالح والدواوين من جميع الموظفين واتخذت القاهرة من ذلك اليوم مظهرا غير مألوف فقد أغلقت دور الحكومة وجميع المتاجر فى جميع الاحياء وحقق الاضراب فى أيامه الثلاثة الاولى كل الغرض الذى أريد منه وهو نفى مزاعمكيرزون عن الجمود الذى نسبه الى الموظفين ازاء الحركة الوطنية فهل عاد الموظفون الى وظائفهم بعد هذه الايام الثلاثة ؟ كلا ، لقد لمسوا فوائد الاضراب فى خدمة الثورة وخدمة قضية البلاد ، فقرروا اطالة الاضراب الى أجل غير مسمى تقوية للعوامل الفعالة فى خدمة قضية الوطن واعلنوا فى منشورات اذاعها زعماؤهم أنهم لن يعودوا الى وظائفهم الا اذا أجيبت مطالب الامة وهى الافراج عن الزعيم وصحبه المنفيين ورفع كل قيد عن سفرهم وسفر الوفد الى مؤتمر السلام ٠

وفى يقينى أن هذا الاضراب الشامل لجميع موظفى الحكومة قد بلغ بالثورة الى ذروتها ، وكان الحد الفاصل بين عقيدة الانجليز فى قدرتهم على سحق الثورة وبين يأسهم وخوفهم منها ما لم يذعنوا ويقرروا الافراج عن الزعيم وصحبه ٠

الفصل الثامن

قرار الإفراج عن الزعيم وصحبه

وفي ٧ ابريل سنة ١٩١٩ : أعلن الفيلد مارشال اللنبى قرارة بالافراج عن الزعيم سعد زغلول وصحبه واباحة السفر للمصريين.

وقد جاء في اعلانه هذا ما نصه :« بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان ، أعلن أنه لم يبق حجر على السفر وان جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد تكون لهم هذه الحرية ، وقد قررت علاوة على ذلك أن كلا من سعد زغلول واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر » .

الامضـــاء
نائب جلالة الملك الخاص
أ٠ هـ ٠ هـ ٠ اللنبى

النتائج الاولى لقرار الافراج

١ ـ مظاهر الفرح والتفاؤل :

فرحة شاملة كاملة عمت جميع المصريين فى جميع أنحاء البلاد ، عمت الريف والحضر والقرى والمدن ، وعادت الشوارع والميادين تموج بالمظاهرات الشعبية ، ولكن سبحان مغير الاحوال ، بعد أن كانت مظاهرات غضب وسخط وهياج واحتجاج وتقاتل بالحديد والنار أصبحت مظاهرات فرح وبشر وتفاؤل وابتهاج وتقابل بالغبطة والابتسام والازدهار . تدفقت المظاهرات رافعة الاعلام

وهاتفة بحياة الزعيم والاستقلال وسقوط الحماية والاحتلال ، وسارت عربات الترام وعربات النقل مزينة بالازهار وأغصان الاشجار ، وفتحت المقاهى والمحال التجارية وهى مزدانة بالرايات أو الازهار والرياحين • ابتسامات فى كل مكان ، ونشوة سرت فى جماهير الشعب وجميع المثقفين ما بعدها نشوة هى السعادة بعينها

لماذا كل هذا ؟ أهو اسراف فى المزاج المصرى ؟ أهى خفة فى النفس المصرية ؟ أهى هوية ؟ كلا •• بل شعور طبيعى سليم ، لقد عشت هذه الثورة فى مطلع شبابى واكتويت بنارها ، اشتركت فيها وانفعلت بها ، شقيت فيها وسعدت بها وعرفت روحها معرفة العليم الخبير فلاسجل مشاعرنا فى ذلك الوقت •

رأى مصر فى قرار الافراج

كان قرار الافراج قرارا بهزيمة الحكومة البريطانية فى الواقع وانتصارا للثورة المصرية بعد شهر واحد من قيامها أى بعد حرب مريرة بين الشعب المصرى الاعزل وقوات الاستعمار البريطانى المسلحة أكمل تسليح حرب سقط فيها آلاف من المصريين موتى وجرحى ومشوهين وأحرق بايدى الانجليز عدد كبير من القرى المصرية ووقع فى البلاد من أعمال التخريب ومختلف الخسائر ما يقدر بملايين الجنيهات وتعرض المصريون لشتى أنواع التعذيب والاعنات والآلام مما ليس الى وصفه من سبيل • والان يرفع الانجليز بهذا القرار الراية البيضاء بالتسليم ، يسلمون فيما كانوا يعارضونه ويمنعونه • سفر الزعيم والوفد الى مؤتمر الصلح عارضوه فى قوة وعزم وضراوة ، واليوم يوافقون عليه صاغرين، ومطالبة مصر بالغاء الحماية وملحقاتها منعوها فى قسوة وغطرسة وتعذيب وتقتيل بالحديد والنار ، واليوم لا يمنعون وتركوا المصريين يعرضونها حيث شاءوا •

والذين عارضوا ومانعوا أول الامر هم أنفسهم الذين عدلوا عن سياسة المنع والمعارضة •

فما معنى هذا الامر ؟

ان بريطانيا قد رفعت الراية البيضاء ايذانا بالتسليم ورجوعا عن المنع والمعارضة • اذا لم يكن هذا انتصارا باهرا فأى اسم نطلقه عليه ؟ لقد فعل الشعب المصرى بمظاهرات الفرح والابتهاج يوم انتصاره كما فعل الانجليز أنفسهم بمظاهرات الفرح والابتهاج



سعد زغلول زعيم الثورة فى جبل طارق يوم اعلن نبأ الافراج عنه

يوم الهدنة وخروجهم من الحرب منتصرين، هكذا تفعل كل الشعوب فى ساعات الانتصار ونشوتها ، فلا اسراف هناك ولا خفة ..

رأى الانجليز فى قرار الافراج

كان رأيهم بلا شك أن « لا بد مما ليس منه بد » فقد عجزوا عن سحق الثورة المصرية التى اصبحت بعد شهر واحد أكثر اتساعا وأشد مراسا وفى ازدياد مطرد ، وعجزوا عن تأليف وزارة مصرية تحكم البلاد أو يحكمون بواسطتها البلاد . فقد ظلت مصر أربعين يوما بغير وزارة وظل الانجليز وحدهم يحكمون حكما مباشرا بالحديد والنار فى الوقت الذى يجلسون فيه فى مؤتمر الصلح فى فرساى يقررون مبدأ حق تقرير المصير ويطبقونه على شعوب أقل ثقافة وحضارة وثروة وسكانا وتاريخا من الشعب المصرى . انها لفضيحة لهم ما بعدها فضيحة فاضطروا الى الافراج اضطرارا ، ولهم من وراء ذلك أربعة أهداف .

الهدف الاول :

التمكن من تأليف وزارة مصرية تحكم البلاد أو يحكمون البلاد بمساعدتها وباسلوب غير مباشر •

الهدف الثانى :

انقاذ سمعتهم فى المحافل الدولية لا سيما فى مؤتمر الصلح فى باريس •

الهدف الثالث :

تخفيض حدة الحقد والغيظ والحفيظة التى فاضت بهـا قلوب المصريين بسبب الجـرائم الدموية والفظائع الاسـتعمارية التى ارتكبوها فى البلاد •

الهدف الرابع :

تهيئة الجو السياسى للمحادثات والمسالمة ثم المفاوضات •

ولا شك أن هذه أهداف بريطانية تبرر الاقدام على قرار الافراج، على ما فيه من اعتراف بالهزيمة لبريطانيا •

ويا عجبا كل العجب ! لم يمض الا يوم واحد على قرار الافراج حتى تمكن الانجليز من تحقيق هدفهم الاول •• ففى ٩ ابريل ألفت وزارة مصرية مرة أخرى برياسة رشدى باشا •

سفر الوفد الى باريس

يوم ١١ ابريل سنة ١٩١٩ :

سافر أعضـاء الوفد المصرى من القاهرة الى بورسعيد بقطار الصباح وابحروا على الباخرة كاليدونيا فى طـريقهم الى مالطة وهم : عبد العزيز فهمى بك • أحمد لطفى السيد بك • محمد على علوبة بك • واصف غالى بك • حسين واصف باشا • سينوت حنا بك • على شعراوى باشا • عبد اللطيف المكباتى • مصطفى النحاس بك • جورج خياط بك • الدكتور حافظ عفيفى • الاستاذ ويصا واصف • محمود أبو النصر بك •

يوم ١٥ ابريل :

وصلت الباخرة الى مالطة فابحر عليها المنفيون وهم : الزعيم سعد زغلول باشا • اسماعيل صدقى باشا • محمد محمود باشا • حمد الباسل باشا •

وبهذا اجتمع شمل الوفد المصرى وكيل الامة •

يوم ١٨ ابريل :

وصل الوفد الى مرسيليا •

يوم ١٩ ابريل :

وصل الوفد الى باريس حيث لقى صدمة أليمة مذهلة اذ فى اليوم نفسه اعترف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر•

على أنه فى اليوم السابق لسفر الوفد الى باريس تألفت لجنة مركزية تنوب عن الوفد مدة غيابه عن مصر برياسة محمود باشا سليمان وسكرتيرها العام عبد الرحمن بك فهمى •

والآن أتناول بالبيان ما يلى :

١ ـ الحالة فى مصر • بعد تأليف وزارة رشدى •

٢ ـ الحالة فى باريس بعد وصول الوفد اليها وآثار الصدمة فى نفوس أعضائه •

٣ ـ الحالة فى بريطانيا ، ماذا جرى وماذا اتجه التدبير اليه فى سياسة الحكومة البريطانية !!

تطورات الحالة فى مصر بعد سفر الوفد الى باريس

بعد قرار الافراج بيوم واحد وبعد انقضاء أربعين يوما والبلاد بغير وزارة ، وفى الوقت الذى كانت فيه مصر تهتز وتموج بمظاهرات الفرح والابتهاج والتفاؤل وتنعم بنشوة الانتصار ، الف رشدى باشا وزارته الرابعة فى ٩ ابريل فى سرعة مفاجئة خاطفة ، ولم يذكر فى كتاب تأليف الوزارة كلمة واحدة عن الحماية أو الاستقلال أو أفراح البلاد أو سفر الزعماء الى باريس بعد المنع والمعارضة ، ولا كلمة واحدة عما ينتويه أو يرجو أن يعمله بوزارته

الجديدة وكل ما هنالك عبارة غامضة مبهمة وهى « **نظرا لما فى الظروف الحاضرة من مصاعب وأملا فى حل يرضى الامة أرى من واجبى القيام بالمهمة التى اقتضت ارادتكم السنية احالتهـــا على عهدتى ..** »

وتلقت الامة تأليف هذه الوزارة على هذه الصورة الغامضة المبهمة بشىء كثير من الريبة وسوء الظن ، وكان جميــــع موظفى الحكومة فى الوزارات والمصالح مضربين عن العمل منذ ٢ ابريل، وقد ألفوا من بينهم لجنة من اثنين وثلاثين عضــوا كهيئة تنفيــذية تجتمع وتقرر بالنيابة عن جميع الموظفين ، وكان أول ما عملته هذه اللجنة الاستمرار فى الاضراب حتى تجاب المطالب الآتية :

١ ــ أن تعترف الوزارة بصفة الوفد الرسمية .

٢ ــ أن تعلن الوزارة أن تشكيلها لا يعنى الاعتراف بالحماية .

٣ ــ الغاء الاحكام العرفية .

٤ ــ سحب الجنود البريطانيين المسلحين من الشــــوارع ومن المدن والقرى .

٥ ــ تفويض حفظ الامن والنظام الى رجال البوليس المصرى .

وفى يوم ١٢ ابريل اصدر رشدى باشا بيانا من رياسة مجلس الوزراء ناشد فيه الموظفين بالعودة الى أعمالهم وانهاء الاضراب وهذا نص البيان :

« **الآن وقد رخص للمصريين بالسفر وتألفت وزارة شــــعارها الاخلاص التام فى خدمة الوطن ومشاطره الامه شعورها ومقدرة لامانيها حق قدرها فان الحكومه تدعو الامه الى الهدوء والسكينة ، كما انها تدعو الموظفين وغيرهم ممن اضربوا عن العمل تأييــــدا للمطالب القومية الى العودة الى اعمالهم . وان الاصرار على الاضراب فى الحالة الحاضرة يؤدى الى ارتباك الاعمال وانتشار الفوضى ، فليتدبر المضربون عن العمل المسئوليه الهائله التى تقع عليهم بازاء بلادهم اذا ما أصروا على موقف يعرض البلاد الى مثل تلك الاخطار والحكومة على يقين بأن الكافة يدركون ان اهتمام عظمة السلطان بتأليف الوزارة كان أول باعث عليه وضع مقاليد الامور فى يد السلطة المدنية مقدمة لاناطة المحــــافظة على النظام والامن برجال السلطة المصرية والرجوع الى الحالة العادية** » .

ورأت لجنة الموظفين أن هذا البيان لا يحقق مطالبهـــا وقررت عقد مؤتمر عام ٠

وفى يوم ١٦ ابريل :

عقد مؤتمر وطنى عام فى الازهر برياســة المفتى وحضـــور جمع زاخر من الموظفين وممثلى جميع الهيئات وقـــرروا ضرورة الاضراب والتضـــامن مع الموظفين فى موقفهـــم من اســـتمرار الاضراب وعدم العودة الى العمـــل ٠ هـــذا وقد أعلن كثـيرون من التجار والعمال والمحامين وأصحاب المهن الحرة عزمهم على الاضراب كذلك ٠

استقالة الوزارة الرشدية

فى ٢١ ابريل :

استقالت وزارة رشدى باشا بعد أن شعرت بعجزها عن اقنـاع الموظفين بالعودة الى العمل وبعد أن رأت أن حركه الاضراب احدت تتسع وتتفاقم لا سيما بعد أن تضامن العمال مع الموظفين ٠

وكان من دواعى الاسف أن رشدى لم يسجل هذه الحقـــائق كتابة فى استقالته وانما علل الاستقالة بأسباب صحية ، ومع ذلك فان مجرد الاستقالة فى هذه الظروف كبيرة المعنى غزيرة المغزى ٠

معناها ان الرأى العام الثورى بلغ من القوة بحيث يجبر وزارة على الاستقالة على الرغم من أن الســـلطان يؤيدها والحكومة البريطانية تسندها وترحب بها ، ومغزاها أن الانجليز فقدوا هدفهم الاول من قرار الافراج باقامة وزارة مصرية تتعاون معهم فى حكم البلاد وتعمل على تهدئة الخواطر ٠

ولقد بلغ من غيظ الانجليز وكمدهم بسبب هذه الاســـتقالة أن نشرت جريدة المورننج بوست بأن الصراع القادم سيكون بين اللنبى وموظفى الحكومة المصرية وأن المعركة آتية لا ريب فيها اذ لا يطاق أن يترك الموظفون المصريون متزعمين للثورة يقيمـــون الوزارات ويسقطونها بتدخلهم فى السياسة وفى حكم البلاد ٠

ثم ختمت الجريدة مقالها بالتهديد الآتى : « اذا لم يعد الموظفون الى أعمالهم فورا ويقلعون عن الاضراب فان الواجب يقضى بفصلهم جميعا من وظائفهم ، وتولى الانجليز الحكم المباشر فى البلاد كما

هو الحال في المستعمرات وان الذنب فى ذلك سيكون على الموظفين لانهم لا يريدون الاشتراك فى ادارة الحكم فى بلادهم ولا يدركون ما عليهم من مسئوليات » •

أما المصريون عامة والموظفون خاصة فقد اغتبطوا بقوة اتحادهم وثمراته واعتبروا استقالة الوزارة الرشدية ترضية لهم ، فلامعنى لاستمرار الاضراب ولهذا قررت لجنة العشرة عودة جميع الموظفين الى العمل وهى اللجنة التنفيذية الممثلة للجنة الموظفين الكبرى فى هذا الشأن ، وصدر هذا القرار يوم ٢١ من ابريل ، **وفى اليوم التالى أى فى صبيحة يوم ٢٢ ابريل** أذاع اللنبى بلاغا رسميا أنذر فيه الموظفين بالعودة فورا الى أعمالهم ووظائفهم والا شطبت أسماؤهم من سجلات موظفى الحكومة •

ومن الطريف أن أغلب الموظفين كانوا فى مكاتبهم فى اليوم نفسه استجابة لقرار لجنة العشرة • •

وفى ٢٥ ابريل اجتمعت لجنة الموظفين بكامل أعضائها وأقرت قرار ممثلى اللجنة معلنة أن عودة الموظفين قد بنيت على استقالة الوزارة لا على تهديد اللنبى •

وتجلى غيظ المصريين وكمدهم مرة أخرى فى سلوك الرؤساء الانجليز اذ أخذوا يهينون الموظفين بعد عودتهم الى العمل مما أثار الحفيظة والحقد عليهم أضعافا مضاعفة •

هذا وقد ظلت البلاد بغير وزارة مصرية ثلاثين يوما ثم فوجئت يوم ٢١ مايو ١٩١٩ بتأليف وزارة برياسة محمد سعيد باشا ، فقوبلت بمظاهرات شعبية عدائية وسخط عام ووقعت اعتداءات متكررة على بعض الجنود البريطانيين وفى خلال هذه الثلاثين يوما كان اللنبى يحكم بأمره يفعل ما يشاء كما يشاء فأصدر قانون الميزانية بقرار منه بصفته القائد العام للقوات البريطانية فى مصر وخول وكلاء الوزارات سلطة الوزراء فى بعض الشئون والاختصاصات وكان هؤلاء الوكلاء أربعة من المصريين وأربعة من الانجليز هم روسن وكيل المالية ولانجلى وكيل الزراعة وتوتنهام وكيل الاشغال وموريس وكيل الداخلية •

كل هذا والثورة مستمرة فى رحلتها الثالثة بغير هوادة من جانب الثائرين المصريين وجانب المستعمرين البريطانيين •

اعتراف ولسون بالحماية

في نفس اليوم الذى وصل فيه الزعيم والوفد الى باريس ، أعلن الرئيس ولسون اعترافه بالحماية البريطانية على مصر وهو توافق مدبر وتوقيت عجيب وتآمر مدروس منظم من جانب الاستعمار البريطانى قصد به من غير شك أن يكون صدمة عنيفة أليمه مريرة للثورة فى مصر وللوفد فى باريس • ولا أنكر أن الضربة كانت نافذة موجعة ، أثارت اليأس والكمد فى بعض النفوس وأثارت النخوة والغضب والعزيمة فى البعض الآخر ، ولقد سبق أن أبديت فى الفصل الرابع كيف كانت مبادىء ولسون وخطبه من أكبر الحوافز للثورة فتفتحت بها أبواب الامل فى النجاح ، واليوم يتنكر ولسون لمبادئه ويثبت للعالم أنه رسول سلام مزيف وأنه وقع فريسة للمستعمرين حين جلس معهم فى مؤتمر الصلح وأنه أصبح ديلا لمستر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية ورئيس وفدها فى مؤتمر الصلح والسلام ، فأثبت أنه رجل ضعيف منخوب الفؤاد •

وأخذ الناس فى مصر يتساءلون فى دهشة وألم ومرارة عن سر هذا الاعتراف وأهدافه وبواعثه ، كيف يعترف ولسون بحماية فرضت على مصر قهرا وقسرا من دولة تعهدت أكثر من ستين مرة بالجلاء ، وكيف يبرر اعترافه بغير حياء أو رعاية لمبدئه المقرر لحق الشعوب فى تقرير مصيرها ؟ ولماذا أسرع الى الاعتراف فى يوم وصول الوفد الى أبواب مؤتمر الصلح ليطالب بالاستقلال؟

وعشرات أخرى من أمثال هذه الاسئلة والاجابة عنها كلها واحدة وهى مؤامرة استعمارية بريطانية استغلت ضعفه لادخال اليأس فى قلوب المصريين عامة والوفد خاصة وافهامهم جميعا واقناعهم بخيبة المسعى فى معارضة السياسة البريطانية ونفوذها فى كل مكان •

فهل نجحت هذه السياسة الاستعمارية ؟ كلا ! لقد كانت مبادىء ولسون مصدر اثارة دائمة لمصر وكان تنكره لها واعترافه بالحماية صدمة مؤقتة وخيبة طارئة للامل ثم زال أثرها زوالا تاما •

وتطلع المصريون جميعا الى باريس ليعرفوا مسلك الوفد وماذا هو صانع •

كتب سعد فى مذكراته العبارة البليغة الآتية : « **لقد تعمد الانجليز أن يصدموا الوفد باعتراف ولسون بالحماية يوم وصولنا**

أملا فى أن تتزعزع ثقتنا فى انفسنا وفى النجاح • وما كان تبريرهم فى الافراج عنا ثم استقبالنا فى باريس بهذه الصدمة الا كتدبير السجان الذى يطلق أسيره ثم يرصـــد له على ابواب السجن من يدهمه ويغتاله ليحيق به الكيد فى ساعة الفرح والاستبشار بالخلاص والامل فى المستقبل » •

والخلاصة كانت الصدمة قاسية مريرة فى الوفد كـــله وانقسم أعضاء الوفد فى مدى الشعور بهـــا ومبلغ الالم منها فقد يئس بعضهم يأسا تاما من جدوى البقاء فى باريس والسعى للاستقلال ، واثروا العودة الى مصر طلبا للسلامة « فى الحقيقة » وتظاهروا بأن العمل فى مصر أجدى وأنفع ، ومن هؤلاء اسماعيل صدقى باشا ومحمود أبو النصر بك وحسين واصف باشا •

وعادوا فعلا الى مصر وقرر الوفـــد اعتبارهم منفصـــلين من عضويته •

ورأى بعض الاعضاء ضرورة الاقتصار على الاتصال بالحكومة البريطانية ذلك لانهم فى قرارة نفوسهم يـــمنون باستحالة التغلب عليها فى مثل هذه الظروف ولا سيما أن مؤتمر الصلح فى قبضة يدها وأن ولسون ذيل للويد جورج •

ومنهم من رأى أن المنافسة الدولية من شأنها أن تحمل الحكومة البريطانية على الاصغاء لطالبنا •

وأما الزعيم نفسه فقد رأى ضرورة البقـــاء فى باريس ذلك لان الرجاء ليس معقودا على الحكومات وحدها بل على الشعوب من وراء هذه الحكومات وأن الطريق الى الشعوب مفتوح لمن يحسن السير فيه ويقوى على صعابه واذا كان الرجاء فى مؤتمر الصلح فى باريس قد زال فان وراء المؤتمر شعوبا حية ومترابطة فلايجوز اليأس من التأثير فى الشعب الامريكى مثلا والشعب الفرنسى والشعب الانجليزى نفسه ، والدول كالافراد تحرص على حسن السمعة ولا تقوى على تحدى الفضائح التى تنسب اليها والمظالم التى تصدر منها •

قال الزعيم لاعضاء الوفد (كما علمت فيما بعد) :

« اذا عاد الى مصر بعض أعضاء الوفد فقد وقع الخلاف وبدا الانحلال وهو ما يرجوه الانجليز ، واذا عاد الوفد كله الى مصر

فقد ملكته الحكومة البريطانيه ورجعت به الى قبضة يدها ، هذا فضلا عن أن الوفد يصبح عرضه للسخريه نهائيا من ابناء وطنه لاسيما بعد تلك القيامه التى اقامتها الامه ليتمكن الوفد من السفر، فالعودة الى مصر تحدث خيبة أمل اليمه لا تحمد عقباها،ولا تقدر آثارها القريبه والبعيدة فتياس الامـــه من رجالها وتتشكك فى رجالها ، لهذا أرى ضرورة البقاء فى باريس لانه اولى وانفع على كل حال ، وهذا لا يمنع من تركيز العمل فى مصر والاعتماد عليه فى الدعاية فى أوربا ولاشك أن الدعايه فى أوربا تزيد فى تنبيـــه عزيمه الامه كلما احتاجت الى تنبيه ، وهكذا يحدث تفاعل ناجح مفيد بين الوفد فى أوربا والثورة فى مصر » •

وكانت النتيجة أن مرت الازمة بسلام ، وانتهت الصدمة وكأنها لم تكن • ووافق الوفد على البقاء فى باريس لاستمرار الجهاد فى لخدمة قضية البلاد •

وكان عمله الاساسى نشر الحقائق عن مصر وتفنيد الاباطيل التى تذاع فما ترك مقالة تنشر عن مصر فى جريدة انجليزية أو فرنسية محترمة الا صححها بالرد عليها ، ولاتصريحا رســـميا لوزير بريطانى الا رد عليه وأفحمه ، ولا قرارا يصدر ضد مصر الا احتج عليه وأظهر فساده •

دعاية بالحق تنويرا للاذهان واثارة للضمائر وكسبا للاصدقاء والانصار ونشر أخبار الجرائم الدموية والفظائع الاستعمارية التى ترتكب فى مصر نشرا لفضائح الانجليز وحكومتهم وأملا فى التأثير فى الرأى العام البريطانى وفى تحريك ضمائر بعض الاحرار من أعضاء البرلـــان البريطانى حتى يقدموا على توجيـــه الاسئلة المحرجة لحكومتهم الاستعمارية الباغية الضارية •

هذا الى مقابلات واتصالات شخصية يقوم بها الزعيم وأعضاء الوفد بالرجال الرسميين والصحفيين وكبار الكتـــاب فى باريس ولندن • وما كان اختيارى للعمل مع الزعيم والوفد فى باريس الا ملاحظا فيه قدرتى على الاسهام والمعاونة فى هذه العمليات المنوعة التى تقتضيها الدعاية باللغة الانجليزية على أوسع نطاق •

احتجاج الوفد على مؤتمر الصلح

في ١٢ مايو ١٩١٩ : أرسل الزعيم سعد زغلول احتجاج المؤتمر الى كليمنصو رئيس مؤتمر الصلح وهذا نصه :

« جناب مسيو جورج كليمنصو رئيس مؤتمر السلام بباريس •

« لم يشأ مؤتمر الدول المتحالفة المشتركه أن يطبق على مصر مبادىء الحق والعدل مع انها جديرة بأن تعامل بمقتضى هذه المبادىء نظرا لما قامت به من المساعدات التى أدت الى النصر ـ لم يشأ أن يسمع صوت مصر مع انها كانت فى مقدمة الدول التى أعلنت أنها فى حالة حرب مع أعداء دول الاتفاق • وقدمت أعظم الضحايا فى سبيل قضية الحلفاء ، لم يشأ أن يسمعها مع انها بلاد غيرت الحرب مركزها السياسى • وقد اعترف المؤتمر بالحماية البريطانية بدون أقل مراعاة لرأى الامة المصرية وبغير أن يعير أدنى التفات لقيام هذه الامة بأجمعها فى وجه هذه الحماية واظهار معارضتها لها بأجلى المعانى •

« ان العقل ليأبى اسناد هذا القرار الى المبادىء التى من أجلها خاضت الولايات المتحدة غمار الحرب والتى قررها الرئيس ولسون بعد ذلك لتكون أساسا للهدنه ثم للصلح ولا الى المبادىء التى أعلنت بريطانيا نفسها على تحكيم التقاليد السياسية التى كان معمولا بها قبل الحرب ، لانه كيف يستطيع العقل البشرى أن يفسر نيل الحجاز استقلالها وهى ولاية صغيرة وعدد سكانها لا يذكر ومواردها ضئيلة ولم تتحمل شيئا من أعباء الحرب ، ومصر التى قامت بنصيب وافر منها وعانت ما عانته فى سبيل الفوز النهائى يكون نصيبها الرفض البات اذا طلبت أن يسمع صوتها ، ثم يعقب هذا الرفض ضياع حقوقها المقدسة التى كتبتها بدماء أبنائها فى ميادين القتال •

« لا يمكن التسليم بأن مصر التى اشتركت من أوائل القرن الماضى فى اقامة صروح المدنية وساعدت تركيا فى انتصارها الذى أدى الى استتباب النظام فى الحجاز بل وفى اليونان كذلك والتى قهرت تركيا نفسها فى ميدان الحرب ، يكون حظها أن تعامل بأقل مما عوملت به شعوب أفريقيا الوسطى وقد أصبحوا اليوم محلا لرعاية ما كانوا ليحلموا به • ليس فى العالم قاض نزيه يستطيع الاهتداء الى سبب واحد مقبول للموقف الذى اتخذه المؤتمر ازاء القضيه المصريه أو اتخذته بريطانيا العظمى نفسها وهى التى

اشهدت العالم أكثر من ستين مرة على أنها لا تفكر مطلقا فى ضم مصر أو فى اعلان الحماية عليها كرها وانما هى ترمى فى سياستها الى استقلال هذه البلاد ٠

« ونهاية القول أن العقل لا يمكن أن يرتاح لقرار المؤتمر كيفما قلبه ومهما كانت العلة التى تتخذ أساسا لتبريره حتى اذا سلم بأنه حق القوى على الضعيف ، لان حق القوة معنــاه الحرب والفتح ولاشك أن مصر لم تكن فى حالة حرب مع بريطانيا بل كانت بجانبها، ولم تفتح بريطانيا مصر بل ان الامر على العكس من ذلك ، فان مصر هى التى ساعدت بريطانيا على فتح ما فتحته من بلاد العدو ٠

« نعم ان بعض الصـحف قد أيدت تلك النظـرية القائلة بأن الشعوب الشرقيه لا يمكن معاملتها بما تعامل به الشعوب الغربية وان المبادىء التى أعلنت فى هذا الشأن قد نشأت عن وعـود لم تحسب عواقبها ، فهل يريدون التمسك بمثل هذه النظرية ليهدموا فى زمن السلم تلك المبادىء السامية التى أقامت الحـرب بناءها وليسحبوا بعد نيل الصلح تلك الوعود التى وعدوا بها من اشترك معهم فى تشييد صرحها ، اذا كان الامر كذلك فكيف يمكن أن يفسروا طريقة عدم تطبيق هذه النظرية فى جميع الاحوال بلا استثناء فاننا نرى بعض الأمم الشرقية التى آمنت بما صدر لها من الوعود قد تحققت آمالها فعلا ٠

« لم يبق الا فرض واحد لا بد من التسليم به وهو أن الشعب المصرى قد اعتبر سلعة من السلع التى يتجر فيها وهذا التصرف هو ما ينقده الدكتور ولسون نفسه بشده فى خطاباته التى كان يبطلم فيها عن حق القـوة وعن وجوب انقضاء عصرها لانه تصرف جائر لا يتفق وروح العصر الحاضر ٠ انه ليشق علينا أن نفكر أن المؤتمر قد عاملنا هذه المعاملة ، غير أننا لسوء الحظ مضطرون لتقرير الواقع ٠ ومهما يكن من بواعث الاحترام الواجب لهذه المحكمـة العليا فانه لا يسعنا الا اثبات الواقع كما هو ، لان من الاوقات والظروف ما يكون فيه خطر على الانسان اذا هو لم يضع كل شىء فى سبيل تقرير الحقيقه ٠٠

« ولقد كان للشعوب المهضومة الحق أن تجد فيها معنى من ذلك المثل الحكيم الذى وضعه الفيلسوف روسو وهو « أن القوى مهما بلغت قوته لا يأمن أن تكون له الغلبه على الدوام » ما يساعدها على التذرع بالصبر ، أما الآن وقد اثبت الرييس ولسون بأجلى بيان

أن من الامور الممقوتة التي تنفر منها الطباع أن تسود أمة على أمة ، فقد بلغ كره السيادة في نفوس الامم المظلومة انها أضحت تفضل الفناء على البقاء في قيود الذل ٠

« ولاشك أنه ما كان لتلك المبادىء الجديدة الا أن تصادف في مصر وسطا مستعدا لقبولها ، لان مصر بلد من سلالة كريمه المحتد نشيطه المزاج اذا تولد فيها الامل آثار غضبها على الذين يناوئونها في استقلالها، ان الامة المصرية لا تقبل أبدا ان تكون السلعة القديمة التي تتداولها أيدى الاقوياء ٠ ولا شك أنها اليوم بعد التصريحات التي فاه بها الرسول الجديد في عالم السياسة الذى تشف كلماته عن أسمى معاني الادب وأرقاها ٠٠ أبعد منها في أى زمن مضى عن الرضى بمثل هذا المصير فان مجرد خوفها من عدم تطبيق مبادىء ولسون على قضيتها قد دفعها الى تعريض صدور أبنائها وهم عزل من السلاح لنيران الرصاص القتالة ٠ ومن غريب الاتفاق أن تكون تلك الساعه هى التي تجتمع فيها عشرون دولة لتقرير موافقتها على الحمايه البريطانية أن مثل هذا الحل المحزن لن يكون من ورائه الا القاء بذور اليأس وعوامل الغضب في قلب الشعب المصرى ٠ وقد قال الرئيس ولسون « ان الصلح لا يمكن أن يكون صلحا وطيد الاركان الا اذا اندثر به كل أثر من آثار الحقد في قلوب الشعوب سواء أكانوا أقوياء أو ضعفاء ، وكان العدل موزعا عليهم بدرجة واحدة بغير أقل تمييز بين قويهم وضعيفهم ٠٠ » ٠

« فهل وقع الاختيار على الشعب المصرى ليكون ضحية تقدم فدية لحين اتفاق الدول العظمى ، اذا صح ذلك فكيف يمكن التسليم بأن نكون نحن الضحية ونحن أمة ذات تاريخ وماض مجيدين ، وماالذى كان يصيبنا لو كنا انضممنا الى أعداء الحلفاء عوضا عن أن نشاطرهم متاعب القتال ؟

« ان الواجب المفروض علينا بصفتنا نوابا عن الشعب المصرى يقضى علينا أن نسمع المؤتمر صوت ذلك الشعب السيىء الحظ الذى حرم دون غيره من التمتع بالعدل الذى عمت ظلاله جميع أقطار المعمورة ، وقد بات يرى نفسه انه انما كان يعمل للاضرار بمصالحه باشتراكه في العمل مع الحلفاء ٠ نعم ان صوته يرتفع عاليا بالاحتجاج لانه وحده الذى حرم من نعمة الصلح ومزاياه مع انه كان عاملا أمينا في الحرب ولكن الامة التي لها أماني خاصة تضعها فوق كل احترام والتي تشعر بشخصيتها وتعرف حقوقها

لن تمكن الغير من أن يتصرف فى أمرها ولها دون غيرها خاصة الحق فى البت فى مصيرها » •

عن الوفد المصرى
رئيس الوفد سعد زغلول

وطبع من هذا الاحتجاج حوالى ٢٠٠٠ نسخة وزعت على الجرائد الكبرى فى باريس ولندن ونيويورك وواشنجتون وعلى رؤساء الوزارات من دول أوربا ورؤساء البرلمانات فى بريطانيا وفرنسا وأمريكا ، وأرسل الزعيم مع نسخة الاحتجاج خطابا خاصا مؤثرا الى كل من رئيس مجلس العموم البريطانى ورئيس مجلس الشيوخ الامريكى • كما أرسلت عشر نسخ الى رئيس اللجنة المركزية الوفدية فى القاهرة لترجمته ونشره فى الجرائد ان امكن أو توزيعه على الشعب سرا كمنشورات ••

قرار عظيم
لمجلس الشيوخ الامريكى

فى شهر أغسطس ١٩١٩ قررت لجنة الشئون الخارجية لمجلس الشيوخ الامريكى بعد دراستها ومداولاتها فى معاهدة الصلح :

« ان مصر من الوجهة السياسية ليست تابعة لتركيا ولالبريطانيا العظمى ويجب أن تكون صاحبة الحق فى تقرير مصيرها » •

ووافق مجلس الشيوخ الامريكى على تقرير لجنة الشئون الخارجية الذى سجل هذا القرار •

وانتهت مناقشة المجلس فى معاهدة الصلح الى تقرير عدم الموافقة عليها فى مارس ١٩٢٠ ، فكان هذا المصير أكبر صدمة لولسون وللحكومة البريطانية وللحكومة الفرنسية • وكان قرار اللجنة المباركة أكبر فرحة للزعيم سعد زغلول والوفد والشعب المصرى •

وهكذا انعكست الآية : صدمنا أولا وصدموا أخيرا • وفرحوا أولا وفرحنا أخيرا •• ومن ضحك أخيرا ضحك اطول كما يقول المثل الانجليزى •

وما الله بغافل عما يفعل الظالمون •

الحالة فى بريطانيا

٢ ـ بعد اعتراف ولسون بالحماية ثم اعتراف معاهدة الصلح بها •

٢ ـ تأثر الثورة المصرية بها •

عاملان قويان أثرا فى الحكومة البريطانية تأثيرا بليغا بعيد المدى فيما أرى ، ولأبدأ بثانيهما قبل الاول لانه موجـز ومجرد تسجيل لحقيقة ولا يحتاج الى تحليل وتعليل أو تعقيب وتعليق ، بينما العامل الاول قد خلق مشاكل وسلسلة متصلة الحلقات من الاقوال والاعمال والنتائج التى تتابعت فى سياق طبيعى ومنطقى، وما أريد لحلقات السلسلة أن تنفصل فتهتز الصورة وينقطع البيان ••

لاشك فى أن اعتراف الرئيس ولسون بالحماية البريطانية على مصر قد أثلج صدر الحكومة البريطانيـة ذلك لان مساعيها قد تكللت بالنجاح فى الضغط عليه وانتزاع ذلك الاعتراف منه ، ولان هذا الاعتراف نفسه قد قوى يديها وشدد من عزيمتها على المضى فى سياستها الاستعمارية فى مصر والتمسك بالحماية التى فرضتها قسرا وقهرا وغيلة وغدرا وعلى الرغم من سابق عهودها ووعودها بالجلاء وعدم فرض الحماية ، وعلى الرغم من الثـورة المصرية الشعبية المحرقة ، وعلى الرغم من كل الاحتجاجات التى صدرت من رجال مصر ونسائها بشتى الاشـكال والصور وفى مختلف الظروف والمناسبات •

وأما العامل الاول والاهم فهو الثورة المصرية الشعبية الصارمة بطبيعتها وبواعثها وأهدافهـا فقد هزت الحكومة البريطانية هزا وصدمتها فصحتها وأيقظتها من حلم الطمأنينـة الـذى نعمت به طويلا بل على الدوام ازاء مصر الوديعة المسالمة الهادئة ، أزعجها بصفة خاصة ما امتازت به هذه الثورة من طابع المفاجأة والعنف والتقتيل والتخريب على أوسع نطاق ، وما تجلى فيها من مشاعر الكره والمقت والحقد على الانجليز وحكمهم وحمـايتهم وما برز فيها من مظاهر النقمة والسخط ، وأخيرا وماذلك بأقل أهمية من كل ما سبق الروح الفدائية التى تجلت فى المصريين فى اشـكال البذل والتضحية بغير رهبة أو تحفظ أو حساب للعواقب الوخيمة ••

كانت مصر فى ظنها بل فى عقيدتها ملك يديهـا فأصبحت مصر شعلة نار لا تنطفىء تكوى يديها وتشوى جلدها وتشوه وجهها • فما العمل الآن بعد أن عملت كل شىء لاطفائهـا فلم تنطفىء ؟ لقد جربت أقوى ما عندها من سلاح ووسائل الفتك والتعذيب والتدمير واستخدمت أقسى ما فى نفسها من روح الشر والانتقام فما أجدها ذلك نفعا حتى الان، ثم جربت الافراج عن الزعيم وصحبه والسماح

للمصريين بالسفر الى الخارج أملا منهـا فى تأليف وزارة مصرية وانهاء الثورة أو تخفيف حدتها على الاقل فباءت بالفشل وخيبـة الامل مرة أخرى ، وهكذا لم تنفعها المخاشنة ولا المحاسنة ، فماذا تفعل الآن ؟

من تقاليد الانجليز المحببة الى الحكومة البريطانية انها فى كل مشكلة معقدة تواجهها وفى كل أزمة جسيمة تقابلهـــا لا تحلها بنفسها مباشرة خشية أن يكون الحل خطأ يجر الى عواقب وخيمة، ولذلك فهى تلجأ الى لجان التحقيق « تؤلفها » من خيرة رجالها فتتولى كل لجنة عملية البحث والدرس والتحقيق فى الموضوع الذى انتدبت له وتقليب الامور على مختلف وجوهها ، ثم تبدأ عمليـة الموازنة بين مختلف الاقتراحات للاهتداء الى أحسن حـــل ممكن بعد تقدير العواقب قبل وقوعها المباشرة منها وغــير المباشرة ، وبعد طول التأمل والتـدبر والاهتداء الى أحسن حـــل تتقدم به اللجنة الى الحكومة البريطانية ، والحكومة بعد ذلك حرة فى أن تقبله كله أو بعضه أو تدخل عليه ما تراه من التعديلات ، فالرأى الاخير للحكومة البريطانية على كل حال •

ولاشك أن مزايا هذا التقليد ظاهـــرة الفوائد فهى على الاقل تعفى الحكومة منسرعة الحل وتحميها منالوقوع فى الخطأ وتريحها من المشكلة الى حين حتى تفرغ اللجنة من وضع تقـريرها الكامل الشامل المفيد على كل حال •

وهذا بالضبط ما فعلته الحكومة البريطانية فى مشكلة مصر ، فقد ألفت لجنة ملنر من خيرة رجالها الفنيين العارفين أتم معرفة بمصر قديما وحديثا كما سنرى فيما بعد •

هذان العاملان أو هاتان الحقيقتان قد ظهرتا فى بيان بريطانى رسمى على لسان وزير خارجية بريطانيا •

ففى يوم ١٥ مايو ١٩١٩ ألقى لورد كيرزون خطبـة فى مجلس اللوردات كشف فيها عن التفكير البريطانى وما تنتويه الحكومة البريطانية فى القريب العاجل • وفيما يلى أهم ما جاء فى خطبته •

بعــد أن أشار الى قرار الافــراج عن الزعيم وصـــحبه وسفر المصريين الى الخارج قال « قد أفضت هذه المنحة الى تأليف وزارة رشدى باشا وكانت مهمتها الكبرى حمل الموظفين على العودة الى العمل ، ولكنها أخفقت فاستقالت فى ٢١ ابريل ، ومنذ ذلك التاريخ فان الحكم فى مصر يجرى بغير معاونة الوزراء المصريين » •

ثم تحدث عن اغتباطه واغتباط الحكـــومة البريطانية باعتراف الرئيس ولسون بالحمـــاية البريطانيه على مصر وما ســـبقه من اعتراف فرنسا وروسيا بها على أثر اعلانهـــا سنة ١٩١٤ ، وما تضمنته معاهدة الصـــلح المعروضـــة على ألمانيا وحلفائهـــا من الاعتراف بها .

ثم قال ومع ذلك لايمضي زمن يسير حتى تنال الحماية البريطانية الاعتراف العام من جميع الدول ، وزعم أن المصريين لم يجنوا أية فائدة من ثورتهم ، وأشار الى فداحة الاضرار التى أصابت السكك الحديدية وخطوط المواصلات والمصانع والآلات والامـــلاك العامة والى أن الخسارة فى ذلك كله واقعة على مصر وأهلها .

ثم تحدى وتبجح فقال : اذا كان الغرض من هـذه الثورة وما صحبها من الخسائر الفادحة والارواح والممتلكات هو انهاء العلاقة بين بريطانيا ومصر وتحقيق استقلال مصر ، فقد باءت هذه الثورة بالفشل لان الحكومة البريطانيـــة لا تنوى مطلقـــا أن تتخلى عن الالتزامات والتبعات التى تحملتها عندما وضعت مهمة حكم مصر على عاتقها ، وان هذه الالتزامات والتبعات قد تأيدت الآن باعلان الحماية على مصر .

ثم نزل من عليائه وأظهر العطف المزيف على ما سماه « الامانى المصريه المشروعة فى دائرة الحماية » ثم اعترف قائلا انه لا ينكر ان كرامة المصريين قد جرحت لعدم تمثيل مصر فى مؤتمر الصلح مع تمثيل الهند والحجاز فيه ، وأن منع الوفد من الســـفر الى أوربا للدفاع عن قضية مصر كان من أكبر أسباب الثورة والاضطرابات التى وقعت .

ثم قال أخيرا أن الحكومة البريطانية تعتزم كعلاج لهذه الحالة أن توفد لجنة كبرى برياسة لورد ملنر الى مصر لتحقيق أسباب الاضطراب وبحث الحالة الحاضرة واقتراح القانون النظامى الذى يعود على البلاد بالخير والسلام واليسر والنجاح والتقدم فى سبيل الحكم الذاتى وحماية المصالح الاجنبية فى ظل الحماية البريطانية، ثم أعرب فى ختام خطبته عن ثقته فى أن نتيجة ايفاد هذه اللجنـة ستكون ازالة سوء التفاهم وتثبيت الحماية البريطانية على مصر على قواعد توجب الرضى للدولة الحامية وللمصريين على السواء » .

نرى أثر العاملين اللذين تحدثت عنهما فى نسيج هذه الخطبة ولكن الرواية لم تتم فصولها ..

تأليف لجنة ملنر

في ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ ألفت الحكومة البريطانية « اللجنة الخصوصية المنتدبة لمصر » على الوجه الآتي :

١ ـ فيكونت ملنر ـ وزير المستعمرات رئيسا ، وكان مستشارا ماليا للحكومة المصرية في السنوات الاولى من الاحتلال .

٢ ـ سير رنل رود ـ من كبار رجال وزارة الخارجية وكان سفيرا لبريطانيا في ايطاليا وكان ممن عملوا مع لورد كرومر ممثل بريطانيا في مصر .

٣ ـ سير سيسل هرست ـ المستشار القانوني لوزارة الخارجية البريطانية .

٤ ـ الجنرال سيرجون مكسويل ـ كان قائد القوات العسكرية البريطانية في مصر عند اعلان الحماية .

٥ ـ الجنرال سيراوين توماس ـ العضو بمجلس العموم .

٦ ـ مستر سبندر ـ رئيس تحرير جريدة وستمنستر جازيت الناطقة باسم حزب الاحرار .

٧ ـ مستر لويد سكرتيرا للجنة .

٨ ـ سير انجرام مساعد السكرتير للجنة والسكرتير الخاص لرئيس اللجنة .

وتضمن تفويض اللجنة الذي أذيع يوم ٢٢ سبتمبر ١٩١٩ بيان مهمتها وجاء فيه ما يلي :

« تحقيق أسباب الاضطرابات التي حدثت أخيرا في القطر المصري وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة في تلك البلاد وعن شكل القانون النظامي الذي يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء بها ولتوسيع نطاق الحكم الذاتي فيها توسيعا دائم التقدم والترقي ولحماية المصالح الاجنبية » .

الرئيس يطلب سكرتيرا من مصر

ـ أرسل الرئيس خطابا الى عبد الرحمن فهمي سكرتير اللجنة المركزية في القاهرة جاء فيه :

نحن فى حاجة ماسة الى سكرتير يعرف الانجليزية معرفة جيدة لدرجة أن يكون قادرا على التحرير بها والترجمة منهـــا واليها • ويقوم كذلك بعملية المراسلة • فنرجو اختيار الكفء لذلك وليسافر الى باريس فى أقرب وقت ممكن •

ـ وقع اختيار عبدالرحمن فهمى على • وكتبالى الرئيس خطابا أخبره فيه باسمى ووظيفتى ودرجتى العلميـــة •• وبأنى (كفء وحائز لجميع الصفات التى ترضيكم)

ـ لم أسافر : لان عبد الرحمن فهمى علق سفرى على موافقة الرئيس تلغرافيا على هذا الاختيار •

ـ بعد أسبوعين أرسل الرئيس اليه خطابا ثانيا جاء فيه :

« ان الامر محتاج أشد الاحتياج الى سكرتير يجيد الانجليزية والعربية وعلمت أنكم وفقتم لوجود من توافرت فيه هذه الصفات• وفهمت أنكم على وشك ارساله فماذا جـــرى ؟• وقد أرسلت الى محمود باشا سليمان تلغرافيا غير مرة بسرعة ارساله » •

عندئذ كلفت بالسفر فورا الى باريس• واعترف لى عبد الرحمن فهمى أنه أخطأ فى تأجيل سفرى •

ـ وفى ٢٧ نوفمبر • وصلت الى باريس • وذهبت فورا لمقابلة الرئيس فى مسكنه ٣٩ شارع الشـــانزليزيه • وكان الجـو شديد البرودة • وحجرته شديدة الحرارة بالتدفئـــة • وقد بدت عليـــه شيخوخة متقدمة وهزال شديد من اصابته بالانفلوانزا شـهرا كاملا فاهتزت نفسى الى أعماقها من فرط التأثر ورأى بعينـــه النافذة وقلبه الحنون أن يخفف ما بى بحسن اللقاء والترحيب الكريم وقد سجلت ما جرى فى هذا اللقاء فى مقال لى نشرته مجلة الثقافة •

ـ أرسل الرئيس خطابا الى عبد الرحمن فهمى فى ٨ ديســمبر ١٩١٩ جاء فى مطلعه « حضر الســـكرتير ونشكركم كثيرا على حسن اختياركم » •• وجاء فيه « الجرائد الانجليزية أخـــذت من بضعة أسابيع تنشر الفصول الطوال عن الحوادث الجارية فى مصر وقد أعددنا أخيرا كتابا مفتوحا الى اللورد كيرزون ضـــد ما فاه به فى مجلس اللوردات متعلقـــا بمصر ومستقبلها • كما أعددنا احتجاجا آخر عليه بهذا المعنى •

الفصل التاسع

وصول لجنة ملنر

وصلت لجنة ملنر الى مصر فى صباح الاحـــد ٧ من ديسمبر سنة ١٩١٩ واتخذت السلطات العسكرية البريطانيـــة كل أنواع الاحتياطات للمحافظة على سلامة أعضائها وحمـــايتهم من روح العداء المتحفز والخطر البالغ المتدفق فى نفوس هذه اللجنة ورئيسها التى اتخذت لها فندق سميراميس مقرا ومستقرا ..

وزار أعضاء اللجنة فى اليوم التالى وبرفقتهم اللنبى، السلطان فؤاد وسمعوا منه بعض التوصيات فيما يختص ببعض كبار المصريين الذين يمكن الاعتماد على اصالة رأيهم مثل رشدى باشـا وعدلى باشا ومحمد سـعيد باشا ورئيس الوزارة الحاضرة يوسف وهبه باشا الذى يمكنهم الاعتماد على معاونته كل الاعتماد .

ولم يكد يذاع نبأ وصول اللجنة الى القـــاهرة حتى عم هياج النفوس وتوافرت الادلة لدى بعض أعضاء اللجنـــة ورئيسهم على تصميم المصريين على مقاطعتهم مقاطعة تامة ، وانهالت على ملنر البرقيات من جميع المدن والقرى معلنة الاستنكار لقدوم لجنته الى القاهرة، وعزم مرسليها على الاضراب احتجاجا وسخطا واشتركت جميع مجالس المديريات وكثيرون من موظفى الحكومة والنقابات والعمال والعلماء وكتبت الجرائد المصرية رغم الرقابة الشديدة على الصحف معلنة أن كل مصرى تكون له اية علاقة بأعضائها يرتكب خيانة للوطن . واتفقت كلمة الجرائد كلها على أن الرئيس ســعد زغلول باشا المقيم فى باريس هو الوكيل الذى أنابه الشعب المصرى عنه ، فالاولى باللجنة مفاوضته فى الامر .

وعم الاضراب جميع المدارس والمحاكم حتى عمـال الترام ..

وكان فريق من الشعب يخرج فى مواكب صاخبة ويطوف الشوارع بالهتاف والدعاء لسعد باشا والوفد والاستقلال التام لمصر ، ولم تقتصر هذه المظاهرات على الشباب والرجال بل شاركتهم فيهـا سيدات القاهرة فبرزن من خبائهن وركبن المركبات وطفن الشوارع وهن يرددن الهتاف بحياة الوفد وسـقوط لجنة ملنر . وخروج السيدات فى مثل هذه المواكب أمر غير مألوف فى مصر التى يسود فيها الحجاب وعدم الاختلاط بين الجنسين. وهكذا كان لهذه الثورة القومية أعظم الفضل وأبلغ الاثر فى تحـرير المرأة المصرية فى سرعة عجيبة .

انقضى على هذه الحال أسبوع فأسبوعان ، ثم وقعت مصادمات دموية بين الشعب وبعض الجنود البريطانيين الذين أطلقوا النار على المتظاهرين وقتل من هؤلاء الجنود خمسة فى يوم واحد ، كما حدثت محاولتان لاغتيال رئيس الوزراء وأحد الوزراء .

ومما هو جدير بالذكر أن علماء الجامع الازهر الشريف وضعوا منشورا كان له دوى كبير فى البلاد وأرسـلوه الى ملنر ، بينوا فيه حق مصر فى طلب الاستقلال وفى طلب الغاء الحماية ، وألحوا فى عبارات قوية على ضرورة الجلاء وخروج الانجليز من البلاد ، وقد زعمت الجرائد الانجليزية أن علماء الازهر اضطروا الى سلوك هذا المسلك تحت ضغط طلبه الازهر وطلبة المدارس العليا وهذا غير صحيح . ثم تلا هذا المنشور ، منشور آخر أشد وقعا وأبعد أثرا وكان له أجمل الوقع فى نفوس المصريين وأسوأ الوقائع فى نفوس البريطانيين . ذلك هو منشور الامراء فقد وقع عليه ستة منهم(١) وقد تعرضوا فى ذلك الى غضب السلطان والانجليز معـا . وقد زعمت جرائد لندن كذلك أن السبب الحقيقى فى مسلك هؤلاء الامراء هو رغبتهم فى كسب حب الشعب المصرى لهم بانحيازهم الى الحركة الوطنية والثورة القومية التى عمت البلاد كالسيل الجارف ..

وقد أقام المصريون عـددا منهم لمراقبة تنقلات أعضاء لجنـة ملنر ومحاولاتهم الاتصال بوجهاء المصريين للوقوف منهـم على قيمة الطلب المتواصل للاستقلال التام والطعن الدائم فى الحماية ..

---

(١) كمال الدين حسين . عمر طوسون . يوسف كمال . اسماعيل داود . محمد على ابراهيم ومنصور داود .

هكذا فسرت جريدة التيمس الغرض الكامن وراء هـــذه المراقبة ، وأخيرا شعرت اللجنة بأنها تحت مراقبة حراس خفيين من المعارضين، فلم يحضر مصرى واحد ذو شأن لزيارتها فى فندق سميراميس بل ان جماعات من الطلبة كلفوا بالسهر على تحركات ملنر وأعضاء لجنته فما سافر واحد منهم الى أى مكان خارج القاهرة الا كان اثنان من الطلبة يصاحبانه كظله ، شعر بذلك أو لم يشعر ..

ومع ذلك استطاع عدلى ورشدى وثروت أن يقابلوا فى منازلهم ملنر وبعض أعضاء لجنته ، ولكن المعروف والمفهوم أن هؤلاء الثلاثة أصدقاء لسعد باشا وللوفد ، وانهم كانوا يحـــاولون حمل ملنر وزملائه الى مفاوضة الوفد فى باريس واقنـــاعهم بأنه من العبث تضييعهم لاوقاتهم فى مصر بدون عمل جدى مفيد ..

انقضى الاسبوع الثالث على ملنر ولجنتـــه فى مصر ، وهم يحاولون تحطيم هذه المقاطعة الشاملة دون جدوى والخـروج من هذا الحصار المضروب حولهم ، فأقدم ملنر على محـــاولة أخرى لعل فيها الخير له وذلك بافهام الشعب أن من يزور اللجنة ، فزيارته لا تؤثر فى مكانته ولا تلقى ظلالا على وطنيته .

فما هى هذه المحاولة ؟

تصريح لجنة ملنر

نشرت الجريدة الرسمية وجميع الجرائد المصرية فى ٢٩ ديسمبر التصريح الاتى :

« جاءت اللجنـــة البريطانيه الى مصر فأدهشـــها ما راته من الاعتقاد الشائع بين الجمهور بأن الغرض من مجيئها هو سلب شيء من الحقوق التى كانت لمصر الى اليوم ، فاللجنه تعلن فساد هذا الاعتقاد وانه لا نصيب له من الصحه البتة ، وانها انما أوفدتهـــا الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطانى لغرض واحـــد هو التوفيق بين أمانى الامة المصرية وبين ما لبريطانيـــا العظمى من المصالح الخاصه فى مصر مع المحافظة على الحقوق المشروعه التى لجميع الاجانب القاطنين فيها ، وأن اللجنة لعلى يقين من انه اذا توافر حسن النية وصـــدق الاخلاص . بين الجـــانبين يصبح من الميسور تحقيق هذه الغاية وانها لترغب رغبة أكيدة فى أن تكون الصلات بين بريطانيا العظمى ومصر أساسها اتفاق ودى يستأصل

كل سبب للتنافر فيتمكن المصريون من أن يفرغوا جهدهم فى ترقية شئون بلادهم فى ظل انظمه حكم ذاتى(١) •

وللوصول الى هذه الغاية تود اللجنة أن تقف على آراء الهيئة المشخصه للامه المصريه واراء الاشخاص الذين يهتمـــون اهتماما صادقا بخير بلادهم وتمكين كل فرد من ابداء رأيه بغاية الصراحة ونهايه الحرية • اذ ليس من غرض اللجنة تقييد الاراء أو المناقشة بقيد ما او حصرها فى دائرة معينه ، وهى تعلن أن الدخـــول فى المناقشه لا يعنى اعترافا بمبدأ أو تنازلا عن رأى من قبل اللجنـة أو من قبل المنافس لها ، وان حرية المناقشة شرط أســاسى للنجاح وبغيرها يتعذر رفع سوء التفاهم والوصول الى الاتفاق » •

ملنر

رد اللجنة المركزية للوفد

ونشرت لجنة الوفد المركزيه بالقاهرة فى اليوم التالى أى فى ٣٠ ديسمبر الرد التالى :

« كانت لجنه الوفد تود أن يكون بلاغ لورد ملنر صريحا واضحا وأن يتضمن الاعتراف باستقلال مصر التـــام ، لكنه اقتصر على توسيع دائرة المناقشة فبعد ان كانت المفاوضة التى تطلبها اللجنة محصوره فى دائرة الحمايه اباح البلاغ المفاوضه فى غير دائرة محدده • نعم أن توسيع دائرة المناقشه يدل على اقتناع الانجليز بأن المصريين يرفضون الحمايه رفضا باتا ، ولكن لا ينفى مخاوف المصريين من التصريحات السياسيه الانجليزيه التى تقدمت مجيء اللجنه ، وليس من شأنه بحال من الاحوال أن يحمـل الامه على العدول عن خطتها ، وفضلا عن ذلك فان الاساليب السياسية لاتسمح بمفاوضة بين لجنة وأمة بأسرها •

« واذا كان الغرض الوقوف على مطالب المصريين فان هـــذه المطالب اصبحت معروفه معرفه تامة فى جميع أنحاء العالم ، وهى

---

(١) فى الترجمة الرسمية للبلاغ « تحت انظمة دستورية والمعنى يختلف بعض الاختلاف •

نحصر فى شىء واحد هو الاستقلال التـــام • وأما التوفيق بين استقلالنا وبين ما لغيرنا من المصالح فالمناقشة فيه تكون مع الوفد المصرى متى كان الاساس عدم المساس بحقوقنا المقدسة •

« فلتحى مصر ، وليحى الاستقلال التام » •

التمهيد للمفاوضات

فى مساء هذا اليوم نفسه « ٣٠ ديسمبر » تسلم الزعيم سعد زغلول برقية من عدلى يكن باشا يرجوه فيهـــا ألا يبت فى قرار بشأن تصريح لجنة ملنر حتى يصله خطاب منـــه ، ولم يكن لدى الزعيم ولا أى عضو فى الوفد علم وقت ورود هذه البرقية الهامة بما نشر فى مصر من جانب لجنـــة ملنر أو من جانب لجنة الوفد المركزية ، فاجتمع الوفد وأخذ كل عضو يدلى بتخمينه فى هـذا الموضوع ، فكان الجو يسوده الانتعاش والتفاؤل •

وردت ظهر اليوم التالى « ٣١ ديسمبر » برقية مسهبة مطولة من لجنة الوفد المركزية الى الزعيم سعد زغلول تحتوى على نص التصريح الرسمى للجنة ملنر وردها عليه ، فزال الغموض وزاد تطلع الوفد ورئيسه الى الخطاب الموعود من عـــدلى الذى سارع ببرقيته فى منع الوفد من اتخاذ قراره الحاسم ولكن بعض الاسئلة تقحم نفسها هنا وتصرخ بطلب الجواب :

١ ــ لماذا اهتم عدلى دون سواه بارسال مثـــل هذه البرقية الى الوفد ؟

٢ ــ ما هو السر فى مسارعته هـــذه بارسال البرقية ورجاء الوفد بعدم اتخاذ أى قرار بشأن بلاغ أو تصريح لجنة ملنر حتى يتسلم الوفد خطابا منه ؟

٣ ــ هل عدلى غير راض عن رد لجنـــة الوفد المركزية على تصريح لجنة ملنر ؟

٤ ــ ما سبب عدم رضـــاه حتى رأى من الصواب ألا يتورط الرئيس والوفد بتأييد ذلك الرد ؟

٥ ــ وأخيرا هل يريد عدلى أن يكون قنطرة بين الوفد ولجنة ملنر ، أى يكون همزة الوصل بينهما ؟

أسئلة تمر بالخاطر وليس لى عليها أى جواب الآن .. فالى أن يصل الخطاب المنشود المعلوم أسجل هنـــا أهم ما نشرته كبرى جرائد لندن مثل التيمس والمورننج بوســت والوستمنستر جازيت والديلى تلغراف عن نشاط لجنة ملنر فى مصر وعن الحالة العامة فى مصر .

زعمت كل جرائد لندن أن تصريح لجنة ملنر قد خفف من نفور المصريين منها ولطف من عداوتهم للجنة ومقاطعتهم لها وأن بعض كبار المصريين قد أخذوا يتصلون بها وأخذت اللجنة تتصل بهم، وان أعضاء اللجنة متفرقين قد بدأوا اتصالاتهم بممثلى جميع الطبقات والهيئات المصرية لمعرفة أرائهم ومشاعرهم .

ان السلطات البريطانية فى مصر قد وضعت تحت تصرف اللجنة مجموعه هائلة من البيانات والمعلومات عن الشئون المصرية وأراء كبار الموظفين والاعيان فى المسائل السياسية مما ســاعد اللجنة على تكوين فكرة صحيحة فى مصر فى الوقت الحاضر وما يجب أن يعمل لها فى المستقبل .

اطلعت اللجنة على أراء الغرف التجارية الفرنسـية والايطالية واليونانية والبريطانية وكبار النزلاء الاجانب والوزراء السابقين والحاليين .

ان اللجنة استفادت كثيرا من أراء عدلى باشا ورشدى باشا وثروت باشا .

ونشرت جريدة التيمس مقالا افتتاحيا كله ثناء وتقـدير لهؤلاء المصريين الثلاثة ووصفتهم بالنضج والحصافة وســلامة القصد وبعد النظر وحســن الاستعداد للتفاهم والاتفـــاق ، كما وصفت اقتراحاتهم بأنها عملية ومعقولة وجديرة بكل اعتبار ..

ان على ماهر بك الذى فصل من قبل من منصبه الحكومى وقرر الوفد ضمه الى عضويته فى شهر نوفمبر الماضى سيسافر قريبا الى باريس ، ومعه بعض الوثائق الهامة التى ستكون موضع دراسة خاصة من زغلول باشا والوفد » .

وصول على ماهر الى باريس

وصل على ماهر بك الى باريس يوم ١٤ يناير سنة ١٩٢٠ ومعه خطابان الاول من لجنة الوفد المركزية وصفت فيه الحالة العامة

فى البلاد وشرحت رأيها بالتفصيل فى تصريح لجنة ملنر ، وبالتالى الاصدقاء الثلاثة عدلى وثروت ورشدى وبرفقة خطابهم تقرير شامل عن المحادثات التى دارت بين كل منهم وملنر ، وقد ألح هؤلاء الاصدقاء الثلاثة على الوفد فى أن يعود فورا الى مصر للمفاوضة مع لجنة ملنر معتبرين أن بلاغها قد فتح الباب على مصراعيه للدخول فيها وأن الفرصة سانحة جدا لهذا الدخول ، وأن ملنر يرحب كل الترحيب بعودة الوفد كله أو بعض أعضائه • وقد أبرز عدلى فى بيان رأيه « ان هذه العودة ضرورية ان لم تكن للمفاوضة مباشرة فلمبادلة الاراء فى مقدماتها وشروطها » •

وبعد أن درس الوفد تفصيلات المحادثات والادلة التى أوردوها على استحسان عودته ، قرر بالاجماع رفض هذه العودة وعدم الاخذ برأيهم فيها ، ذلك لان تصريح لجنة ملنر لا يختلف عن غيره من البلاغات والبيانات الرسمية السابقة له والمحددة لمهمة لجنة ملنر اللهم الا فى الشكل فقط • أما من حيث الموضوع فانه مثلها تماما فى اعتبار لجنة ملنر لجنة تحقيق وموقف المصريين منها موقف المسئول أما المسائل والغاية التى تهدف اليها من تحقيقها هذا فهو وضع نظام لحكومة مصر فى دائرة الحماية البريطانية •

وأرسل الرئيس سعد زغلول يوم ١٥ يناير ، برقية الى عدلى باشا أوضح فيها بعد بيان ما تقدم عدم امكان عودة الوفد الى مصر لهذه الغاية ولكنه يقبل أن يعود اذا أعلنت لجنة ملنر أنها مأذونة من قبل حكومتها لان تتفاوض باسمها مع الوفد المصرى بصفته وكيلا ممثلا للامة المصرية للوصول الى عقد اتفاق بين مصر وبريطانيا يوفق بين استقلال مصر ومصالح هذه الدولة ، ثم شفع هذه البرقية بخطاب تضمن فوق ذلك أن عودة الوفد كله أو بعضه بناء على هذا التصريح يعد خفة فى نظر العقلاء ويسوء وقعه لدى الشعب المصرى الذى قاطع لجنة ملنر عملا بنصيحة الوفد ومادام أن الغاية من المفاوضات التى ترغب فيها هذه اللجنة الوصول الى وضع نظام حكومى فى دائرة الحكم الذاتى وتحت الحماية فلايمكن للوفد الدخول فيها لان غاية ما تعطيه أقل كثيرا مما يطلبه الوفد وتطمع الامة فيه •

كان يجب أن تنتهى المراسلات عند هذا الحد ذلك لان فى الموقف ثلاث حقائق تسيطر عليه :

الحقيقة الاولى : ان مهمة لجنة ملنر معينة محددة بنص التفويض الذى صحب انشاءها وهو « تحقيق أسباب الاضطرابات التى حدثت أخيرا فى مصر وتقديم تقرير عن الحالة الحاضرة فى تلك البلاد • وعن شكل القانون النظامى الذى يعد تحت الحماية خير دستور لترقية أسباب السلام واليسر والرخاء فيها ، ولتوسيع نطاق الحكم الذاتى فيها توسيعا دائم التقدم والترقى ولحماية المصالح الاجنبية » •

الحقيقة الثانية : ان مهمة الوفد معينة محددة وهى السعى لالغاء هذه الحماية وتحقيق الاستقلال التام ، والوفد هو الهيئة الوحيدة الممثلة للشعب المصرى أكمل تمثيل بحكم الاستفتاء العام الذى حققته التوكيلات الشعبية التى حصل عليها •

الحقيقة الثالثة : هى أنه ليس فى استطاعة لجنة ملنر أن تخرج من دائرة التفويض الذى عين مهمتها وحدد لها العمل فى دائرة الحماية ، وليس فى استطاعة الوفد أن يخرج من دائرة التوكيلات المكتوبة والاهداف المعلنة مرارا وهى تحطيم هذه الحماية وازالتها وتحقيق الاستقلال التام •

فالموقف واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار ولا سبيل الى مفاوضة بين طرفين لا يهدفان الى غرض واحد ، بل يهدفان الى غرضين مختلفين متناقضين لا سبيل الى التوفيق بينهما • ولكن عدلى لم ييأس ولم يسكت وبعض أعضاء الوفد مع ذلك متفائلون حيث يجب التشاؤم ••

الخطاب الثانى من عدلى الى سعد

تسلم الرئيس سعد زغلول يوم ٢٨ من يناير ١٩٢٠ خطابا مطولا من عدلى يكن باشا وقد جاء فيه : « ان امتناع ملنر عن التصريح بأن تكون المفاوضه على أساس الاستقلال انما يرجع الى أن الاستقلال فى نظر لورد ملنر انما يكون نتيجة للمفاوضات لا اساسا لها تبنى عليه !! » كانت هذه العبارة موضعا للتندر والفكاهة والسخرية على لسان الرئيس وبعض الاعضاء وقال ساخرا :

« لماذا يفضل ملنر أن يكون الاستقلال نتيجة ولا يقبله اساسا وما الفرق بين الحالين ؟ » •

وما لفت النظر كذلك أن عدلى فى خطابه هذا قد عاد مرة أخرى الى القول بأنه وزميليه رشدى وثروت مازالوا مصرين على الرأى الذى سبق أن بينوه فى خطابهم الاول ، وكرر أن تصريح لجنة ملنر لم يضيق دائرة المناقشات ولم يحدد الغاية منها ، وذكر « ان الوفد فهم خطأ أن اللجنة تهدف الى وضع نظام حكومى فى حدود الحكم الذاتى » وأن هذا لو كان صحيحا لكانت أحاديثهم مع ملنر مبنية على غير أساس سليم ، ولما جاز نقلها الى الرئيس والوفد ، وختم عدلى خطابه بأن الذى أكده ملنر لهم أثنـــاء المناقشة معهم فى هذا الموضوع أن العبارة الانجليزية Self Governing Institutions ليس معناها الحكم الذاتى وانما معناها الحكومة الدستورية •

كان الرئيس يقرأ هذا الخطاب فى جلسة الوفـد بصوت عال وكنت حاضرا فتطوعت قائلا أن هـــذا غير صحيح لان الحكومة الدستورية يقابلها فى الانجليزية Cosstitutional Government وتفضل محمد محمود باشا فأيدنى فيما قلت فابتسم الزعيم وقال : **« ما علينا الآن وانما يهم أن نحدد موقفنا ونعرف ما يجب علينا عمله ازاء هذا الخطاب »** •

وهنا دارت مناقشة استمرت نصف ساعة واشترك فيهـا أكثر الاعضاء وأسفرت عن أمرين :

الامر الاول : ضرورة استمرار الاتصال بعدلى عن طريق البريد والبرق عسى أن تسفر وساطته عن خير للبـلاد لاسيما وانه على ما يظهر قد وطد صلات طيبة بملنر ورجال لجنته •

الامر الثانى : ضرورة الســـعى للتخلص من الوزارة المصرية الحالية التى يرأسها يوسف وهبه باشـــا وتمهيد الطريق لاقامة حكومه دستورية ، ورئى أن أفضل سبيل للوصول الى هذه الغاية هو أن تعين وزارة جديدة يكون فى برنامجها المفاوضة للحصول على اتفاق يضمن التوفيق بين استقلال مصر والمصالح البريطانية ثم وضع نظام لانتخاب هيئة نيابية تعرض عليها نتيجة المفاوضات للنظر فيها والتصديق عليها ••

استقر رأى الوفد على هذين الامرين ، وما كان ذلك ممكنا أو ميسورا لولا ما كان للرئيس سعد وزملائه من حسن الظن بعدلى

لاسيما بعد خروجه مع رشدى وثروت الى العمل بعد اعتزالهم اياه زمانا طويلا • هذا من جهة ومن جهة أخرى اشتدت الكراهية لوزارة هذا العهد ونفور الامة منها وسخطها عليها •

خطاب وبرقية من الوفد الى عدلى

أرسل الوفد يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٠ ، خطابا مسهبا الى عدلى شرح فيه تغيير الوزارة الحاضرة واقامة وزارة تمهد لحياة برلمانية ، وحرص الوفد على أن ينص فى هذا الخطاب على أن أحدا من أعضاء الوفد لا يتدخل فى هذه الوزارة وأن الوفد قد يرى أصوبية العودة الى مصر اذا تم تأليف الوزارة الجديدة على النحو المقترح • واذا كانت أهدافها فى الحكم كما وصفنا حينذاك تكون لعوده الوفد معنى مساعدة الوزارة على القيام بمهمتها لدى الامه والسعى فى أن ينتخب أعضاؤه فى الهيئة النيابية ، هذا وقد وردت فى هذا الخطاب العبارة الآتية :

« اذا كان لورد ملنر لا يريد كما أكدتم فى خطابكم المؤرخ يوم ٢٨ يناير ان يكون الاستقلال أساسا للمفاوضات لانه يراه نتيجة لها لا اساسا يبنى عليه فقد رأينا ضرورة النص فى برنامج الوزارة الجديدة على هدف الاستقلال ، وهذا بطبيعة الحال لا يربط أحدا غيرها ، ومن الخير أن يرتبط به الوزراء حتى يجعلوه أول قصدهم واكبر همهم » •

هنا علت وجهى ابتسامة ودهشة لانى وجدت الفكرة آية فى الغرابة أولا لانها لن تكون لها أية قيمة عملية سوى ذر الرماد فى عيون المصريين، وثانيا لان لجنة ملنر لن تقيم لها أى وزن لتعارضها مع التفويض الذى قامت على أساسه •

هذا وقد أفضيت برأيى للرئيس بعد انصراف الاعضاء فقال **« هذا صحيح ، ولكن ما حيلتى ، ان الاعضاء متهافتون على فتح أبواب الامل فى وجه ملنر ، أما أنا فلا أرى فى ملنر أى خير ينتظر منه ، وانى أعرف أنه استعمارى قح » ثم استطرد الرئيس قائلا : « ليس الغبى بسيد فى قومه ، لكن سيد قومه المتغابى » •**

وأرسل الرئيس فى المساء برقية الى عدلى جاء فيها « ان الوفد مازال متمسكا برأيه فى موضوع عدم العودة الى مصر• انتظر خطابى»

الخطاب الثالث من عدلي الى سعد

تسلم الرئيس سعد زغلول يوم ٢٥ من فبراير سنة ١٩٢٠ ، خطابا ثالثا من عدلى ذكر فيه أن ملنر يقترح تشكيل لجنةمصرية للمفاوضة معه تكون مكونة من ثمانية « رئيس الوفد ومعه اثنان من أعضاء الوفد ورشدى باشا وعدلى باشا ومحمد سعيد باشا واثنان من الوزراء الحاليين » وأن يكون برنامج هذه اللجنة « المفاوضة » للتوفيق بين أمانى المصريين والمصالح البريطانية » • وقد حرص عدلى أن يبين فى خطابه أنه عارض ملنر فى تأليف هذه اللجنة على هذه الصورة ، وأنه حبذ رأى الوفد فى تأليف وزارة جديدة للعمل على تحقيق الامانى الوطنية وتثق بها الامة ، واعتبر ذلك الوسيلة القانونية الوحيدة للوصول الى الغاية المنشودة ، وكان عدلى لبقا حين نص فى خطابه على أنه لا يرى أن تستأثر الوزارة الجديدة بالمفاوضة وحدها ، وبوضع النظام الدستورى للبلاد ، وأنه يرى أن يكون هذا كله باشتراك الوفد معها ، وأن طريقة العمل فى ذلك أن تعلن الوزارة حين تشكيلها أن برنامجها هو السعى الى اتفاق يوفق بين استقلال مصر والمصالح البريطانية والاجنبية ووضع مشروع نظام دستورى للبلاد ، ثم نعهد بالمفاوضة الى هيئة تضم بعضا من أعضاء الوزارة وبعضا من أعضاء الوفد ثم تنتخب جمعية وطنية بأوسع طرق الانتخاب لبحث نتيجة المفاوضاتومشروع الدستور ، وأنه من المستحسن أن يدخل فى الوزارة أعضاء الوفد قبل البدء فى الانتخابات لهذه الجمعية الوطنية •

هذا وقد جاء فى ختام الخطاب فقرة على أعظم جانب من الاهمية اذ قال : **« ان هناك طريقة أخرى لحل المسائل الحاضرة وهى ان يسافر الى باريس ويجتمع بالوفد ويتحدث معه شخصيا وبطريقة غير رسمية ، حتى اذا ما أدت هذه المحادثات الى وضع اسس المفاوضات مع الانجليز بدأت هذه المفاوضات فى غير ضياع كثير من الوقت »** •

وختم عدلى خطابه اللبق بالجملة الآتية : **« رأيت أن أسألكم رأيكم فى هذه الطريقة ، فاذا كنتم ترون فائدة من وجودى معكم فى باريس اتخذت ما يلزم من التدابير لذلك »** •

عودة لجنة ملنر الى انجلترا

قضت لجنة ملنر فى مصر حوالى ثلاثة اشـــهر وهى تدرس بوسائلها الخاصة الهزيلة أحوال البلاد عامة واسـباب الثـورة خاصة ، ولولا الحياء او العناد لاعترفت بانها فشلت فى مهمتها فشلا ذريعا ، ذلك لان المقاطعة الشعبيه معها كانت شامله رائعه ، واستحال على ملنر التعاون الجدى الا مع عدلى ورشدى وثروت ، ولا سيما مع عدلى الذى كان معروفا من الشعب انه على اتصـــال وثيق بالوفد فى باريس • وصديقا للزعيم سعد ولكثير من أعضاء الوفد •

وغادرت اللجنة مصر فى الاسبوع الاول من مارس ، عائدة الى انجلترا بخفى حنين ، أما ملنر فقد سافر من القاهرة الى القدس فى صبيحة يوم ٦ مارس ١٩٢٠ فى رحله لزيارة فلسطين ، ثم عاد الى الاسكندرية وأبحر منها يوم١٨ مارس الى انجلترا •

وفى ٧ مارس : أرسل الزعيم سعد زغلول برقيه الى عـــدلى أبلغه فيها بأن الوفد يكون سعيداً برؤيته فى باريس والاجتماع به •

اجتماع الجمعية التشريعية

فى ٩ مارس ١٩٢٠ : اجتمعت الجمعية التشريعيـــة فى منزل الرئيس سعد زغلول وقد كانت معطلة رسميا منذ أكتوبر سنة ١٩١٤، فلم يكن فى الامكان عقد جلستها فى مقرها الرسمى وأصدرت القرارات الخطيرة الاتية :

١ ـ ان الجمعية التشريعية تعتبر الحماية التى أعلنتها انجلترا من تلقاء نفسها على مصر عملا باطلا لا قيمه له من الوجهـــة القانونية •

٢ ـ تقرر الجمعية أن البلاد المصرية التى تشمل مصر والسودان مستقلة استقلالا تاما وفاقا لقواعد الحق والعدل والقانون ، وكل مظهر من مظاهــر اعتــداء القوة على هذا الاســتقلال لا يؤثر فى وجوده من الوجهه القانونية وليس من شانه الا ان يزيدنا تمسكا به•

٣ ـ تحتج الجمعية على تعطيلها ، وعلى كل القوانين والنظم التى وضعت فى اثناء تعطيلها لصدورها من غير عرضها عليها •

٤ ـ تحتج على كل الاعتداءات التى أصابت البلاد وأبناءها سواء كان الاعتـداء واقعا على النفس أو على المال أو على اى نوع من أنواع الحرية •

٥ ـ تحتج على البدء فى مشروعات الرى فى السودان وتطلب وقف هذه المشروعات وقفا تاما حتى يبت فى المسئله المصريه ويعرض الامر على الهيئه النيابيه التى تمثل البلاد بجميع اجزائها وذلك للاسباب الآتية :

أ) لان مصر والسودان كل لا يقبل التجزئة ، وكل مشروع يتعلق بهما لا يجوز تنفيذه قبل ان توافق الامه عليه •

ب) لان هذه المشروعات لم تلاحظ فيها مصلحه السودان منفردا ولا مصلحه مصر وحدها ولا مصلحه الاثنين معا ، وقد قدمت فيها اعتراضات فنيه واقتصاديه وسياسيه وصحيه من خبيرين رسمهم رجال من الانجليز وذوى المكانه الذين اثبتوا ان هذه المشروعات ضاره بالبلاد وانه لم يقصد بها سوى مصـــلحه الاجنبى وخاصة أصحاب رؤوس الاموال والشركات من الانجليز •

٦ ـ تقرر ان كل عمل قامت او تقوم به الهيئه الحاكمه ويكـــون فيه مساس باستقلال التام لمصر والسودان او مصالحهما يعتـــد لغوا ولا يلزم الامه فى شئ فالامه وحدها هى صاحبه الشـــأن فى تقرير كل ما يتعلق بامورها الحاضره والمستقبله •

٧ ـ تقرر الجمعيه ابلاغ هذه القرارات الى الجهات الآتية :

الوفد المصرى فى باريس • رئاسه مجلس الوزراء • قناصل الدول فى مصر ، الصحف المصرية • كبريات الصحف الاجنبيـــة خارج مصر • سكرتيريه الجمعيه التشريعيه لحفظها فى سجلاتها •

٨ ـ ارسال برقيه الى رئيس الوفد المصرى بباريس لشكر الوفد على ما قام به من الاعمال •

تلى المحضر وتصدق عليه وانتهت الجلسة حيث كانت الساعة السابعة والدقيقة ٤٥ مساء •

وفيما يلى امضاء جميع الاعضاء الحاضرين :

ابراهيم سعيد باشا ـ حسين واصف باشا ـ قليني فهمي باشا ـ راغب عطيه بك ـ فتح الله بركات باشا ـ حسين هلال بك ـ حسن سيف الله ـ الدكتور محمد أمين بدر الدين ـ محمود الاتربي باشا ـ السعدى بشارة الطحاوى بك ـ عمر مراد بك ـ متولى حزين بك ـ عمر خلف الله بك ـ ابراهيم على بك ـ محمد محمود بك ـ حنفى منصور بك ـ محمد علام بك ـ على المنزلاوى بك ـ محمد رشوان الزمر بك ـ اسماعيل أباظة باشا ـ محمود أبو حسين باشا ـ عبد اللطيف الصوفانى بك ـ الشيخ محمد شاكر ـ محمد السيد أبو على باشا ـ عبد الرحمن عوض بك ـ الشيخ عبد الفتاح الجمل ـ على شعراوى باشا ـ حافظ المنشاوى باشا ـ أمين سامى باشا ـ منصور يوسف بك ـ يوسف أصلان قطاوى باشا ـ زكريا نامق بك ـ عبد السلام العلايلى بك ـ محمد كمال أبو جازية بك ـ طنطاوى بك طنطاوى ـ ابراهيم دويدار بك ـ علوى الجوار بك ـ محمد أمين أبو ستيت بك ـ محمود همام بك ـ محمد محفوظ باشا ـ عبد الرحمن محمود بك ـ ميشيل لطف الله بك ـ محمد المنياوى بك ـ محمد على سليمان بك ـ حسن الشريعى بك ـ محمد عبد الخالق مدكور باشا ٠

والمعتذرون عن حضور هذه الجلسة هم :

أحمد مظلوم باشا رئيس الجمعية ـ طلبة سعودى باشا ـ محمد شريعى بك ـ مرقص سميكة باشا ـ محمد عثمان أباظة بك ٠

انزعجت السلطات البريطانية فى مصر انزعاجا شديدا من صدور هذه القرارات من أكبر هيئة تمثيلية فى البلاد ، واشتدت خشيتها مما عسى أن يكون من آثارها فى البلاد لا سيما بعد اعلانهـا صراحة بطلان الحماية واعلان الاستقلال التام ٠

وعلى الاثر أصدر لورد اللنبى المندوب السامى البريطانى أمرا عسكريا فى ١٦ مارس ١٩٢٠ بمنع اجتماعات الجمعيـة ومنع اجتماع كل هيئة تمثيلية فى غير الاوضاع المقررة فى القـوانين واللوائح ٠

وفيما يلى نص هذا الامر العسكرى :

« أنا الموقع أدناه ادموند هنرى فيكونت اللنبى بمقتضى السلطة المخولة لى بصفة كونى فيلد مارشال قائدا عاما لقوات جلالة الملك فى القطر المصرى ، أصرح وأعلن ما يأتى :

« ممنوع كل اجتماع للجمعية التشريعية أو لاى مجلس مديرية أو لاى هيئة منتخبة ، وكل اجتماع من اعضاء تلك الهيئات بصفتهم أعضاء فيها ، ما لم يكن ذلك بمقتضى الشروط المنصوص عليها فى القوانين واللوائح الخاصة بها ويشمل هذا المنع كل اجتماع من هيئتين أو أكثر من الهيئات المنتخبة ، ومن أعضاء هيئتين أو أكثر من تلك الهيئات بصفتهم أعضاء فيها ما لم يكن مرخصا بهذا الاجتماع ترخيصا صريحا بمقتضى القانون •

وكل مخالفة للاحكام المتقدمة تقع تحت طائلة الاحكام العسكرية وكل قرار تتخذه أو نوافق عليه احدى الهيئات المنتخبة فى اى موضوع خارج عن اختصاصها يكون ملغيا ولا يعمل به • وجميع الاعضاء الذين يكونون قد وافقوا على ذلك القرار يكونون عرضة للمحاكمة أمام مجلس عسكرى » •

فيلد مارشال
اللنبى

الخطاب الرابع من عدلى الى سعد

وصل ظهر اليوم ١٠ من مارس ، الخطاب الرابع من عدلى الى الزعيم سعد زغلول وفيه يقول انه تكلم مع ملنر قبل سفره من القاهرة بشأن ما عرضه الوفد من تأليف وزارة تمهد لوضع نظام دستورى للبلاد ، فقال ملنر : « ان الفكرة لا بأس بها ، ولكنى لا أرى من المصلحة تغيير الوزارة الحاضرة فى هذه المرحلة وذلك لانه اذا شكلت وزارة مهمتها مقصورة على المفاوضة واعترضت هذه المفاوضة صعوبات قد يكون من نتائجها سقوط هذه الوزارة بينما أعضاء كل وزارة يجب أن يكونوا مسئولين عن ادارة شئون البلاد ويجب الا يكونوا عرضة للتخلى عن خدمتها لمجرد اشكال يمكن أن يحل فيما بعد • واستعمل فى تقريب هذا المعنى عبارة انجليزية •

فقال عدلى لملنر لم يبق اذن سوى حل واحد وهو أن تتفاوض مع الوفد •

وختم عدلى خطابه الطويل بالعبارة الآتية :

« انى بعد التفكير والمشاورات رأيت أن فكرة تشكيل وزارة جديدة قبل الدخول فى المفاوضات لا تخلو من بعض المحظورات ،

اذ لا يخفى عليكم أن وزارة تشكل الآن والحماية قائمة ، والسلطات الانجليزية متغلغلة فى البلاد ومسيطرة تماما على جميع المصالح الحكومية والبلاد تحت الاحكام العرفية تكون وزاره ضعيفة ويحون مركزها محفوفا بالمخاطر فيكفى أن يخونها التوفيق فى حل مشكلة واحدة من المشاكل العديدة التى ستعرض لها يوميا لتضيع ثقة الامة بها ، وينفر منها الرأى العام خصوصا وعوامل الفساد شديدة وسوء الظن واسع الانتشار ولا يسلم منه انسان » •

وبعد أن أورد عدلى كثيرا من المحادثات التى دارت بينه وبين ملنر قال ما يأتى نصه :

« والآن وقد سافر اللورد ملنر وانتهت أحاديثنا معه على ما تقدم وأصبح هو ينتظر منا الجواب اما بقبول المفاوضة أو رفضها ، فنرى أن الامر يحتاج قبل البت فيه الى تبصر فى الحال وبحث دقيق فيها من جميع وجوهها حتى اذا تبينتم فائدة من المفاوضة بعد الذى كان وما حصلنا عليه من تصريحات انتهزنا هذه الفرصة وأخذنا عدتنا للدخول فيها ، والا تركناهم يفعلون ما يريدون وش عاقبة الامور •

وقد خطر ببالنا أنه ربما كان من المفيد وجودى بينكم أثناء ترويكم فيما نجيب به ، اذ ربما احتاج الحال الى مبادلة الرأى ، والى مخاطبة ملنر فى شأن من الشئون قبل البت فى المسألة ، فلا نضيع فى ذلك الوقت الطويل الذى لا بد منه فى التراسل ونحن هنا وأنتم فى باريس وملنر فى لندن ، فاذا كنتم ترون فائدة من حضورى اليكم عجلت سفرى ، اذ فى نيتى السفر الى أوربا هذا العام فى شهر مايو ، فاذا ما وصلنا جوابكم بالموافقة فى بحر هذا الشهر سافرت اليكم فى العشرة الايام الاولى من الشهر القادم ••»

١١ مارس سنة ١٩٢٠ : بعد أن تناقش الوفد فى موضوع خطاب عدلى ودرس اقتراحه بشأن حضوره الى باريس ، أرسل الرئيس برقية الى عدلى بالموافقة على تقديمه موعد سفره الى باريس والترحيب بمقدمه •

فماذا كان رد عدلى على هذه البرقية ؟

أرسل عدلى برقية الى الرئيس سعد يوم ١٢ مارس يقول فيها :

« قبل تحديد موعد سفرى من مصر أكون سعيدا اذا تسلمت منكم خطابا » •

فدهش الرئيس وجميع أعضاء الوفد لهذا الطلب ذلك لان التعجيل بالسفر كان بناء على الرغبة التى سبق لعدلى باشا نفسه أن ابداها فى خطابه الاخير وفصلها تفصيلا •

وأرسل الوفد يوم ١٤ مارس رده الى عدلى فى برقية جاء فيها: « ان الوفد يكون سعيدا برؤيته فى أقرب فرصه لتبادل الرأى معه طبقا لخطابه » •

وفى الوقت نفسه أرسل الرئيس خطابا رقيقا قصيرا الى عدلى أبدى فيه دهشته من برقيته عن الاتيان بتفصيلات المسائل أعلم بها من المسئول •

والآن نترك عدلى مؤقتا يعد حقائبه ويرتب أوراقه ويستعد للسفر الى باريس بقصد الاتصال بالزعيم وبالوفد ، وقد استقر رأى غالبية أعضاء الوفد على تعطيل نشاط الوفد وعدم عقد جلساته لعـــدم جدواها حتى يصل عدلى ••

ولابد هنا من وقفة أسجل فيها حقيقتين بارزتين :

الاولى : رأى الرئيس سعد فى مسلك عدلى ومراسلاته العديدة•

والثانية الازمة النفسية التى أصيب بها الرئيس من جراء زملائه فى الوفد •

رأى سعد فى مسلك عدلى

أول ابريل : كنت أتناول الشاى وحدى مع الرئيس سعد كالعادة كل يوم ، فسألته السؤال الآتى :

« ما هو الاثر الذى وقع فى نفسك من مسلك عــدلى حتى الآن ومراسلاته العديدة التى كثرت وامتدت حوالى شهر كامل » •

فسكت الرئيس قليلا ثم خلت اننى أسأت التصرف وتدخلت فيما لا يعنينى ، ولكنه نظر الى باسما وقال فى شىء من المــرارة وفى كثير من الصراحة :

أولا : ان الوفد لم يخطر بباله أن يدعــو عدلى الى الحضور الى باريس الا بناء على طلبه واقتراحه ، وقد كرر عدلى استعداده للحضور الينا فلما وافقنا على حضوره عاد يسائلنـــا عن خطابي

نبين له فيه أسباب رغبتنا في حضوره وهو صاحب الرغبة أولا وآخرا ، وهذه مماحكة غير لائقة بالرجال ٠

ثانيا : ان عدلى فى الحقيقه لم يكن رسول الوفد لدى ملنر بل كان العكس رسول ملنر الى الوفد ، مهمته أن يقنع الوفد بالدخول فى المفاوضة مع ملنر وهو يعلم أو يجب أن يعلم أن ملنر ولجنته لم يحضروا الى مصر للمفاوضات وانما للتحقيق فى أسباب الثورة واقتراح نظام لحكم مصر فى دائرة الحمـــاية فى حين أن الوفد يهدف الى الغاء الحماية وتحقيق الاستقلال ٠ ومع هذا فقد اراد عدلى من الوفد أن يعود الى مصر ليساعده على انجاز مهمته على أحسن وجه ووضع تقرير شامل بعد ســـماع كل ذوى الرأى من المصريين ، فلما فشل فى هذه المهمـــة أراد الحضور الينا ليقنع المستضعفين منا بمفاوضة ملنر فى أوربا تحقيقـا لرغبه ملنر فى سماع الوفد حتى يخرج تقريره كاملا شاملا ٠

ثالثا : ان عدلى لم يتعفف فى اظهار رغبته فى تشكيل الوزارة التى عرضت عليه بل استحسن الفكرة وعرضها فعلا على ملنر ، وأن ملنر هو الذى عارض فيها ، وفضل ادخار عدلى وأصدقاءه ليكونوا ذخرا للمستقبل ٠

رابعا : ان عدلى صرح للوفد فى خطابه المؤرخ يوم ٢٩ يناير أن ملنر أكد له فى أثناء مناقشـــته أن المقصود بالنص الانجلـــيزى هو الحـــكومه الدستورية، وهذا غير صحيح وينطوى على تضليل، فالحكومة الدستورية شيء جميل ومرغوب فيه ، وأما الحكم الذاتى فهو دون الاستقلال التام الذى ننشده وقد يقوم نظام الحكم الذاتى جنبا الى جنب مع الحماية ٠

خامسا : ان عدلى لم يخرج من عزلته التى لزمها منذ قيام الوفد الا بعد أن زاره ملنر فى بيتـــه فرد له الزيارة وجرت بينهما تلك المحادثات التى كان من نتائجها ارسال برقيته التى حاول بهـــا منعنا من ابداء الرأى فى تصريح لجنة ملنر حتى يصلنا خطابه ٠

سادسا : ان جميع مراسلات عدلى ناطقة بأنه انما حاول اقناع الوفد بوجهة نظر ملنر ٠

سابعا : ان جريدة التيمس نفسها قد نشرت أن عدلى سيسافر الى باريس لا للراحة كما زعم وانما لاغراء زغلول والوفد بالاتصال والمفاوضه مع ملنر ٠٠

الفصل العاشر

الازمة النفسية الأولى

لسعد وبدء اعترافاته

في يوم ٢ ابريل ١٩٢٠ : وهو اليوم التالى لحديثى السابق مع سعد ، حضرت لتناول الشاى معه كالعادة قبل عرضى عليه مانشرته الجرائد الانجليزية الصباحية ، فوجدته واجما صامتا على غير عادته ، ولاحظت الانقباض ظاهرا عليه ظهورا ملموسا ، فأردت انعاشه بكلام مشجع أو على الاقل حمله على الكلام فاكتشف سره الدفين ٠

قلت له : « انى لا أعرف زعيما فى أى بلد من بلاد العالم يتمتع بثقة شعبية كاملة كشعبيتك ٠ كلمة منك الى الامة بمقاطعة ملنر ولجنته فجاءت المقاطعة كاملة شاملة ساحقة محطمة لكل آمال ملنر والمستعمرين ، وما عرفت الامة المصرية قبل الآن انها أجمعت على شىء بناء على رغبة رجل واحد ، ألا ترى أن ثقة الامة بك تشرف وتنعش وتسعد ومن شأنها أن تديم السرور فى نفسك ؟

الاعتراف الاول

فرفع سعد رأسه ونظر الى باسما ابتسامة هادئة لمحتها من وراء سحب الغم والكمد البادية عليه ثم قال :

« ان الذين لا يعرفون حقيقة ما أنا فيه من الهم والحزن ربما يحسدوننى على ماتضعه الامة من الثقةبى ، ولكنها ثقة المخدوم بخادمه لاثقة المقلد بامامه ، وأشعر أنى كلما فعلت مايرضى أهواءهم رضوا عنى ، واذا بدا لى ما يخالف فكرتهم انفضوا من حولى وانقلبوا على ٠٠ مركز ما أحرجه خصوصا وانى فى كثير من

الظروف لا أستطيع أن أبوح بما فى صدرى دفعا للهم عنهم ، ولكنى على كل حال قد تذرعت بالصبر وسأستمر كذلك حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا » .

لم اكن اتوقع ابدا أن أرى سعدا يمر فى أزمة نفسية حادة ولم أجد لذلك مسوغا ، ولم أكن أتصور انه يعانى حالة نفسية أليمة ، ويشقى بها الى هذا الحد وأنا القريب منه المطلع على كل مامنانك، فلم أتمالك أن أسأله سؤالا جريئا لا أظنني كنت اجرأ على توجيه مثله اليه لولا حبى له واشفاقى عليه .

الاعتراف الثانى

قلت له : ما الذى يزعجك ويضنيك ؟ هل بلغتك أخبار غير سارة من مصر ؟

قال : كلا ، ولكنى غير مطمئن الى بعض اعضاء الوفد ، لقد تشكل الوفد وليس بيننا توافق لا فى التربيه ولا فى النشاه ولا فى المشرب ولا فى الاخلاق ولا فى المزاج ولا فى النظره الى المثل العليا . وليس المطلب الذى نسعى اليه متمكنا من نفوسنا بنسبة واحده ، بل هو ثابت مكين فى البعض ومتردد هزيل فى البعض الآخر ، ولذلك فاننا لا نهتم بما يلزم الاهتمـــام الكافى . وبعض أعضاء الوفد لا يفكرون فى شىء الا عند اجتماعنا ومع ذلك حتى فى هذا الاجتماع لا يكون الاهتمام بمـــا هو تحت البحث بدرجة واحده ولا حتى متقاربه ، ولا يعتذر الواحـــد منهم لصاحبه عن هفوه يهفوها او سقطه يسقط فيها أو كلمه قاسيه تصـــدر عنه ، وهكذا تتغير النفوس ويقل التضامن وتنعـــدم الصراحـــة وتتولد الوقاحه وتختل الموازين .

« انظر الى الجمعيه المصرية بباريس قد خرجت على الوفد ثم دعت فى الوقت عينه بعض أعضاء الوفد فلبوا الدعوة من غير أن يرجعوا الى التشاور واخذ رايى فيما ينبغى ان يكون عليه مسلكهم أو حتى فيما يقولون ، ولما شكوت ذلك الى لطفى السيد وعبرت له عن ألمى وخيبة املى أتدرى ماذا قال ؟ انه لم ينتقدهم بل لم يعترف حتى بوجود الحق فى جانبى ، واكتفى بأن قال باسما : « ان تصرفهم هذا ناشىء عن عدم الالتفات من جانبهم لا اكثر ولا أقل » . فعجبت من هذا التعليق وسكت على مضض .

هذا ولم تكن الحفله التى حضرها هؤلاء الاعضاء مقصورة على سماع محاضرة ، بل كان فيها طعام وشراب وكلام وانتقاد . تامل يا كامل من كل هذا نستخلص منه انى فى حاله توجب الاسى والاسف .

وفى يوم ٥ ابريل ١٩٢٠ : خرج سعد للمشى والرياضـــة فى غابة بولونيا وكنت معه كالمعتاد ومعى جريدة التيمس الانجليزية لاطلعه على ما فيها حين نجلس بعد المسير •

الاعتراف الثالث

وبينما نحن نسير الهوينا قلت لسعد : « يخيل الى » أن لطفى السيد وعبد العزيز فهمى ومحمد محمود أعقل أعضـــاء الوفد واكثرهم اتزانا واقربهم الى مثلك واعمقهم ثقافة واكثرهم لباقة ، فهل انا مصيب ؟

فسكت سعد قليلا ثم قال : « يجوز •• يجـوز ، ولكن اسمع ما حدث أمس • طلب منى لطفى السيد أن يعـود الى مصر أسوة بمصطفى النحاس وويصا واصـــف والدكتور حافـظ عفيفى ثم أوافقه واظهرت اهتمامى به فامتثل راضـيا ، وبعد خروجه حضر عندى عبد العزيز فهمى وطلب كذلك العودة الى مصر بحجة ان نقوده نفدت وان يده اصبحت خالية منها ، فقلت له ان هـذه علة يمكن علاجهـــا ، فامتعض وارتعش وغطى وجهـه بيديه وارغى وأزبد فطلبت منه الا يغضب الى هذا الحد ، فازداد وكذنى أغريه بالاستمرار فى غضبه وحدته ثم قال : « أنا لاأقبل منك هذه الاهانة وأنا لست اقل منك عفه أو غنى » • الى غير ذلك من العبـارات ، وهنا قال لى سعد « وماذا كان ينتظر منى أن اقوله لانسان يشكو من قلة ماله وسوء حاله وتفكيره فى العودة لهذا السبب ••؟

ثم سكت سعد قليلا وقال : «ومع ذلك استعطفته كاظما غيظى »•

وخرج عبد العزيز فهمى وترك سعدا ومعه سينوت حنا وحمد الباسل ، ولم يستطع سعد الا الاستمرار فى الكلام مع صـــاحبيه حتى استنتجا من هيئته انه متألم أشد الالم ، فانصرفا بعد أن أظهرا إعجابهما بحلم الرئيس ازاء تهور عبد العزيز فهمى •

الاعتراف الرابع

وعندما ركبنا السيارة عائدين الى مسكن الرئيس فى الشانزليه أخبرنى أن محمد محمود زاره مساء الامس وأخذ يطعن فى لطفى السيد وأخلاقه وصداقته المتينة بعدلى ، فأظهر له الزعيم من صداقة لطفى له ومودته اليه مالطف من حدته وطيب خاطره، ثم قال لى سعد « انى أشك فى اخلاص هذا الرجل ، وهو كثير الانتقاد لكل انسان، ومع ذلك فالاولى أن يكون لطف المعاملة خلقا وعادة فى الانسان » •

وأذكر أنه ختم ملاحظاته هذه المرة بالعبارة الآتية :

« ان حالة اخواننا لا تشجع على الاستمرار فى العمل معهم فهم ليسوا جميعا على مبدأ واحد ولا يشعرون كلهم بشعور واحد، فهم يعبدون ما لا أعبد ، وأعبد ما لا يعبدون ، والاولى ألا أخاطبهم فى انصرافهم وليعد الى مصر من شاء أن يعود وسأقلل من مناقشتهم ولا أظهرهم على كل ما عندى » •

هذه تصريحات بل اعترافات خطيرة مريرة لم تكن تخطر على بال ••

يوم ٦ ابريل ١٩٢٠ :

قررت اليوم فى نفسى قرارين :

القرار الاول : أن امتنع مؤقتا عن التحدث مع سعد فى السياسة وشئون الوفد ، فلا أوجه اليه سؤالا يثير دفائن صدره وانما أحاول صرف ذهنه عن السياسة والوفد بأن احدثه فيما قرأته واقرأه من بعض الفكاهات الادبية الراقية أو الحوادث التاريخية أو أحدث النظريات الفلسفية والعلمية ، وبهذا أشغله عما يقض مضجعه فيستريح مما هو فيه ومما يعانيه •

والقرار الثانى : أن أحاول اكتشاف ما عند أعضاء الوفد من أفكار ونيات وعواطف نحو الزعيم واقف على بواعثهم واتجاهاتهم وميولهم • اذ مازالت كلمات سعد ترن فى اذنى « انهم يعبدون ما لا أعبد ، وأعبد ما لا يعبدون » • ومعنى هذا ان لهم أهدافا سياسية غير اهدافه أو كأنهم جميعا لا يخدمون قضية واحدة هى قضية الاستقلال • ولعلى بمعلوماتى الجديدة أستطيع أن أوفق بينهم جميعا !! ماذا أقول ؟•

تأدب يا موسى ، من أنا الذى يستطيع أن يوفق بين رجالات مصر المتزعمين حركتها الثورية • انى شاب فى الثامنة والعشرين من عمرى ، وهم رجال مصر المثقفون المجربون المتقدمون فى السن ، ولعل أصغرهم سنا قد جاوز الخمسين ومنهم فطاحل فى الشئون المالية والقانونية والزراعية والادارية والعلمية ••

انصرفت فورا عن فكرة محاولة التوفيق تأدبا وتواضعا واستحياء •• ولكنى لم أنصرف ولن أنصرف عن معرفة الحقائق ، معرفة أفكارهم وعواطفهم واتجاهاتهم والاسباب الداعية الى خلافاتهم مع الزعيم •

يوم ٧ ابريل ١٩٢٠ :

تحدثت اليوم مع محمد على علوبه ، اذ قابلته صدفة يتريض • مشيا فى الشانزليه ، وهو رجل آية فى الرقة والطيبة والابتسامة الحلوة ، قابلته فى الساعة السابعة مساء ، بعد أن تركت الرئيس الذى رغب فى الاستراحة والنوم مبكرا هذه الليلة ، وظللت معه حتى الساعة العاشرة ليلا وقد تفضل فدعانى للعشاء معه واستمر يتكلم طوال الوقت فى أثناء السير فى الطريق وأثناء العشاء وبعد العشاء وانا أصغى اليه فى اهتمام ظاهر ، وصدق من قال « نشاط المتكلم على قدر فهم السامع واهتمامه » • وكنت أقول وأنا أسمع اليه « ويأتيك بالاخبار من لم تزود » •

لقد عرفت بفضل حديثه الطويل المفصل كل شىء •• عرفت رأيه ورأى الاعضاء فى رئيسهم سعد زغلول وفى بواعثه واتجاهاته ••
وعرفت رأيه فى القضية المصرية وطريقة حلها ••

وعرفت رأيه فى الاعضاء المكونين للاغلبيه فى الوفد ورأيهم فى عدلى ••

عرفت أسرار الازمة النفسية •• عرفت كل شىء من وجهة نظره • فماذا قال ••

رأى علوبه واعترافاته الخطيرة

انى أسوق كلامه ، وأفكاره الآن فى سلسلة متصلة الحلقات بغير الاسئلة التى وجهتها اليه فى أثناء الحديث ، فقد أجاب عنها وأريد أن ادمجها الآن فى بيان متصل وذلك حتى تتكون للقارىء فكرة واضحة المعالم والحدود عن رأى معسكر الاغلبية داخل الوفد فى باريس •• قال :

« اننا من يوم أن تركنا مصر واستقر بنا المقام هنا فى باريس وأبواب الجهاد والكفاح والعمل موصدة فى وجوهنا ، كان مؤتمر السلام منعقدا عند وصولنا ، وكان الامل عندنا أن ندخله أو نتصل برؤساء الوفود والاعضاء الممثلين فى المؤتمر وأن نطلعهم على قضيتنا وعلى حقنا فى تقرير المصير والاستقلال ، ولكن الابواب استمرت مغلقه ، ورفض رؤساء الوفود وأعضاؤها مقابلة أحد منا ، وذلك بسبب نفوذ بريطانيا الساحق فى هذا المؤتمر ، فقد خرجت بريطانيا منتصرة فى أعظم حرب فى التاريخ وهى تملى الآن ارادتها على أمريكا بدليل أن ولسون رئيس جمهورية الولايات

المتحدة اعترف بالحماية البريطانيه قبل وصولنـــا الى باريس ، وانكر على مصر حق تقرير المصير دون سائر العالمين ·· ورفض مقابلتنا ويدليل آن رؤساء الوفود قد نفذوا تعليمات بريطانيا بهم وعدم مقابله احد منا ، وظللنا نعمل في اعـداد المذكرات المسهبة وسرد الاسانيد القوية المثبته لحقنا فى الاستقلال ، والمثبتة ببطلان الحماية البريطانيه المفروضة على مصر ، فكانت كل هذه المذكرات والبيانات المرسله فى ظروف مسجله الى جميع رؤساء الوفود واعضائها تلقى فى سله المهملات فلا يقراها احد ارضاء لبريطانيا ، وكانت الجرائد الفرنسيه فى باريس ولندن ترفض نشرها بل ترفض حتى مجرد الاشاره اليها ، واخيرا هدتنا الحيله الى نشر بعض هـــذه المذكرات فى بعض الجرائد الفرنسية ولكن فى شكل اعلانات ، اى أن الجريده تنشر فوق المذكرة كلمة « اعلان » وتحتها نص المذكره· وكانت تحاسبنا عن كل سطر منشور كما هى الطريقه فى نشر كل اعلان ! ، وقد تكلف الوفد بذلك آلاف الفرنكات ، وحاول سعد مرارا آن يتصل بمسيو كليمنصو رئيس المؤتمـــر ورئيس الوزارة الفرنسيه فرفض المقابله ، وانتهى مؤتمر السلام بغير سلام لمصر، وانفض السامر وعاد المؤتمرون الى بلادهم ، ونحن هنا فى باريس لا ندرى ماذا نعمل لخدمه قضية البلاد فى الاستقلال التام ·

« الابواب مازالت موصدة فى وجوه الوفد والحـركة الوطنية الثـورية فى مصر قد همدت وانطفأت وانتهت ، وحـكم الارهاب البريطانى مستمر ينكل بابنائنا ومصالحنا فى مصر ، والناس فى مصر متوهمون اننا بوجودنا فى باريس نخـــدم قضيه الاستقلال ونعمل للخلاص من كابوس الاحتلال هذا والضـمير العالمى ميت لا ينصف شعبا صغيرا ولا أمة مظلومة ، وانما يناصر القوى على الدوام · فما العمل ؟ هل نبقى فى باريس بغير عمل مجـد أو نعود الى مصر أفرادا وجماعات ؟ أو نستمر فى اثارة الاوهام فى مصر بأننا نعمل ونحن لا نعمل شيئا ؟ هذه هى الاسئله فى الصميم ·

« والآن فتح أمام الوفد باب نرجو دخوله ونتوقع الخـير من ورائه ·

« عدلى باشا يحاول فتح هذا الباب حتى نجح فى فتحه ، وحمل ملنر على قبوله الاتصال بنا والمفاوضة مع الوفد فى باريس أو فى لندن ومهما يكن من أمر هذه المفاوضات فانها على الاقل عمل وهى على الاقل تنتج لا محالة ثمرة خيرا من هذا البلاء والبؤس والشقاء الموجود فى مصر الآن ··

« فهل نرفض دخول هذا البـاب ونرفض هذه المحاولة الجديدة ولا نقبل الاتصال بملنر الا بشروط نمليها وسيود نفرضـهـا عليه كأنه في حاجه ماسة الينا ولسنا في حاجة اليه ؟ واذا رفضنا هذا كله ورفضنا رغبه ملنر في مفاوضاتنا فكيف نخدم قضيتنا ؟ »

« هذه هي الاسئله التي بحثناها في الوفد ولم نصل فيها الى نتيجه رغم ما هي عليه من وضوح وخطر ورغم أن الاجابه عنهـا من البداهة بمكان •

« سر المتاعب كلها سعد زغلول لانه شديد الاعتداد بنفسـه وبرايه ولا يقيم وزنا لآراء الاخرين • وسر المعارضـة كلها سعد زغلول وهو غير عملي رغم شيخوخته وهو خيالي مثل احمد عرابي •

« ان الاغلبيه العظمى من اعضاء الوفد يرحبون بعدلي ويمجدون عدلي ويغتبطون بقرب قيام فرصه للعمل والاتصال بملنر ونجلته على ان تسفر المفاوضات والاتصالات خيرا تناله بلادنا التعسه •

« وسعد زغلول ومعه اثنان فقط هما واصف غالي وسينوت حنا يعارضون ويعاندون، لقد ضقنا ذرعا بسعد حتى هدد بعضنا بالعودة الى مصر مثل لطفي السيد وعبد العزيز فهمي وانا ، وذلك نسمع سعدا بان مشروع عدلي في المفاوضه مع ملنر اذا رفض فلا محل ولا معنى لبقائنا هنا في باريس ، ولكن سعدا مع ذلك يعارض ولا يتعب من المعارضة ، ومن رايه أن المفاوضه مع ملنر عبث في عبث وانه ونجلته يريدان وضع نظام لمصر في دائره الحمايه ونحن نريد الاستقلال ، والضدان لا يجتمعان •

« منطق عجيب لا منطق عملي عصري حديث •

« وما يدرينا لعل المفاوضات تنتهي الى الغاء الحماية بالحجـة والاقناع ، اى اذا رأت الحكومه البريطانيه أن الامور تستقر في مصر بذلك واذا رأت أن مصالحها الحيويه تكون مضمونه اكثر ومركزها يكون أحسن •

« لماذا نسبق الحوادث ونتشاءم ، والسياسة كما تعلم هي من الممكنـــات ، ولكن ســعدا يتعنت ويطلب المستحيلات ولا يريد أن يخضع للاغلبيه داخل الوفد ، فكيف نعمل معه ؟ انه يضيق ويسخط اذا عارض أحد منا رأيه أو فكرته • ان القضية المصريه ككل قضية •• ومثل اى مشكله لا تحل الا بوسيله من ثلاث :

١ ـ اما الثوره والقوه ، والثوره كما تعلم قد انتهت والقوة لا وجود لها •

٢ ـ واما بالتقاضى أمام المحاكم أو المؤتمرات والمحافل الدولية وهى لا قيمة لها حتى لو وجدت ٠

٣ ـ واما بالتراضى بين الخصمين ، وهذا هو الطريق الاوحد امامنا ٠ ومصر وبريطانيا هما الخصمان ، وفرصة التراضى سانحة الآن بفضل مسعى عدلى ، فاذا رفضنا هذه الوسيلة الوحيدة فماذا يبقى أمامنا ؟

« قلنا ذلك لسعد فهاج وماج وغضب واحتد ، وقال ان جهـــاد الامم لتحقيق حرياتها وسيادتها واستقلالها ليس كقضايا الافراد والهيئات وبعد أن تكلم طويلا كلاما حماسيا قذف سعد بكل جارحة فى وجه أعضاء الاغلبية اذ قال : « أنتم تعبدون ما لا أعبد » ٠ فصرخ فى وجهه عبد العزيز فهمى قائلا : « ماذا تقصد بهذا ياحضرة الرئيس » فقال سعد : « أنتم على ما يظهر لى مستعدون لان تقبلوا أى حل للقضية المصرية ، أما أنا فلن أرضى بغير الاستقلال التـــام بديلا ، وليكن بعد ذلك ما يكون » ٠

وقد اضطربت الجلسة الاخيرة وتكهرب الجو وقد توترت الاعصاب وانفض الاجتماع والكل ساخطون ٠٠ ثم كانت آخر جملة قالهـا الاستاذ علوبة غاية فى الخطورة اذ قال : « لقد أصبحت أعتقـد أن سعدا انما يعمل لمجده الشخصى وشهرته بين الجماهير ، ولا يريد أن يحقق لمصر أية خدمة حقيقية أو يجد لها منفذا للخـلاص من حالتها التعسة الحاضرة » ٠

هنا سكت الاستاذ محمد على علوبة ايذانا بانتهاء حديثه المتدفق الذى نزل على مطرا مدرارا وظللت مطرقا ساكتـا ولم يفتح الله على بكلمة أقولها ، لان الحزن غمرنى وعقل لسانى ٠

ثم قال صاحبى : وما رأيك الآن ٠٠ انى حريص أن أعرف رأيك !

قلت : ألا تحب أن تعرف شعورى قبل أن تعرف رأيى ؟ قال اذن ما شعورك ؟

قلت : انى حزين وفى حيرة ، ولكن هذا لا يهم ، لان المهم أن نعرف كيف يعمل الوفد بعد الآن كهيئة ممثلة لمصر وماذا سيكون عليه الحال عندما يصل عدلى الى باريس ٠

قال : لا أعرف ٠ قلت دعنا نفكر ٠٠

وافترقنا بعد أن شكرته على ما تجشمه من العناية باحاطتى علما بالحقائق التى تسود الموقف الآن ٠

الفصل الحادى عشر

انقسام الوفد إلى معسكرين

٨ ابريل ١٩٢٠

لم أستطع أن آوى الى فراشى ليلة أمس الا حوالى الساعة الثانية بعد منتصف الليل لان نفسى كانت كالدوامة ، وآثرت أن أسجل كتابة خلاصة وافية للحديث العاطفى المنطقى القوى الذى أدلى به الى الاستاذ محمد على علوبة ، فلما فرغت من تدوينه استراحت نفسى نوعا ما وشعرت بالتعب والاسترخاء ، ومع ذلك لم أنم الا غرارا ..

واليوم .. استأنفت تفكيرى مبكرا لانى يجب أن أهتدى الى فكرة صائبة ومسلك حكيم ، والا فسدت علاقتى بالرئيس أوبالاعضاء وما اريد الا أن أكون على أحسن العلاقات مع الجميع ، ويخيل الى أنى عرفت كل ما أردت معرفته ، فلا حاجة بى بعد اليوم الى التحدث مع أحد من أعضاء الوفد الا حديثا موجزا وذلك حتى لا يشعر سعد بأنى شديد الاتصال بغيره ، وانى لاراه فى حالة من توتر الاعصاب وسوء الظن مما أخشى معها سوء المغبة .

لقد تجلى لى الموقف على الوجه التالى :

ان الوفد ينقسم الآن الى معسكرين مختلفين .

الاول : معسكر الرئيس سعد ومعه أربعة أعضاء فقط عضوان اثنان فى باريس هما واصف غالى وسنيوت حنا ، وكلاهما لا يجيد العربية كلاما أو كتابة وان كان أولهما مفكرا عميق التفكير ومطلعا

واسع الاطلاع ، وكاتبا بارعا رصينا فى اللغة الفرنسية · وثانيهما أى سنيوت بك من كبار اعيان اسيوط وعظمائها الاذكيـــاء ، ثم عصوان اثنان فى القاهرة هما الاستاذ مصطفى النحاس بك القاضى العادل والوطنى المتحمس الشجاع ، وجورج خياط من أعيـــان أسيوط وعظمائها وان كنت لم أره ولم أسمع به قبل الآن ·

والثانى : معسكر الاعلبيه ويتكون من الاستاذ عبد العزيز فهمى بك نقيب المحامين والعالم الفقيه والجرىء ، والإستاذ لطفى السيد الكاتب البارع والمفكر العميق والاستاذ محمد على عـــلويه بك المحـــامى الصنيع الفصيح المنطق ، ومحمـــد محمود باشا حريج جامعه اكسفورد والمدير الشهير السابق وعبد اللطيف المكباتى النائب الجرىء الفصيح المتوقد ، وحمد الباسل باشا الحصيف ذو العصبية والنفوذ الساحق فى الفيوم والاستاذ على ماهر القاضى العـــادل النزيه الشجاع ، ومع هؤلاء فى القاهرة الدكتـــور حافظ عفيفى السياسى المرن ، والاستاذ ويصا واصف نقيب المحامين أمام المحاكم المختلطه والعجيب الغريب أنى أرى كلا من هذين المعسكرين على حق ، وهذا ما يحيرنى ، وما كنت أعرف قبل اليوم الا أن هناك حقا وباطلا ولكنى الان أعرف أن للحق ناحيتين وكلتاهما مصيبة قوية ووجيهة ··

راى سعد فى مفاوضة ملنر

ويرى الرئيس سعد بحق أن ملـــنر مكلف من قبـــل الحكومة البريطانيه بان يجرى تحقيقا لمعرفه أسباب الاضطرابات الثائرة فى مصر ثم يقترح نظاما جديدا لحكم مصر فى دائرة الحمـــاية البريطانيه وليس له ان يخرج عن هذه الدائرة الضيقه والا خـــرج عن التفويض الذى خلق لجنته وخالف التعليمات التى حـــددت مهمته · فقد قوبل ملنر بمقاطعه فريدة كاملة شاملة فى مصر وعجز عن اجراء اى تحقيق لانه كلما زار مصريا كبيرا أو حقيرا أو تنقل فى الارياف هو واعضاء لجنتـــه ، لم يسمع الا جملة واحـــدة « اذهب الى سعد والوفد ، الوكلاء عن الامه » · حتى عدلى ورشدى وثروت قد أحالوه على الوفد خشية سخط الامة عليهم وعلى من يخرج على مبدأ المقاطعة · فملنر اذن فشل فى مهمته ومن يستطيع مطلقا أن يقترح نظاما جديدا لحكم مصر يرضى عنه المصريون ·

وحتى يتسنى له أن يقوم بمهمته يجب أن يتصل بسعد والوفد ، وسعد لا يريد أن يساعد ملنر على أداء مهمته ، وهى التحقيق واقران

نظام جديد يوطد دعائم الحماية البريطانية • وما دام هدف سعد والوفد والامه المصريه هو الاستقلال التام فليست المفاوضات مع ملنر هى السبيل لتحقيق هذا الغرض السامى ، وما دام الامر كذلك فان وساطة عدلى فى تمهيد الطريق للجمع بين الوفد ولجنة ملنر توطئة لاجراء المفاوضات بينهما ، انما هى وساطة لخدمة ملنر ولجنته ، لا لخدمه الوفد والامة المصرية • وذلك لانها وساطة من شانها أن تساعد ملنر على انجاح مهمته ووضع تقريره عنها بعد أن فشل حتى الآن فى مهمته التى تعذرت عليه فى مصر ، وتعثرت جهوده فى سبيل تحقيقها • وما كان لسعد ولا للوفد أن يساعد ملنر على انجاز مهمة محصورة فى دائرة الحماية ، أما اذا تغيرت مهمه ملنر كان لمفاوضة الوفد معه معنى آخر ، لان المفاوضة حينذاك تكون وسيلة قد تنجح وقد تفشل للوصول الى الاستقلال التام • أما اذا لم تتغير دائرة اختصاص ملنر ولجنته واذا ظلت الحماية أساس اختصاصها ومهمتها والعمل فى دائرتها ، فالمفاوضة معه شر محض وتخدم ملنر ولا تخدم مصر •

هذا منطق سعد ، وهو منطق سديد سليم محبوك الاطراف و أوافق عليه كل الموافقة •

ورأى الاغلبية فى مفاوضات ملنر

ولمعسكر الاغلبية كذلك وجهة نظر وله منطق سليم فيه بعض الوجاهه والقوة اذ يتلخص فى أن أبواب العمل كلها مغلقة فى وجه الوفد وأن الامة المصرية الآن ضعيفة مغلوبة على امرها ، وقد أخمد الانجليز الثورة المصرية بقوتهم العسكرية العاتية فى مصر وأصبح نيل الاستقلال بالقوة القاهرة مستحيلا وأصبح نيل الاستقلال عن طريق المؤتمرات الدولية مستحيلا كذلك ، فلم يبق أمام الزعماء الا المفاوضة أى محاولة التراضى بل التخاصم والتغاضى الى آخر هذه الحجج والبراهين والمسوغات التى ساقها محمد على علوبة فى حديثه الطويل معى أمس ، ولا حاجة الى تلخيصها الآن خشية تشويهها بحذف فكرة منها ، ومع أن كلا من المعسكرين على حق من وجهة نظره الخاصة وكلاهما يقيم الحجج القوية على وجاهة رأيه فان كل معسكر يعتبر الآخر على باطل وضلال ، وكلاهما غاضب حانق ساخط متوتر الاعصاب ، فلا حول ولا قوة الا بالله ••

توتر أعصاب الوفد

٩ ابريل ١٩٢٠ :

أخبرنى الرئيس سعد أثناء تناولنا الشاى أنه أرق الليلة الماضية طويلا ولم ينم غير ساعة واحدة ، وكان كثير التفكير فى أمر الخلاف الخطير الموجود فى الوفد ، وتعذر البقاء عليه وشماتة الاعداء فيه وأنه فى أشد حالات الاسف والهم والكدر ، وأنى لاراه قد فقد الشهية لكل طعام وهو يشكو باستمرار من الانقباض ومن الارق. فقلت له « يا سيدى هون عليك أنت فى حالة شديدة من توتر الاعصاب، وهذه الاعصاب المشدودة المتوترة هى التى تولد الانقباض والقلق وسرعة الغضب وقلة الصبر وتوقع المكاره واذا استمرت هذه الحالة النفسية المظلمة من توتر الاعصاب ظهرت لها أعراض جسيمة مؤكدة مثل الارق والصداع والشعور بالتعب المستمر والامساك وعسر الهضم فضلا عن ارتفاع الضغط الدموى .

فضحك سعد وقال : « هل أنت دكتور ؟ » فقلت : « هذا ما تعلمته وعرفته فى علم النفس ، وأنا مشترك فى احدى المجلات الانجليزية وما أظنك يا سيدى تريد أن تتلف صحتك باستمرارك فى توتر الاعصاب ان للكنانة ربا يحميها » .

فقال سعد : « معك حق » .

قلت : « ان فى العدد الاخير من هذه المجلة فصلا عن القلق جاء فيه « ان القلق حالة نفسية منهكة تورث الانقباض والخوف ، وسببها أن الانسان يحاول أن يعيش فى زمنين فى وقت واحد ، فى الحاضر غير المستقر والمستقبل الذى يتوقع المكروه فيه . وانه قد ثبت بالاحصاءات الدقيقة ان ٩٠٪ من المكاره التى يخشاها الانسان فى المستقبل لا تحدث مطلقا ، حتى لو وقع بعضها كان أثره أخف كثيرا مما توقعه الانسان وعلى كل حال فان القلق وتوتر الاعصاب لا فائدة منهما على الاطلاق بل ضررهما محقق كما سبق أن بينت لكم بعضها ، هذا فضلا عن انهما يحرمان الانسان من القدرة على التفكير السليم فى مواجهة الحقائق ، ولا سبيل الى حل المشاكل الا بالتفكير الهادىء الذى خلا من العواطف الهائجة نتيجة المخاوف أو القلق أو الغضب أو السخط أو الكره ..

فقال سعد : « هذا جميل وصحيح وما أكثر جهل الناس بهذه الحقائق ، أفادكم الله » .

ثم ابتسم ابتسامة خفيفة ، وخرجت من حضرة الرئيس الى مكتبى وأنا مغتبط بما قلت وبما سمعت ٠

وعدت الى تفكيرى فى هذا البلاء ، بلاء انقسام الوفد على نفسه انقساما خطيرا ، فأدركت بأن الرئيس ليس وحده المصاب بتوتر الاعصاب بل هذا التوتر موجود فى شدة وعنف وسيطرة فى قوة شاملة على كل عضو من اعضاء الوفد ، وهذا فى نظرى هــو سبب تفاقم الحلاف والسخط وضيق الصدر وعدم القدرة على تفهم وجهة النظر الاخرى ٠ بل هو العلة الوحيدة فى العناد وســوء التفاهم حتى بين الزملاء المتعاونين فى خدمة قضية واحدة لتحقيق أمنية واحدة والخلاص من مصيبة واحدة ٠

هل هناك أية فائدة من أن تقول لانسان : عليك بالتخلص من توتر أعصابك ومن قلقك وانقباضك ، بالتفكــير السليم والارادة القوية فيزول كل ذلك فى لمح البصر وينصلح حاله ؟ وهل يستطيع الانسان بالارادة القوية والتفكير السليم وحدهما أن يبرأ ويشفى ؟ وهل يستطيع محموم أن يتخلص من ارتفاع درجة الحــرارة فى جسمه المريض بقوة ارادته وتفكيره السليم ؟ وهل يستطيع الشاكى من آلام ضرسه أو صداع رأسه أن يبرأ ويشفى بالتفكير السليم والارادة القوية وحدهما ؟

كلا ، فالنصيحة وقوة الارادة والتفكير السليم كلها مجتمعة لا تجدى فتيلا ، ولكن لا بد من معرفة سر الداء قبل تشخيص الدواء، ثم العزم الصادق على تنفيذ ما كشفته المعرفة ثم ازالة سبب البلاء ٠

فهل هناك سر وأسباب حقيقية قوية لظهور توتر الاعصاب عند الرئيس وأعضاء الوفد جميعا كما أزعم ؟

أجل ٠٠ من غير شك ، فما توتر الاعصاب وتضييق الدنيــا بما رحبت من غير داع أو مسوغ ٠٠

فكرت مليا فاهتديت الى وجود نوعين من الاسباب وكلاهمــا لا يقل فداحة عن الآخر :

- أسباب عامة لتوتر الاعصاب ٠
- أسباب خاصة لهذا التوتر فى الاعصاب ٠

١ ـ الاسباب العامة :

أما الاسباب العامة فترجع الى الحالة النفسية الموجودة فى مصر والتى بلغت من فداحة السوء ما يغرى بأسود الخوف وأشد اليأس ، وفيما يلى خلاصتها :

مصر الحزينة

نحن الآن فى النصف الاول من عام ١٩٢٠ والوفد المصرى وكيل الامة فى باريس يطالب لمصر بالاستقلال ويسعى الى هذا الاستقلال حيثما وجد اليه سبيلا وهو لا يجد أمامه أى سبيل هذه الايام ٠٠ هذا حال الوفد المصرى فى باريس ، فما هو حال مصر هذه الايام ؟

كان أسوأ مما يتصوره انسان ، كانت مصر أتعس حالا وأشقى بالا وأبأس حياة من أية مستعمرة من مستعمرات التاج البريطانى ، وفيما يلى صورة مصغرة لهذا الحال :

١ ـ **الحماية البريطانية :** مفروضة ومبسوطة على مصر : اعترفت بها كل الدول بلا استثناء ورفضها المصريون بلا استثناء وخضعت لها مصر خضوع المهزوم المكسور الجناح فى غيظ مكتوم ظاهر، شعور طافح بالذل والمهانة والعجز القاهر ـ ولا حول ولا قوة ٠٠

٢ ـ **الجنود البريطانيون :** اكتظت بهم البلاد المصرية من أقصاها الى أقصاها فكانوا كالجراد المنتشر والوباء المستعر ، كانوا فى المدن يحتلون وفى الريف يصطادون ، وعلى وجوههم يهيمون ويتنقلون ويتسكعون ، تراهم فى الشوارع والميادين وفى الترام وفى السكك الحديدية وفى المحطات وفى دور السينما ومحال اللهو ليلا ٠ وفى المطاعم والقهوات فى جروبى وصولت ، فى السيارات والاحياء الوطنية والافرنجية على السواء ٠ على الارصفة أفرادا وجماعات فى محال البيع مثل شملا وشيكوريل وصيدناوى حتى فى الحوانيت الصغيرة ، فى جميع محال بيع الساندوتشات والمشروبات نهارا وليلا ٠ فى الحدائق العامة لا سيما حديقة الازبكية وحدائق قصر النيل ، لا يستطيع المصرى أن يفتح عينيه فى أى مكان أو يتجه الى أية ناحية دون أن يرى بعض هؤلاء الجنود الانجليز ، ويا ليتهم كانوا مؤدبين مهذبين بل منهم من يخطفون من الباعة المتجولين ويسرقون علنا دكاكين بيع الفاكهة التفاح والبرتقال والموز وما اليها ، ويعتدون بالضرب على من يعترض سطوهم وخطفهم فضلا عن السباب واللعن والشتم

يصبونه على من لا يرضيهم أو يرضى عن أهـوائهم ومسـفالاتهم ووقاحتهم وحماقاتهم وسرقاتهم ٠

هذا ما حدث فى مصر والاسكندرية وبور سعيد وعواصم البلاد٠

وهم يحتلون ثكناتهم المنيعة فى القلعة وقصر النيل والعباسية وهليوبوليس والمحطه والمرج ، هذا فى القاهرة وحدها ، ومثله فى الاسكندرية وبور سعيد وكل منطقة القنال ، ولهم أن يحتلوا أى مكان فى البلاد المصرية اذا شاءوا ٠٠

نراهم يطلون من نوافذ ثكناتهم هذه يتفرجون على الغـادين والرائحين من المصريين ، يشتمون ويستفزون الناس بغير داع أو مسوغ سوى الوقاحه الاصيله والسفاله التى تجـرى فى دمائهم بغير رادع من رئيس أو وازع من ضمير ٠٠

نراهم على رؤوس الشوارع الرئيسية وغير الرئيسية بمدافعهم الرشاشة لمنع المظاهرات وتشتيتها باطلاق النار عليهـا ، وقتلهم الابرياء من الطلبه والعمال المصريين ومنع الجنازات التى تسير فى الشوارع لدفن القتلى من هؤلاء الطلبة والعمال المصريين ٠٠

ذكرياتى الخاصـة

رأيت بعينى راسى قبل سفرى الى باريس أن شوارع القاهـرة كانت مقفرة ، وانعدمت منها الحركة بعد غروب الشمس ، واذكر أنى كنت مرة عائدا من السينما ماشيا حوالى الساعه الثامنـة والنصف مساء فى شارع عماد الدين الى منزلى بالحلميه الجديدة مارا بشارع بودى فميدان الاوبرا فميدان الاربخيه فشارع محمد على ، وكنت الوحيد السائر على قدميه طوال هذه المسـافه وقد مررت باكثر من خمسين نقطة وقف فى كل منها جنود بريطانيون بمدافعهم الرشاشه ، ما الذى كان يمنع احد هؤلاء أن يطلق الرصاص فى ظهرى أو فى مواجهتى فى تلك الليلة المقمرة ويقتلنى كما قتل كثيرون من المصريين غيلة وغدرا ؟

لست أدرى ٠ ولعله الحظ السعيد لا أكثر ولا أقل ، لقد كانت مجازفة خطيرة جدا بل حماقة من جانبى أن أعود ماشيا هـذه المسافه الطويله الى منزلى ، ولكن ما الحيلة وانا لم أجد عـربة أستقلها الى الحلمية الجديدة ٠٠ حماقة أن أسير فى شـوارع عاصمة بلادى بعد غروب الشمس بقليل !!

هل أنا فى حاجة الىأن أصف مشاعرى من الهم والحزن والغيظ وتوتر الاعصاب أيضا ؟ هل أنا فى حاجة الى ذكر تفصيلات أخرى عن أعمال الجنود البريطانيين فى مطاردة المتظاهرين والمشتبه فيهم الى داخل الازهر والجوامع والمدارس ، أو ذكر الفظائع الوحشية التى ارتكبت فى العزيزية والبدرشين وبعض القرى المصرية ، أو وصف تفتيش المنازل نهارا وليلا على أيدى هؤلاء الجنود واعتقال الابرياء من المصريين الوطنيين لاحقر وشاية أو أتفه تهمة أو أصغر شبهة وزجهم فى السجون بغير جريمة أو بعد محاكمة صورية ظالمة أمام المحاكم العسكرية البريطانية الغاشمة تحت الاحكام العرفية البريطانية وبلغ الامر الى أن أى مصرى يوجد معه أو فى بيته أى نوع من السلاح لم يستعمله يحكم عليه بالاعدام ؟

كلا !! لا حاجة الى تفصيل أكثر من ذلك لبيان البلاء الذى عانته وتعانيه مصر على أيدى هؤلاء الجنود البريطانيين ، لان هناك بلاء أكبر وأفدح عانته وما زالت تعانيه مصر على أيدى الموظفين البريطانيين والضباط البريطانيين الذين كانوا وما زالوا فى خدمة الحكومة المصرية ، ولا بد هنا من بعض التفصيل لنكون فكرة عن مدى حكم الارهاب فى مصر والسيطرة الانجليزيه الكاملة الشاملة على الجيش والبوليس والاداة الحكومية بحذافيرها •

٣ ـ الضباط البريطانيون :

يشغل هؤلاء الضباط كل الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية فى الجيش المصرى والبوليس المصرى ، ففى الجيش ، السردار بريطانى ويعاونه عشرة من كبار الضباط البريطانيين ، وكل رؤساء الاقسام فى وزارة الحربية انجليز ، ومدير المخازن والمهمات ورؤسات الفرق والآلايات بل حتى وظائف الدرجه الثانية فى الجيش ، كلها فى أيدى الانجليز ، وقد أخبرنى الشاعر حافظ ابراهيم أن عدد الضباط البريطانيين فى الجيش المصرى أكبر من عدد الضباط المصريين ••

وفى البوليس، حكمدار القاهرة ووكيله وكل وظائفالحكمداريين ووكلائهم فى الاسكندرية وسائر المحافظات ، انجليز ، ويعاونهم عدد كبير من مفتشى الاقسام البريطانيين كذلك ٠

٤ ـ سيطرة الموظفين البريطانيين على الحكومة المصريه :

الحكومة فى مصر ، مصرية اسما وشكلا ، انجليزية حقيقة وفعلا وليس هذا فى سنة ١٩٢٠ وحدها بل منذ نكبت مصر بالاحتلال

البريطانى عام ١٨٨٢ والانجليز يعملون جاهـــدين على الاستيلاء على جميع الوظائف الرئيسية وشبه الرئيسية حتى لا يبرم أمـــر كبر أو هان الا بعلمهم وموافقتهم أو بناء على أمرهم ، وقد تم لهم ما أرادوا ، فما هو الوضع الآن ؟ ..

يوجد فى كل وزارة مستشـــار بريطانى هو فى الواقع الوزير الفعلى وبجانبه وزير مصرى لا يستطيع أن يبت فى أمر من الامـور الا بعد موافقة المستشار الانجليزى ، ولا يستطيع أن يخالف رأيا أو قرارا أصدره هذا المسشار وبجانب هذا المستشار عدد هائل من الموظفين الانجليز يراسون أقسام الوزارة وأقلامها ولجانهـــا وفروعها ومصالحها .

فمثلا فى وزارة المالية ، المستشار المالى الانجليزى هو المسيطر على مالية البلاد ويحضر جلسات مجلس الوزراء ، بل لا تعرض مسألة على المجلس الا بعد موافقته على عرضها ، ويعاونه ثلاث من الســكرتيرات الانجليزيات وأربعـة من الســـكرتيرين الانجليز أحدهم فنى بمرتب مدير عام مصلحة ، أما مدير الميزانية ومدير المستخدمين ورئيس قسم المعـــاشات ومدير الادارة العـامة حتى سكرتير اللجنة المالية ، كل هؤلاء من الانجليز .. ومدير مصلحة المساحة ووكيلها ومدير الاموال المقررة ووكيلها ، ومدير الامـلاك ووكيلها وجميع السكرتيرين الماليين المنتشرين فى جميع الوزارات ، كل هؤلاء انجليز ، وكذلك كان مدير الجمارك ووكيلها وعشرات غيرهم .

وبلغ من سيطرة المستشار المالى على مالية البلاد أنه يتصرف فيها كما يشاء ويشاء له الهوى ، قد يحبس الصرف منها على بعض الشـئون المصرية ويسرف بالصرف منهـــا على بعض الشـئون السودانية ، ولعل أبرز دليل على ذلك أن الحكومة المصرية بفضل أوامر هذا المستشار المالى (١) أعطت حكومة السودان قروضا بلغت حتى عام ١٩٢٠ حوالى ٧ ملايين جنيه بفائدة ٣٪ ثم ألغيت الفائدة وأصبحت قروضا تسددها حكومة الســودان فى الوقت المنـــاسب عندما تستطيع الوقوف على قدميها . (٢) وأعطت حكومة السودان اعانات سنوية لسد العجز فى ايرادات السودان بلغت حتى هـــذا العام حوالى ٨ ملايين جنيه . (٣) وأعطت حكومة السودان مبالغ ضخمة للصرف منها على المنشآت العسكرية والمبانى الحكــومية والطرق والكبارى والسكك الحديدية حتى سراى الحاكم العام فى

السودان قد تم بناؤها بالاموال المصرية ولايعلم الا الله والمستشارون الماليون البريطانيون كم دفعوا فى هذا السبيل على حساب الاصلاحات فى مصر والتضحية بمصالح المصريين ٠

وهكذا يحكم الانجليز السودان ويستغلونه لمصلحة الاستعمار البريطانى وتتولى مصر الفقيرة الصرف على السودان وتحمل تكاليف الحكم البريطانى له وهى قسمة ضيزى ، لبريطانيا الحكم والغنم ولمصر الخسارة والغرم ٠

ولنضرب مثلاً اخر بوزارة الداخلية كدليل على سيطرة الانجليز الساحقه على حكم البلاد ، فالمستشار البريطانى فى الداخلية لا يعادل طغيانه وجبروته الا المستشار المالى البريطانى ، يعاونه عدد هائل من الموظفين الانجليز يستولون على كل الوظائف الرئيسية وغير الرئيسية ، واذكر على سبيل المثال لا الحصر الوظائف التالية:

مدير الامن العام ٠ وكيل مدير الامن العام ٠ مديرو كل قسم فى وزارة الداخلية ووكلاؤهم وعدد ضخم من المفتشين الانجليز لزيارة الاقاليم والتفتيش على أعمال المديرين والعمد وطريقة الحكم واستتباب الامن ، ثم يعودون الى وزارة الداخلية ليرفعوا تقاريرهم الى عميدهم المستشار البريطانى دون سواه ، فيرقى من المديرين والمحافظين والمأمورين من يشاء ويعاقب من يشاء ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء ، كل هؤلاء بريطانيون عينهم المستشار البريطانى بمرتبات أضعاف أضعاف ما يتقاضاه المصريون ٠

ومدير السكك الحديدية ووكيله ورؤساء أقسام المصلحة وجميع المهندسين عنده كلهم بريطانيون كذلك ، وهكذا الحال فى سائر الوزارات الاخرى ولكنى أخص بالذكر منها وزارة الحقانية لان الغريب الطريف فيها أنها تعين بعض القضاة والمستشارين فى المحاكم من الانجليز ٠

٥ ــ **التعليم فى مصر** : جميع نظار المدارس الثانوية والعالية فى مصر انجليز وجميع المواد تدرس باللغة الانجليزية ، وقد ترتب على ذلك ازدياد مطرد فى عدد المدرسين الانجليز فى جميع المدارس هذا المدارس الابتدائية بل حتى المدارس الاهلية امتلأت بالمدرسين الانجليز مع ان أصحابها مصريون ، وهكذا سيطر الانجليز على التعليم فى مصر وجعلوه تعليما نظريا سطحيا لوظائف الحكومة ولا يؤهل لغير ذلك من شئون الحياة ٠

٦ ـ الصحافة المصرية : خنقت وما زالت مخنوقة بفضل قانون المطبوعات والرقابة الظاهرة والخفية والاموال السرية التى تستخدم لشراء الاقلام وشراء الذمم ..

٧ ـ الوزارة المصرية فى ١٩٢٠ : وزارة يوسف باشا وهبة ثم وزارة توفيق نسيم .

لو أن كل وزير فيهما كان انجليزيا قحا لما فعلوا اكثر مما فعلت ولا تزال تفعله ، انها تبذل نشاطا غريبا فى مناهضة الحركةالوطنية واضطهاد المصريين المعروفين بميولهم للوفد وللاستقلال وتعطيل مصالحهم وتجارتهم وتستعمل الشدة المتناهية فى منع الاجتماعات وتضييق الخناق على الناس بكل ما أوتيت من قوة . ومن مظاهر جبروتها التشديد على المديرين بسوق الفلاحين والعمد والاعيان الى القاهرة لتقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان الذى عينه الانجليز ، فيحضر الناس من جميع أنحاء البلاد زرافات مضطرين أو طائعين وكانت النتيجة من كل هذا يأس المخلصين والشعور الشامل بالضيق والغيظ والانقباض وتوتر الاعصاب عند المصريين أجمعين .

٨ ـ الامتيازات الاجنبية : خلقت من الاجانب المقيمين فى مصر دولة مستقلة داخل مصر ، فالاجانب لا يدفعون أى نوع من أنواع الضرائب ، وانما المصريون وحدهم يحملون أعباء كل الضرائب ، والاجنبى يقتل أى مصرى أو يسرقه أو ينصب أو يزور أو يضرب أو يرتكب أية جريمة يشتهيها ولا يحاكم أمام المحاكم المصرية ، وانما يحاكم أمام محاكم بلاده فى الخارج .

هذه صورة مصغرة للجحيم الذى يسمى « مصر سنة ١٩٢٠ » ، والذى ثارت من أجله ثورتها عام ١٩١٩ ، فمازادت الجحيم بثورتها الا تأججا وسعيرا ، والذى تألف الوفد المصرى برياسة سعد زغلول لتخليص البلاد من عذابه وويلاته ومن كابوسه الخانق الساحق الماحق وأخطاره الجسام وما صاحبه من شتى الآلام .

ان زعماء الوفد ورجالات مصر يجاهدون ويكافحون ويؤملون ولكنه أمل على استحياء ، وأما الشيوخ فكانوا متشائمين على الدوام . وأما شباب الجيل الذى أنا من صميمه فقد وطد العزم الاكيد على العمل المتصل للخلاص من كل هذا البلاء ، فاما جلاء أو فناء واما استقلال تام أو موت زؤام وما قيمة الحياة اذا لم تكن عزيزة كريمة .

لا تسقنى ماء الحيـــاة بـذلة   بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحيـــاة بـــذلة كجهنم   وجهنم بالعـــز أطيب مـــنزل

ب ـ اما الاسباب الخاصة لتوتر الاعصاب عند أعضاء الوفد فاهمها ما يلى :

١ ـ يأس كل عضو فى الوفد فى عدل الدول وانصافها لمصر فى قضيتها العادلة فى الاستقلال فليس هناك ضـــمير عالمى كما يزعمون والمؤتمرات الدولية ليست الا وســيلة لخدمة الدول الكبيرة القويه وتحقيق مصالح المنتصرين الطامعين وقد كانت تجربة الوفد مع مؤتمر السلام فى فرسايل شديدة القسوة والمرارة ٠

٢ ـ الشعور بالضعف والعجز ازاء جـبروت الانجليز فى مصر وطغيانهم وقسوتهم وسيطرتهم الشاملة على شئون البلاد ٠ وعدم القدره على كبح جماحهم باى شكل من الاشكال ٠ فضلا عن مساعدة الوزاره المصريه للانجليز على زيادة التغلغـل فى نشر الفســاد والطغيان والارهاب ٠

٣ ـ تعطيل مصالحهم الشخصيه فى مصر واضطهاد الحكومة لاولادهم واقربائهم وأنصارهم ومحاربتها لهم فى أرزاقهم وأحوالهم ومختلف شئونهم الخاصة ٠

٤ ـ الشعور بضيق ذات اليد بسبب الاقامة الطويلة فى باريس وتكاليف المعيشة والحياة الكريمة المريحة بها لمن كان فى مثـــل مراكزهم وأعمارهم فقد بدأ كثيرون يشعرون بأن أموالهم الخاصة لا تساعدهم على الاستمرار طويلا على هذا الصرف المرهق ٠

٥ ـ الشعور بضياع المال والوقت معـا باستمرار الاقامه فى باريس بغير طائل أو بغير عمل ناجح أو ثمرة مفيدة ٠ لا سيما أن جرائد باريس لا تنشر لهم شيئا الا اذا كان فى « شـــكل اعلان » يدفعون ثمن كل سطر فيه ٠ وما قيمة ما يكتبون وينشرون ومن هم الذين يريدون أن يقنعوهم ؟ انهم يعرفون الحقيقة المرة وهى انه « ليس أعمى من الذى لا يريد أن يرى » ٠

٦ ـ أغضب الاعضاء وأثارهم تمسك سـعد بالمثل العليا فى الاستقلال ٠ ومعارضته الشديدة لاى اتصال بلجنة ملنر والمفاوضة معها بحجه انها تعمل لوضع نظام داخل الحماية وأغضب سعد وأثاره اعتقاده بأنهم يريدون انقاذ ما يمكن انقـــاذه ، وهو دون الاستقلال بكثير ٠

٧ ـ عدلى (فى نظر الاعضاء) هو المخرج الوحيد لهم ، عن هذا المازق وهو الذى يفتح لهم بابا للخلاص من هذه الحالة التعسة• بينما (سعد) فى نظرهم « حارة مسدودة » • والاستمرار معه استمرار بلا أمل فى الخلاص مما هم فيه •

٨ ـ الحالة الصحيه المعطوبة عند أغلب أعضاء الوفد :

الرئيس سعد مصاب بأمراض السكر والزلال والربو وارتفاع الضغط • وعبد العزيز فهمى مصاب بالبواسير ، ومحمد محمود مصاب بمرض الكبد ، وقد نجا منذ شهر واحد من مرض اليرقان الذى خلف عنده اصفرارا فى البشرة يلفت الانظار والشعور بالتعب المستمر • وبقية أعضاء الوفد لا يخلو واحد منهم من مرض أو مرضين ، ويقابلنى فى الصباح ويشكو من تخاذل الاعصاء •

هذه بعض الاسباب الخاصة • وتلك هى الاسباب العامة لتوتر الاعصاب عند جميع أعضاء الوفد المصرى فى باريس ، او على الاقل هذا ما أراه واشعر به وأكاد أعتقد أنه اسباب حقيقية وقوية• ولا ارى تفسيرا للحالة غيرها •

فما العمل الآن ؟

هل يعدل الزعيم موقفه كثيرا أو قليلا ارضاء لاغلبيته القوية من أعضاء الوفد ؟

أو هل يخضع هذا المعسكر لسعد زعيم الثورة ومغذيها وقائدها وخطيبها الساحر ؟

وما الدور الذى سيلعبه عدلى بعد وصوله الى باريس فى حوالى ٢٠ ابريل ؟

وما الدور الذى سيلعبه ملنر شيخ المستعمرين بعد عودته الآن من القدس ؟

هذه أسئلة الجواب عنها ما يزال فى ضمير الغيب •

وشعب مصر ينعشه الامل والتفاؤل رغم ما يعانيه من الاعنات والاضطهاد والكرب وحكم الارهاب •

وصول عدلى باشا الى باريس

٢١ ابريل :

أمس وصل عدلى الى باريس فاستقبله فى المحطة أعضاء الوفد جميعا ولم يذهب سعد لوعكة خفيفة من زكام وقد أناب عنه أحد

الاعضاء فى الوفد وقد حضر اليوم جميع أعضاء الوفد الى مركز الوفد ومظاهر السخط بادية على وجوههم • والنشـاط ظاهر فى حركاتهم • ثم حضر الرئيس سعد وعدلى فاكتمـل الجمع وبدأ الاجتماع فى جلسة حية متيقظة الاعصاب ومع ذلك لم يذكر فى هذه الجلسة جديد حتى أرويه وأسجله • وكل ما قيل فيها لا يخرج عما سبق لى تلخيصه •

٥ مايو :

كثر اختلاط عدلى بالاعضاء فرادى وجماعات • وحضر جميع جلسات الوفد اليومية وكأنه أحد الاعضاء • وشرح مادار بينه وبين ملنر ولجنته فى الاحاديث بما لا يخرج فى خلاصته عما ورد فى خطاباته •

١٠ مايو :

مضى على وصول عدلى الى باريس أكثر من أسبوعين وجلسات الوفد تكاد تكون يومية والمناقشات مستمرة والنشاط عظيم وكثرة الحركة لم يسبق لها مثيل فيما رأيت من قبل ، ومع ذلك لم أسمع فكرة جديدة جديرة بالتسجيل • وكل الكلام معاد • وكل الحجج مكررة فى المعسكرين فى الوفد • فلا حاجة بى الى تلخيصها الآن لعدم الحاجة الى التكرار •

وفى أثناء الشاى سألنى الرئيس : « ماذا ترى وماذا تسـمع هذا الايام ؟ فابتسمت لانى كنت أنا السائل دائما فأصبحت اليوم أنا المسئول ، وعلى أن أجيب • قلت : أرى تيار الاغلبية فى الوفد يزداد قوة ورغبة فى المفاوضات بعد وصول عدلى • وسمعت أن المفاوضات مع ملنر آتية لاريب فيها • ولامندوحة عنها• وقد أخبرنى الاستاذ محمد على علوبه أن أحد أعضاء لجنـة ملنر فى باريس الآن وانه سيزورك قريبا لدعوتك الى المفاوضات مع ملنر » •

وهنا أراد الرئيس أن يستمر فى امتحانى فقـال « وماذا ترى ماينبغى لى أن أعمله » فقلت : هذا ماكنت على وشك أن أسألك عنه «فقال أجبنى أولا» • قلت لا أرى من الحكمة مقاومة هذا التيار الجارف • وماذا يضيرك أو يضير البلاد لو جاريتهم وأقبلت على هذه المفاوضات وأنت واثق مائة فى المائة بأنها فاشلة لا محـالة فترضى الاغلبية وتتحقق وحدة الوفد بقبولك الدخول فى المفاوضة مع ملنر • ثم ترضى ضميرك فى الوقت عينه وتعـرف حق الامة فى الاستقلال برفضك نتيجة المفاوضات • وبهذا تصيب عصفورين

بحجر واحد ، ترضيهم أولا ثم ترضى ضميرك فى النهاية ، ولاتضحى بذلك قضية الاستقلال • ولو فرضنا أن المفاوضة جرت على أساس الاستقلال فانها تكون بطبيعة الحال عرضة كذلك للنجاح أو الفشل فى النهايه ، فالفرق اذن انك قادم على مفاوضات نتيجتها الفشل المؤكد • فابتسم سعد وقال (هذا صحيح ثم ماذا يقول الناس فى مصر وخارج مصر سيقولون ذهب ملنر الى مصر فقاطعه المصريون وأحالوه على سعدوالوفد فلما جاء الى سعد والوفد قاطعه هؤلاء أيضا • اذن لابد لى من تعديل خطتى مؤقتا • وقد ذكرت لهم فى الجلسه الماضية أن ملنر لم يصـــدر حتى الآن أى تصريح يرضى ذممناويصح الاستناداليه فى الدخول فىالمفاوضة معه فاذا باشرناها وجب علينا أن نعتقد بأننا داخلون فيها قياما بواجب من اعتبارات ثانوية حتى لا يقال أن بابا فتح أمامنا وكان يمكن الوصول منــه الى مقصدنا من غير أن ندخله • وان كنت شخصيا أعتقد ان هذا بعيد الاحتمال الى الدرجة القصوى فلا نخدع أنفسنا بالاوهام بل يجب أن نضع نصب أعيننا على الدوام اننا أمام خصم قوى محتال يريد بكلالوسائل أن يخدعنا• ويسعى بكل جهدهلاستمالة أشخاصنا الى ما يرضاه فان ملنا اليه وتمكنا من اقناع أمتنا بما يرضاه هو لا بما ترضاه هى وصل الى مبتغاه وان لم نصل الى استرضائها سقطنا وضاعت ثقة الامة بنا فاستراح منا • او تمكن على الاقل من ايقاع الشقاق فى صفوفنا • وهى أيضا امنيه أخرى فلابد من الاحتراس لان الموقف خطير والخطب جلل) •

وهنا أظهرت اغتباطى الشديد بكلام الرئيس وحكمته فى تعديل خطته من غير تعديل فىالمبدأ • وقلت له ان مخالفةالانسان للاغلبية وتحديها شىء كريه اذا تعلق الخلاف بخطة أو بمســـلك بسيط فى العمل • ولكن الخلاف يكون ضروريا اذا تعلق بمســـألة مبدأ أو ضمير أو مصالح عليا للبلاد • ومن العسير وغير المقبول أن يرفض الانسان خطة أو طريقة للعمل وليس عنده ما هو خير منها يقترحه بدلها •

الخطوة الاولى فى طريق المفاوضات
زيارة مستر هرست للزعيم

١٢ مايو ١٩٢٠ :

قبيل ظهر اليوم حضر عدلى لزيارة الرئيس فى شقته المطلة على شارع الشانزليزيه وكان مع عدلى مستر هرست أحد أعضاء لجنة

ملنر والمستشار القضائى لوزارة الخارجيـــة البريطانية ومستر ولرنك (الانجليزى الاعرج صديق عدلى باشا ، وصديق ملنر) ٠

بعد تحيات الاستقبال الطبيعية الاولى : بدأ الحـــديث بطريقة طريفة ظريفة :

نظر هرست الى مجموعة كبيرة من الجرائد العربية على مكتب الرئيس ٠ ثم قال :

ـ جرائد كثيرة !! هل عندك صبر على مطالعة كل هذه الجرائد ؟

سعد : هى جرائد عربية كنت أتصفحها ٠ هل تعرف العربية ؟

هرست : « يمينك ٠ شمالك ٠ نهارك سعيد ٠ ازاى صحتك » هو كل ما أعرفه من العربية ٠ وفى نيتى أزور مصر مرة ثانية ٠

سعد : انك تقابل هذه المرة بالترحاب ٠

وهنا شاع فى الجو شىء من المرح والابتســـام ، ازال ما فى اللقاء من تحفظ ووحشية ٠

بعد هذه المقدمة المرحة بدأ الحديث الجـــدى : فقال هرست : ان لورد ملنر يحب أن يرى الرئيس وأعضاء الوفد ٠ وانه فكر أول الامر فى الحضور الى باريس للمحادثة معكم لايجاد حل للمسألة المصرية ولكن لورد ملنر مثقل بالاعمال واذا حضر الى باريس فانه لا يمكن الاقامه بها أكثر من يومين او ثلاثه وهى مدة لاتكفى للتفاهم بين الفريقين ٠ وبعد أخذ ورد فى هذا الموضوع قال هرست « انى بصفة كونى عضوا فى لجنة ملنر أبلغك بأنى مكلف بدعوتك أنت وزملاءك للذهاب الى لنـدن للاجتماع بهذه اللجنة وايجاد طريقة للاتفاق بين بريطانيا ومصر » ٠

سعد : يمكننى الاكتفاء بهذه الدعوة اذا صـح لى نشرها على هذه الصيغة ٠

وهنا اتفق الطرفان على فترة وجيزة من التأجيل ، حتى يتمكن هرست من استئذان ملنر فى أسلوب هذه الصيغة ، وحتى يتمكن الرئيس من استشارة زملائه أعضاء الوفد كذلك ٠

زيارة ثانية وثالثة من هرســـت للرئيس ودعوة ملنر للرئيس وأعضاء الوفد للسفر الى لندن للمفاوضة :

صباح الثلاثاء ١٧ مايو ١٩٢٠ :

عاد هرست وعدلي الى مسكن الرئيس صباح اليوم وكان معهما محمد محمود ولطفي السيد وأعلن هرست قبول ملنر نشر تلك الدعوة بالصيغة التي عرضها ثم انصرف على أن يعود في الساعة الثالثة بعد الظهر لاتمام الحديث • وقد استشار الرئيس زملاءه أعضاء الوفد فوافقوا على قبول الدعوة وقبول الصيغة الخاصة بنشرها • وهنا اقترح الرئيس سعد انه يكفي أن يسافر بعض الاعضاء الى لندن للاتصال بلجنة ملنر والوقوف منها على ما ترمي اليه • فوعد الاعضاء بالتفكير في هذا الاقتراح ولكن الرئيس طالبهم بابداء الرأى فورا • فوافقوا عليه •

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر عاد هرست فأبلغه الرئيس انه قد تقرر سفر بعض أعضاء الوفد الى لندن • وأما فيما يختص بشخصه وباقي الاعضاء ، فلم يتقرر شيء حتى الآن نظرا لوجود بعض الصعوبات الداخلية • فقال هرست ان لورد ملنر شديد الرغبة في محادثة الرئيس شخصيا ويعلق على ذلك أهمية كبرى• ويسره كل السرور أن يرى الرئيس رغبة في كمال الاحتياط وحرصا على حرية العمل في الذهاب أو عدمه قال لهرست أنه سيجتهد في تذليل تلك الصعوبات ثم أضاف باسما « ولكني اذا لم أتمكن من تذليلها فاني أعتذر اليكم من الآن » •

ما معنى هذا ؟ معناه أن الرئيس مازال يحاول التوفيق بين رغبتين متعارضتين ، رغبة الاغلبية في المفاوضة ، ورغبته هو في عدم الاشتراك في هذه المفاوضة •

وقبل انصراف هرست طلب الرئيس ألا تتعرض المراقبة في مصر (وهي بريطانية) لنشر كل ما يصدر من الوفد من بيانات وبلاغات واتاحة استعمال الشفرة في المراسلة بين باريس ومصر ، فوافق هرست على ذلك وأيد موافقته الشفوية كتابة بخطه وتركها عند الرئيس •

كيف تم اختيار الاعضاء الثلاثة المسافرين الى لندن ؟

في مساء ١٧ مايو :

حضر عدلي مبكرا عقد جلسة الوفد المسائية وسأل الرئيس عمن يرى أن يختارهم من أعضاء الوفد لمرافقته الى لندن • فقال الرئيس انه يرى أن يسافر محمد محمود وعلى ماهر معه • فقال

عدلى أن الغرض المقصود هو أن يكون الرئيس نفســـه موجودا لمقابلة ملنر ومناقشته· أما اذا كان الغرض مجردالاستطلاع ومعرفة بعض الشيء فانه واثق من أنهما لن يعرفا أكثر مما قاله سابقا ·· ثم استطرد فقال :

« اذا كنت لا توافق على سفرك أنت فلابد من وجود عبد العزيز فهمى أو لطفى السيد لانهما فى نظر الانجليز « مع الوفد » · أما محمد محمود فان الانجليز يعرفون أنه حاقد عليهم لانهـم رفتوه من وظيفة المدير · فضلا عن أن نشاطه السياسى فى أمريكا قد زاد فى بغضهم له · وأما على ماهر فغير معروف فى نظرهم وليست له حيثية كبيرة » ·

وهنا حضر محمد محمود (فخـــرج عدلى) وقال للرئيس فى خلوة معه أنه يخشى أن يتدخل عدلى فى شئون الوفد كثيرا · وانه علم أن عدلى يريد أن يأخذ معه الى لندن عبد العزيز فهمى ولا معنى لهذا التدخل وهذا الاختيار ·

ثم اجتمع الوفد بعد ذلك بكامل هيئته وحضر عدلى الاجتمـاع كالعادة ودارت مناقشة طويلة حول من يذهب منهم الى لندن مع عدلى (وهنا رأى الرئيس بعد تردد أن يتساهل مع عدلى فى أخذ عبد العزيز فهمى أو لطفى السيد ، فاختار الاول) واقترح الرئيس أن يسافر مع عدلى كل من عبد العزيز فهمى ومحمد محمود وعلى ماهر كما تقرر أن تكون مهمة المندوبين المسافرين هى :

« التأكد من أن الحكـــومة البريطانية مستعـــدة لان تعترف بالاستقلال الحقيقى لمصر مع احترام المصالح البريطانيـه المعقولة وضمان هذه المصالح على طريقة لا تمحو ولا تعطل هذا الاستقلال وتجعله حماية مستمرة · ثم التأكد كذلك من أن لجنة ملنر تعتبر الوفد نائبا عن الامة المصريه وممثلا لها · وليس مجرد شاهد فى قضية تحقيق » ·

وضع الرئيس صيغة الاعلان الذى يرسل الى مصر لنشره فى الجرائد بمناسبة هذه الدعوة وقرب سفر من تقرر سفرهم وهذا نصه :

« دعت لجنــة ملنر الوفد بواسطة أحــد أعضائها ســير هرست المستشار القضائى بوزارة الخارجية البريطانية للذهاب الى لنــدن للاجتماع بها ، للبحث فى ايجاد قواعد للاتفاق بين انجلترا ومصر فرئى قبل توجه هيئته بتمامها أن يذهب بعض أعضائه للوقوف على

حقيقة استعداد الحكـــومة الانجليزية بالنسبة لمطلب الامـــة فى الاستقلال التام » •

موقف أعضاء الوفد

وترجم هذا النص الى الفرنسية • وهنا حضر عـــدلى متأخرا بعد أن تم طبعه وأعد للارسال• فقدم اليه للاطلاع عليه • فتأمل فيه قليلا وأشار بحذف عبارة (المستشار القضائى) وعلل ذلك بأن هذا الوصف قد يحدث شيئا فى التأثير فى نفوس أعضاء اللجنه • فينسبوا الى الوفد أنه يحـاول بوسائل صغيرة التأثير أو الايهام بأن الحكومة الانجليزية لها شأن بهذه الدعوة • فاعترض عليـــه الرئيس ولم يوافقه على رأيه وقال ان هذه الصفة حقيقة واقعة ملازمة له • ولا ضرر من اثباتها لاسيما وقد أسندت الدعـوة فى البلاغ الى نفس اللجنـــة • ثم أضاف الرئيس فى شىء من الانفعـــال **« اذا كان الانجليز يتأثرون بمثل هذه الصغيرة فان أملنا فى نجاح المفاوضة يكون قليلا »** وهنا انفعل عدلى أيضا ودارت مناقشة حادة فى هذا المعنى اشتد فيها انفعال عدلى وبدرت منه كلمات اعتذر عنها للرئيس أخيرا ، ورغبة فى تهدئة الجو وافق الوفد على حذف هذا الوصف مجاملة لعدلى •

حادثة بسيطة • ولكن معناها كبير • ومغزاها أكبر •

ـ انتصر عدلى على سعد : فى أول خلاف •

ـ ناصر أعضاء الوفد عدلى • وخذلوا رئيسهم سعد •

ـ جامل أعضاء الوفد عدلى على باطله ، ولم يجاملوا رئيسهم سعد وهو على حق •

والدليل الحاسم على أن عدلى على باطل وسعد على حق هو أن الجرائد الانجليزية نشرت تلك الدعوة فى اليوم نفسه وذكرت أن الداعى هو هرست المستشار القضائى لوزارة الخارجية البريطانية وعضو لجنة ملنر • وفى هذا أقطع دليل على أن الامر كان طبيعيا ولم يكن للخشية التى قامت فى نفس عدلى أى مبرر ، وان الباعث عليها سخافة ، أو تطير لا مسوغ له •• حادثة بسيطة ولكن معناها كبير فى مظهر الانتصار والمجاملة لعدلى • ومظهر التخـــى فى الخذلان لسعد ومغزاها اكبر لانها نذير للرئيس سعد بأنه مهزوم الآن وبعد الان هو على حق ويشير لعدلى بأنه منصور الان وبعد الان حتى وهو على باطل •

هذه الحادثة البسيطة ستعكر فيما أعتقد صفو الرئيس وستقلق خاطره لا محالة وستجعله يتخوف فى المستقبل من اشتراك عدلى فى العمل معه ومع الوفد • وستجعله من ناحية أخرى يتشكك فى اخلاص أعضاء الوفد وولائهم له • وبهذا يقــل اعتماده عليهم واطمئنانه اليهم •

الازمة النفسية الثانية للرئيس سعد

٢٠ مايو ١٩٢٠ :

لاحظت فى اليومين الاخيرين أن الرئيس سعد عابس شــديد العبوس واجم ساهم ساكت قانط مظلم النفس شــديد الانقبــاض قليل الميــل الى الحــركة والكلام ، فأقلقنى حاله وأشفقت عليــه خشية أن يكون مريضا أو على وشك الوقوع فى مرض • فسألته أثناء تناولى الشاى عن حاله وصحته فقال انه كثير الارق قليــل النوم ثم أفضى الى بسره الدفين •

الاعتراف الخامس

قال : « اننى كلما تذكرت ما كان من عدلى أخيرا وما كان منه فى السنوات الاخيرة انقبض صدرى • وعلا الكــدر وجهى ، ونزلت بالقلب حسرات متتاليات واعترانى ما يعترى من فقد عزيزا لديه ، أو من ارتد ما فعل من الخير شرا عليه • وأثار هذا الشعور فى نفسى ما كان كامنا فيها من قبل بالنسبة لهذا الرجل الذى اختبرته فى مواقف كثيرة • فوجدته أشد الناس قربا منــك فى الرخاء وابعدهم عنك فى الشدة والضراء ، واكثرهم ترددا عليك عنــد الحاجة اليك وبعدا عنك وتبرما منك عند الغنى عنك •

وكلما تذكرت ماضيه معى ، ومواقفه شعرت بنفور شديد منه وقد حدثتنى نفسى مرارا أن أقطع كل صلة به • ولكن أعود فأراجع نفسى وأذكرها بأن المذنب قد يتوب بعد ارتكاب الذنب وأن الوطن للناس أجمعين » •

يا لها من نفس كريمة يحز فيها نكران الجميل ، ويحـــدوها التسامح ويكملها ايمانها وشعورها النبيل •

الاعتراف السادس

وفي يوم ٢١ مايو :

قال لى الرئيس أثناء تناولى الشاى معه بعد ظهر اليوم :

« لا تزال مسألة عدلى شاغله مكانا فى عقـــلى ونفسى • وقد صممت على شدة الاحتراس منه وألا أندفع بأى شىء قبل التثبت منه والتروى فيه • وأن احذر الاصدقاء قبل الاعداء ، لانهم ينقلبون أعداء على غير انتظار • ولا ينبغى للمؤمن أن يقع فى المكروه أكثر من مرة ، لان ذلك غفلة وفيه سوء مغبة » • ثم قال :

« لماذا حضر عبد العزيز فهمى عندى بعد ذلك الحادث بيومين آسفا مستعطفا ؟

« لماذا ذلك بعد ما صدر منه فى حقى من الغلطات الفاحشـة والسقطات الفظيعة وبعد ان ساعد عدلى فى رايه • وجاراه فى ترويج حجته وتزييف رأى اذا صح ظنى فلا تفسير لمسلكه الا خوفه من فشل المفاوضة ، وهو شديد الرغبة فى انتهائها على أى وجه كان • وسيكشف الاستقبال ما خفى فى الحال • والله عليم بذات الصدور » •

ان الرئيس يعيش فى أزمة نفسية تكاد تكون متصلة الحلقات • وقد لاحظت أن العواطف الرئيسية التى تسيطر على كيانه وحياته هى المخاوف والضيق والانقبـاض والغضب المكتوم والكراهيـــة الشديدة لعدلى • والحقد على زملائه لشعوره بعدم اخلاصهم له ، ثم تآمرهم عليه • ولانهم الاغلبية الساحقة فى الوفد • وفى قدرتهم أن يغلبوه على أمره كلما وقع خلاف وما أكثر وأخطر وجوه الخلاف بينهم هذه الايام هذا فضلا عن شعوره بالعجز عن اقناعهم ، والعجز عن تأديبهم والعجز عن التخلص منهم واذا اشتدت الرغبـــة فى الانتقام أو الخلاص مع الشعور باشتداد العجز عن ادراكها بــلغ

البؤس أقصاه ، والانفعال أبعد مداه ، وتفاقمت الامراض فى النفس والجسم معا وتضاعف الشقاء بغير أمل فى النجاة أو الشفاء ٠

فوارحمتاه لهذا الشيخ المتهدم الجليل من كل هذا البلاء وكل هذا الشقاء ، فوالله انى لحزين حزين أشد الحـــزن لما يلقى من الام مبرحة فى نفسه فى الحفاء ٠ وقد أصبح يجد بعض التخفيف عن همه الدفين بالفضفضة والافاضة لسكرتيره الخاص الذى لا يملك من الامر شيئا ٠ ولا حول ولا قوة الا بالله ٠

مهمة المندوبين الثلاثة : هى التأكد من أن الحكومة البريطانيـــة مستعدة لان تعترف بالاستقلال الحقيقى لمصر مع احترام المصالح البريطانية الحقيقية على طريقة لا تمحو ولا تعطل هذا الاستقلال وتجعله حماية مستورة ٠ ثم التأكد كذلك من أن لجنة ملنر تعتبر الوفد نائبا عن الامة المصرية وليس مجرد « شاهد » فى قضية تحقيق ٠

سفر عدلى وأعضاء الوفد الثلاثة الى لندن

فى ٢٣ مايو :

سافر عدلى والاعضاء الثـــلاثة (عبد العزيز فهمى ومحمـــد محمود وعلى ماهر) الى لنـــدن ، وخطر على بال الرئيس بعد سفرهم أن تكون المفاوضة بواسطة قسم من الوفد يتألف من أولئك الثلاثة ومما يرى لزوم انضمامه اليهم من باقى الاخوان ٠ وقد عرض هذا الخاطر على الاعضاء الباقين معه فى باريس فاستحسنوه بعد مناقشة خفيفة ٠ وخشى الرئيس أن يرتبط المندوبون بوعد يبذلونه للجنة ملنر يقضى بحضور جميع الاعضاء للمفاوضة ففكر فى اعداد برقية يرسلها اليهم ٠

الرئيس سعد يرسم خطة لسير المفاوضات

فى أثناء تناول الشاى مال سائلا راغبا فى معرفة رأيى المتواضع:

« أليس من الحكمة وحسن الاحتياط أن أبقى هنا ٠ وأن يوى من سافروا (ومن ينضم اليهم من زملائهم اذا اقتضى الحـــال) الاستمرار فى المفاوضة فيقبلون مايعلمون من أنه مقبول أو يرفضون ما يعلمون أنه غير مقبول ويرجئون موضع الشك الى ما بعد المراجعه٠

واذا كانت لجنة ملنر لا تتحدث الا عن نفسها • ولا تربط الحكومة البريطانية برأيها فلماذا لا يكون الحال كذلك عندنا • نقسم انفسنا قسمين :

قسم يفاوض ويجادل •

قسم يراقب ويراجع •

سيكون القسم الاول تحت تأثير الضيافة والجو والملاطفات •

وسيكون القسم الثانى بعيدا عن كل مؤثر الا مصلحه مصر وحقها • ما رأيك ؟

فاستحسنت الفكرة وقلت : « حبذا لو أمكن تنفيذها على هذا الوجه البديع • ولكن ملنر لن يقبلها لانه على ما يظهر يريد التفاوض معك شخصيا لانك الزعيم الاوحد البارز الشخصية الذى يتغنى باسمه أهل الريف والحضر فى مصر » •

وعند انصرافى أخبرنى الرئيس ان محمد محمود باشا زاره قبيل السفر بيومين وأظهر له لطفا وعطفا فوق العادة ، ومكث طويلا عنده ثم اقترح عليه أن أسافر مع الاعضاء الثلاثه الى لندن بحجة قوتى فى اللغة العربية والانجليزية فرفض الرئيس هذا الاقتراح وقال انه فى حاجة الى ولا يمكنه الاستغناء عنى ، وسألنى عما اذا كان محمد محمود قد كلمنى فى هذا الموضوع ، فقلت له ان هذه أول مرة أسمع كلاما كهذا عن شخصى ، وان محمد محمود باشا لم يخاطبنى قط فى هذا الموضوع ولو كان خاطبنى لرفضت اذ كيف أتركك وأنا الوحيد الذى يطلعك على ما ينشر فى الجرائد الانجليزية اليومية وأعرف باقى مسئولياتى أمامك فابتسم وانشرح صدره •

وفى ٢٤ مايو :

أرسل الرئيس البرقية، التى فكر فيها أمس جاء فيها « انه ليس من الضرورى أن تكون المفاوضة بكل الوفد • وربما حصل الاكتفاء فيها بكم • ومن ينضم اليكم من الباقين هنا » ونرجوكم أن يكون هذا ملحوظا لكم عند المناقشة غدا •

ملنر يرفض مهمة المندوبين الثلاثة

والرئيس يبلغ المندوبين استحالة المفاوضة بعد هذا الرفض

وفى ٢٦ مايو :

ورد تلغراف منهم بأن ملنر لم يقبل أن يتناقش على الاسلوب الذى عرضوه وهو الاستقلال التام · وأن المناقشة تأجلت الى يوم الخميس ·

وفى ٢٧ مايو :

ورد منهم خـــطاب مؤرخ فى ٢٥ ، بمضـــمون ما دار بينهم وبين ملنر · وملخصـــه أنه يريد الوصـــول الى طريقة تعمـل فيها بريطانيا بالاشـتراك مع مصر لترقية شـئون مصر · وأنهم اعترضوا عليه بأن هذا لا يتفق مع توكيلهم · وأن الوفد يستحيل عليه أن يؤيد اتفاقا خارجا عن حدود هذا التوكيل ومع أنهم أكدوا له بأن المناقشة ستكون سرية على أساس الاستقلال مع ضمان المصالح البريطانية وعدم الاتفاق مع أية دولة أجنبية اتفـــاقا من شأنه أن يضر بمصالحها لم يقبل المناقشة على الاساس المذكور ·

فرد الرئيس فورا بخطاب (مستعجل) بأنه ما دام الامر كذلك ولم يحصل التأكد من استعداد الحكومة البريطانية لقبول مطلب مصر فى الاستقلال التام فلا يمكن المفاوضة معه بواسطة الوفد كله أو بعضه ·

المندوبون يرفضون خطة الرئيس

وفى المساء وردت منهم برقية جاء فيها أنهم أجـلوا المفاوضـة لعدم استحسانهم فكرة تقسيم الوفد وزعموا أن مثل هذا التقسيم لم يسبق له نظير فى المفاوضات ·ولعدم قبول ملنر له ·

فرد الرئيس عليهم فورا فى نفس المساء ببرقية جاء فيهـا أن التقسيم لم يدع اليه الا شدة الاحتياط · وتطمين آلامه · ولا بدعة فيه · وطبيعة المفاوضات تقتضيه · ولا شأن للطرف الآخر فى أمره · هذا مع العلم بأن التقسيم متعلق بالمفاوضة التى لم يأت بعد وقتها · ولم يكن فى محادثاتهم مع ملنر ما يشجع على دخولها

الرئيس يعارض فى السفر الى لندن

وفى ٢٨ مايو :

أرسل المندوبون الثلاثة خطابا الى الرئيس يلحـــون فيه كل الالحاح على الوفد بأن يحضر الى لنـــدن للدخول فى المفاوضه • ويلقون عليــه مســئولية كبرى اذا هو تخلف عنهـا حتى عـلى فرض أنهم لم يحصلوا من لورد ملنر على تصريح آخــر ويقولون انهم يعتبرون أن ما صــدر لهم من ملنر كاف للدخول فى المفاوضة معه ، وأن رفض المفاوضـــة يسىء الى ســمعة الوفد أمام الرأى العـــام الانجليزى وأمام الامة المصرية وقالوا ان عــدلى باشا أبلغهم بأن لورد ملنر صرح له صباح اليوم بأنه ليس لانجلترا مصالح تتعارض مع استقلال مصر أو أنه لا يدعو الوفد ولا يعتبره « شاهدا » فى قضية تحقيق وانما بصفته ممثل الاكثرية فى مصر وأن ملنر يود الاتفاق مع الوفد لان فى هذا الاتفاق خلا للمسالة المصرية وان هذا الاتفاق ميسور » انتهى • وصل هذا الخطاب فى مساء ٢٩ مايو ، بعد أن كان الرئيس فى صباح اليوم نفسه ٢٩ مايو قد عقد جلسة للوفد وكلف لطفى السيد أن يكتب خطابا للمندوبين الثلاثة بلندن فى معنى أن ملنر لم يأت بجديد فى حديثه معهم حتى الآن وأنهم مع ما أبدوه فى اتصالاتهم ، لم يحصلوا منه على قول مفيد بأنهم وقفوا على استعداد الحكومة البريطانية بالنسبة للمسألتين اللتين حددهما الوفد كمهمة للمندوبين وهما :

١ ـ الغاء الحماية واعلان الاستقلال •

٢ ـ جلاء جيش الاحتلال عن مصر •

فكتب لطفى السيد الخطاب المطلوب وعاد الى هذه الجلســة الصباحية وقرأه على الاعضاء وفيه عبارة (وانكم مع البراعة التى استعملتوها لم تفوزوا بطائل) فقال الرئيس (انها لمصيبه أن أريد المدح فأذم) ثم اقترح تعديلها بعبارة أخرى من عندياته فلم يكتب لطفى السيد التعديل المقترح وظهر عليه ما يشبه الغضب • فانفعل الرئيس وقال له (مالك تغضب كلما أردت تغيير شىء من كلامك أو كتابتك ، كلنا يعلم أنك أقدرنا على التحرير • ولكن تعديل شىء فى عبارتك ليس فيه ما يحملك على الغضب واذا كنت لا تريد

أن تكتب فانى أكتب بنفسى) فمزق لطفى السيد ما كتبه وخرج الى القاعة المجاورة محنقا فاملانى الرئيس ما أراد وقرأه على الاعضاء فاقروه وأمضاه الرئيس • ولما عاد لطفى السيد الى الجلسة استعطفه الرئيس بكلمات طيبة فأظهر ارتياحه • ولكن عند انصرافه ظهر منه ما يدل على استمرار تأثره وتألمه • وبعد انصراف الاعضاء من جلسة الصباح هذه قال لى الرئيس :

(عندما تلاحظ اجتماعنا هنا على خلو كلام ملنر مما يرضى أو يبرر دخولنا فى المفاوضات معه ، واجماع المندوبين الثلاثة هناك على التفاؤل تحكم بأن قرار التقسيم كان قراراحكيما • والله يدبر لنا خير الوسائط ، ويعصمنا من الخطأ) •

كان هذا فى صباح ٢٩ مايو •

وانصرف سعد واخوانه وهم لا يعرفون ما يدخره وما يحمله مساء اليوم •

اذ فى مساء اليوم نفسه ٢٩ مايو أى (قبل أن يصل الى المندوبين خطاب الصباح) ورد خطابهم الذى بحثته تفصيلا آنفا (وهو المؤرخ ٢٨ مايو) وقد وقع على سعد وقوع الصاعقة وسبب لى آلاما نفسية عنيفة •

ولا شك عندى فى أن خطاب الصباح الذى أرسله الرئيس الى المندوبين الثلاثة ، فى لندن سيقع عليهم عند وصوله وقوع الصاعقة كذلك وسيسبب لهم آلاما نفسية عنيفة •

والخلاصة :

١ ـ ان الرئيس وصحبه فى باريس يرون أن المندوبين الثلاثة لم يوفقوا مع ملنر وأنه لا داعى للبدء فى المفاوضات أو حتى فى استمرار المحادثات ، واعترض الرئيس بأنه لن يسافر الى لندن اذ لا مبرر لذلك •

٢ ـ وان المندوبين الثلاثة يلحون على الرئيس وزملائه بالحضور فورا الى لندن للمفاوضة ويلقون عليه مسئولية كبرى اذا هو وزملاؤه تخلفوا ولم يستجيبوا لالحاحهم •

المندوبون يتخذون قرارا حاسما

في ٣٠ مايو :

ورد تلغـراف بالشـــفرة من محمد محمـــود يقول فيه أنهم أجلوا المفاوضـــة والاتصـــال بلجنة ملنر حتى يحضر الوفد كله الى لندن وانهم لا يوافقون على تقسيم الوفد الى قسمين : قسم يفاوض وقسم يراجع • وقالوا ان هذا التقسيم غير مقبول • فقال الرئيس ان هذا التلغراف جاف يدل دلالة ظاهرة على تاثر مرسليه تأثرا حملهم على كتابته بلهجة غير لائقة ثم تأثر الرئيس لهـــذه المعاملة ولم يعرف لها سببا •

ولكن السبب عندى واضح كالشمس في رائعة النهار • ملنر يريد أن يتفاوض مع الرئيس سعد شخصيا ولا يوافق على هـــذا التقسيم • فكيف يمكن أن يستمر المندوبون الثلاثة فى مفاوضـــة مع ملنر وهو لا يريدهم ولكنه يريد سعدا صاحب النفوذ الهـــائل على مصر والمصريين •

وفى أثناء الشاى قال لى الرئيس فى براءة عجيبة أو سذاجة رائعة :

« ان كل ما كتبناه اليهم كان فى غاية الاعتدال ، وعلى فرض أن هناك خطا فى هذه التقسيم فانه لا يترتب على ذلك تاجيل العمل لان التقسيم مسالة داخلية بحتة • ولا اختلاف بيننا على المبادىء الكبرى • فما بالهم يغضبون كل هذا الغضب • وليس هناك شىء يمس اشخاصهم » •

فقلت له : « لعل ملنر أظهر عدم الرضا عن استمرار اتصاله بهم والمفاوضة معهم وانه هو الذى اجل كل اتصال وكل مفاوضة حتى تذهب انت الى لندن وهم لا يريدون أن يعترفوا او يسجلوا ذلك كتابة » •

فقال الرئيس : « اغلب الظن أن كلامك هذا صحيح »•

وفى المساء جاءت منهم برقية حاسمة غيرت الموقف كله وقلبته رأسا على عقب • قالوا فى البرقية : « انهم قطعوا عهدا للجنة ملنر بأن الوفد كله يحضر للمفاوضة » فلا مندوحة اذن من السفر رضى الرئيس بذلك أو لم يرض •

وكانت هذه هزيمة ثانية للرئيس بعد هزيمته الاولى بشأن صيغة الدعوة ونشرها بعد تعديلها والهزائم لا يتلقاها الانسان الا فى شىء من المرارة والالم لما تحمله من خيبة الامل العزيز •

الرئيس يخضع للامر الواقع فى كمد

دعا الرئيس الى مسكنه أعضاء الوفد الموجودين معه فى باريس وأبلغهم بأن المندوبين الثلاثة وعدوا ملنر بسفر جميع أعضاء الوفد الى لندن للمفاوضة ثم قال لهم :

« انى لست مرتاحا الى سفرنا جميعا الى لندن لانى كما سبق أن بينت لكم أعتقد أن المفاوضة انما هى للضرورة ، والضرورات تقدر بقدرها وظروفها تلك الضرورة هى الخروج من عهدة المسئولية التى ألقتها ظروف الحال علينا وقطع ألسنة اللائمين ، والبعد عن مواطن الندم ، ولكيلا يكون للانجليز حجة علينا فى ابان المفاوضة والتفاهم معهم على تحقيق آمالنا •

برقية من مصر

ورد تلغراف من محمود باشا سليمان (رئيس اللجنة المركزية للوفد) بعد ظهر اليوم تضمن الدعاء فى المساجد والبيع بالنجاح فى المفاوضات : وقد أنعش هذا التلغراف سعدا انعاشا كبيرا •

الدعاء « اللهم بارك للوفد فى أعماله ونجح المفاوضات للوصول الى الاستقلال التام ، فى الله رجاؤنا ، وفى الحق قوتنا ، تعالى الله عن الانتهاء ، وجل الحق عن الفناء » •

فما قرأ الرئيس سعد هذه البرقية بهذا الدعاء حتى دمعت عيناه دمعة السرور واندفق فى قلبه دافق من الطرب • وتمثل فى خاطره اتحاد تلك القلوب المصرية الخافقة بالوطنية • وتصاعد تلك الاصوات الصاعدة بذلك الدعاء الطاهر • وقال لى :

« ما شاء الله . كلمة واحدة منا كفت لعقد تلك الاجتماعات ، والتوسل الى الله بتلك التضرعات . ثقة ما أوفاها . ومنزلة ما أعلاها . ثقة لا يقوم بشكرها الا تحقيقها ، ومنزلة لا يستبقيها الا النفس تفديها » .

ثم دمعت عيناه مرة ثانية وقال : « ما دامت هذه الثقة كاملة . وهذه القوة من ورائنا شاملة فلا حرج علينا أن نذهب الى لندن . وان ندخل فى المفاوضات فان وصلنا منها الى غايتنا فبها ونعمت والا فواجب قضيناه وعهدة خرجنا منها ، وندم تفاديناه ، ولوم يعدونا عنه » .

هذا وقد أمرنى الرئيس أن أرسل نص هذا التلغراف الى المندوبين الثلاثة فى لندن بعد أن أرفق به خطابا منه تضمن سروره به وتشجيعه له على الدخول فى المفاوضة وأبلغهم كذلك أنه قرر السفر الى لندن فى يوم السبت ٥ يونيه وبرفقته بقية الزملاء . فأرسلت الخطاب والتلغراف معا .

خطة جديدة للمفاوضات

فى أول يونيه :

قال لى الرئيس :

« لقد فكرت طويلا فى أن الامل فى نجاح قضيتنا كما هى أى تحقيق الاستقلال التام غير ميسور . فالاجدر بنا والاحكم أن نأخذ من ملنر ولا نعطيه . وأحسن الطرق أن نسأله عن المصالح البريطانية التى يريد أن يوفق بينها وبين أمانى مصر فى الاستقلال التام ، والضمانات التى يطلبها لتلك المصالح ، ولقد اخبرت اخوانى أن المفاوضة مع ملنر ليست فى الحقيقة مفاوضة بالمعنى المعروف وانما هى بالتحقيق أقرب . وانها تنتهى بتقديم تقرير لجنة ملنر الى الحكومة البريطانية لا باتفاق يعقد معنا . وحفظا لهيبة الوفد وكرامته . ولئلا يثقل عليه قطع المفاوضة من غير طائل ،

يبقى قسم فى باريس • وقسم فى لندن • لقد قلت لهم كل هـذا وذكرته • ولكن •• » وهنا سكت الرئيس دقيقة ثم قال : « يحزنني أن الاحظ أن حب الظهور له تاثير كبير فى ارائهم • وأن لطفى السيد على اتصال يومى بمحمد محمود فى لندن • ومهما يكن من امرهم • فقد احتصت لهم نفسى • وصرحت لهم بمـا يحتج صدرى ابراء لذمه ، وحروجا من العهـده أمامهم والله يسـوى أمرى وامرهم » •

وفى مساء اليوم نفسه دعا الرئيس زملاءه للاجتمـاع به فى مسكنه فحضروا جميعا : لطفى السيد ومحمد على علوبه وواصف غالى وحمد الباسل ، والمجبانى وسينوت حنا • وتباحثـوا فى هذا الاجتماع وفى جو هادىء ما عسى ان يطلبه ملنر من الوفد فى هذه المفاوضات • فاحد كل واحد من الاعضاء يتنبـأ ويخمن • وفيما يلى طائفة مما توقعوا أن يطلبه الانجليز من الوفد :

١ ـ أن تضمن بريطانيا استقلال مصر وحدودها •

٢ ـ ألا يكون لمصر ممثلون فى الخارج •

٣ ـ ألا تعقد مصر معاهدات مع أية دوله أجنبية أخرى •

٤ ـ أن تحتل الجيوش الانجليزية بعض المواقع خصوصا فى منطقه قنال السويس •

٥ ـ أن يبقى السودان كما هو : شركة بين مصر وبريطانيا مع ضمان ورود الماء الكافى لمصر •

٦ ـ أن تقبل مصر أن تنوب بريطانيا عن باقى الدول فى حق التشريع والضرائب وغيرها من الامتيازات •

٧ ـ أن يكون لبريطانيا نوع من الرقابة على المالية المصرية •

٨ ـ الا تستخدم مصر خبراء أجانب الا من الانجليز •

٩ – يبقى الموظفون الانجليز الحاليون فى وظائفهم فى الحكومة المصرية •

١٠– انحصار الملك فى السلطان فؤاد وذريته •

١١– أن يكون لبريطانيا مندوب سام فى مصر •

١٢– لا يعدل نظام مصر الاساسى الا بموافقة بريطانيا •

وأخذوا يتبادلون الآراء فى جو هادىء جدا فى ماذا يقبل منها وماذا يرفض ، ولم تؤخذ الاراء ، وانما كانت هنها مسائل تحت النظر وموضع التفكير والمناقشة ، واذكر أن الرئيس قال : « يجب أن نعرف مقومات الحمايه وصفاتها اللازمه لها فعلا • وأن نعرف مقومات الاستقلال ومستلزماته الحتميه وان معظم هذه المسائل التى ذكرت هى الحماية بـ بها ولا يمكن بحال من الاحوال ان يوافق الوفد على شىء منها » •

سعد يقرر السفر الى لندن

وفى ٢ يونيه :

ورد من المندوبين الثلاثة خطاب أظهروا فيه اغتباطهم بقرار الرئيس سعد بالحضور الى لندن يوم ٥ يونيه • وقالوا ان ملنر أكد عبارة « ان المصالح البريطانية ليست متعارضة مع استقلال مصر • وصرح بأنه متفائل من نتيجة المفاوضات المقبلة » •

وأرسل الرئيس تلغرافا الى محمود باشا سليمان رئيس لجنة الوفد المركزية هذا نصه :

« لاقى زملاؤنا فى لندن قبولا حسنا ، وتلقوا من التأكيدات ما يبعث الامل فى الوصول بالمفاوضة الى حل مرض • ولهذا عزمنا أن نتوجه اليهم بحول الله يوم السبت القادم للدخول فيها ،

مستمدين القوة من اتحاد الامة وحكمه أبنائها والحجة من وضوح الحق ، والمعونة من الله نصير الضعفاء » •

وفي ٣ يونيه :

ظهرت مقالة في جريدة التيمس الصادرة أمس جاء فيها « ان زغلول تنازل عن تشبثه • وعدل عن خطته بفضل مساعي عدلي ، وأن اللجنة المركزية في مصر منقسمة على نفسها من أجل المفاوضة • فغضب الرئيس وثار من أجل هذه المقالة •• فقلت في نفسي أول الغيث قطرة ثم ينهمر •

الازمة النفسية العنيفة الثالثة

قال لي الرئيس اليوم أثناء تناول الشاي معه بعد ظهر اليوم :

« انني كلما فكرت في قرب انتقالنا جميعا الى لندن ضاق صدري • وكلما تصورت عدلي وتدخله مع الاعضاء شعرت بنفور شديد منه • وامتلأت بسوء الظن وخيبة الامل وقد بدأت أشعر من يوم قدومه بأني اصبحت بين أعضاء الوفد غريبا لا رئيسا ، ويخيل الى ان الحسد يأكل قلوبهم ، وحب الشهرة يعم صدورهم • وهم جميعا لا يستطيعون ان يتركوا فرصة تمر الا انتهزوها للتظاهر • واري ان من المفيد جدا ان اقلل بقدر الامكان من الاجتماع بهم ، ومن الكلام معهم والا اطلعهم من افكاري الا على ما يمنعهم من الانحراف عن طريق الرشاد ، واني افتش نفسي فلا اجد فيها ميلا الى عظمة او رغبة في علو عند غير قومي ، بل اني لا اجد اي علو في غير وطني الا سفلا وانحطاطا اما الفخر الذي انشده ، فهو الوفاء بعهدي لامتي ، والسجن احب الي ، من ان اكون للاعداء وليا • أسأل الله أن يبارك لي في هذا الشعور والايمان وان يعصمني على الدوام من خطرات الوهم وسقطات اللسان » •

خيل الى أن هذه كلمات فيها دموع ونفسية تقطر دما ، كيف يمكن أن يقلل اجتماعه بهم والكلام معهم ؟ انه اليأس لقد عاد الى

الرئيس وجومه وسهومه وسهاده وضيقه وانفتاحه وقنوطه وسكوته.
أزمة نفسية حادة يصاحبها أرق ومخاوف وتشاؤم وأمراض جسمية هدامة .. كل هذا يعانيه هذا الشيخ الزعيم الوطنى المتهدم وهو على أهبة السفر الى بلاد الاعداء الالداء لا للنزهة ولكن للقيام بعمل شاق أليم ، انه يعيش فى جو مهموم محموم مسموم تؤرقه وتهزه هزا عنيفا انفعالات نفسية قاسية هدامة : سببها الاكبر الاصيل عدم اطمئنانه الى زملائه وانعدام الثقة بينه وبينهم ثم سير زملائه فى ركاب عدلى الذى لا يؤمن بالاستقلال التام ثم شعوره بالعجز الكامل عن اصلاح الحال فهو وحيد ، وشاعر بأنه يعيش فى عزلة كريهة . بل فيما هو شر من العزلة الكريهة انه يعيش مع « الشريك المحالف المناكف المشاكس » . وسيفاوض « العدو اللدود القوى الطامع المسلح » وهو الاعزل من كل سلاح سوى سلاح الايمان بنبل غايته وكرامة أمته .

وفى يوم السبت ٥ يونيه ١٩٢٠ :

وفى الساعة التاسعة صباحا سافرنا جميعا الى لندن (الرئيس والاعضاء الباقون معه فى باريس) واستقبلنا فى محطة فكتوريا الطلبة المصريون بالاعلام والهتافات فى حماسة عظيمة مدوية ، وفى وسط الزحام الهائل كان المندوبون الثلاثة محمد محمود وعبد العزيز فهمى وعلى ماهر ولم يحضر عدلى وأرسل ملنر مندوبا لتحية الرئيس نيابة عنه .

وكان وصولنا الى محطة فكتوريا حوالى الساعة السابعة مساء، وفى حوالى الساعة الثامنة مساء حضر عدلى والمندوبون الثلاثة للاجتماع بالرئيس فى غرفته فى فندق كارلتون ساعة كاملة ثم انصرفوا من عنده ليستريح . وبعد انصرافهم أخبرنى أن الحديث معهم لم يسفر عن جديد . وكانوا يتكلمون وهو يستمع وبعد الانصراف عاد عدلى وأخبر الرئيس أن ملنر يريد مقابلته فى منزله غدا الاحد يوم ٦ يونيه الساعة العاشرة والنصف صباحا واتفقا على أن يحضر عدلى لاصطحابه فى الساعة العاشرة غدا .

انتهى الجزء الاول

فهرس

صفحة

صدر من كتاب اليوم

- خواطر وأحاديث — أحمد حسن الباقوري
- فنان فى باريس — فتوح نشاطى
- بلاد الله .. خلق الله (ثلاث طبعات) — انيس منصور
- النساء لهن أسنان بيضاء — احسان عبد القدوس
- أيام لها تاريخ — أحمد بهاء الدين
- الغاضبون — كامل زهيرى
- مصرى فى فيتنام والصين وكوريا — أحمد حمروش
- القمر فى انتظارنا — مجدى نصيف
- أم كلثوم التى لا يعرفها أحد (ثلاث طبعات) — محمود عوض
- رجل من طين — سعد مكاوى
- حقيبة في يد مسافر — يحيى حقى
- ليلة نام فيها الشيطان — محمد التابعى
- القرآن فى شهر القرآن — د. عبد الحليم محمود
- الكأس الاخيرة — ابراهيم المصرى
- لست مسيحا أغفر الخطايا (طبعتان) — محمد زكى عبد القادر
- يحدث فى الليل فقط — أمين يوسف غراب

- طويل يا زمن — عبد المنعم الصاوى
- شخصيات عربية معاصرة — ابراهيم البعثى
- حين يميل الميزان — ثروت أباظة
- صالة النجوم — محمد التابعى
- قلت ذات يوم — توفيق الحكيم
- الشيطان لعبته المرأة والمرأة لعبتها الرجل — احمد الصاوى محمد
- الجديد فى مرض السكر — د. جمال الدين غوردون
- مشهورون منسيون — فتحى رضوان
- اسلاميات — خالد محمد خالد
- العالم من ثقب الباب — كامل زهيرى
- توتة توتة (طبعتان) — أحمد رجب
- موعدنا بعد غد — عبد المنعم الصاوى
- حياة قلب — أحمد الصاوى محمد
- امهات لم يلدن ابدا ! — يوسف جوهر
- شيوعيون فى كل مكان (جزءان) — موسى صبرى
- يوميات مصرية — ابراهيم الوردانى
- بنت اليوم — محمود تيمور
- صور مقلوبة (طبعتان) — أحمد رجب

● ابتسامات على البلاج	حسين القبانى
● مع أطيب تحياتى من موسكو	أنيس منصور
● ابتسم من فضلك	محمد عفيفى
● نظرات فى سورة الرحمن	عبد الكريم الخطيب
● الزواج سنه ٢٠٠٠	محسن محمد
● صقر الليل	محمود البدوى
● حلاوة الروح	يوسف الشارونى
● ذنوب بلا مذنبين	محمد زكى عبد القادر
● أولاد الحـــلال	صالح جودت
● الأم ..	فتحى الابيارى
● رجال ونساء	أحمد الصاوى محمد
● بيليه ملك الكـــرة	أحمد علام
● شرابة الخـــرج	دكتور سعيد عبده
● حمارى وعصاى والآخرون	توفيق الحكيم
● سياحة غرامية	محمود عوض
● تاريخ للبيع	محسن محمد
● كـــلام فارغ	أحمـــد رجب
● عبد الباقى وبناته	فتحى أبو الفضل

- الصحافة الملعونة — موسى صبرى
- على الارض السلام — صبحى الجيار
- زهرة قرنفل حمراء — عبد المنعم الصاوى
- الوجه والقناع — ابراهيم المصرى
- على باب الله — جاذبية صدقى
- العاصية — أحمد الصاوى
- رجل من الامس — عباس الاسوانى
- على حافة الخطيئة — محمد زكى عبد القادر
- بحر الذنـوب — عبد الله الطوخى
- الحفيـــــد — عبد الحميد جودة السحار
- ٣ أيـــام — عبد الوهاب داود
- قصة ملك و٤ وزارات — موسى صبرى
- ساعة النصر — ابراهيم المصرى
- أنا والقانون •• والفن — توفيق الحكيم
- فلاسفة وصعاليك — محمد فهمى عبد اللطيف
- مذكرات اللورد كيلرن — كمال عبد الرؤوف
- لا تغسلوا الوحل — فتحى أبو الفضل
- آخر العنقود — يوسف الشارونى

- ولا عجيب الا الصين — محسن محمد
- الســـاعة ١٤٠٥ — صلاح قبضايا
- اكليل من العـــار — أمين يوسف غراب
- حياتهم بلا خجـــل — محمد تبارك
- مغامرات صحفي في قاع المجتمع المصري (طبعة ثانية) — عبد العاطي حامد
- الزوجة الهـــاربة — جيلان حمزة
- دنيا عجيبة من القطب الى سور الصين — محمد مصطفى غنيم
- حول العالم مع الطب والاطباء — صلاح جلال
- بائع الاحـــلام — محمود كامل
- رقم ٤ يأمركم — نهاد شريف
- سنة أولى سجن (طبعة ثالثة) — مصطفى أمين
- حمارى الفيلسوف — توفيق الحكيم
- بوابة المتولى — جاذبية صدقي
- هو ٠٠ والنساء والحب — حسين القباني
- دفاع عن الزوجات — محسن محمد

طبع بمطابع أخبار اليوم



هذا الكتاب

ميزة هذا الكتاب أن المؤلف عالج موضوع ثورة ١٩١٩ على أساس منهج علمي لا على أساس مجرد سرد الحوادث حسب توقيت وقوعها . وهذا المنهج يقوم على أربع مراحل مع التحليل والتعديل للاحداث :

المرحلة الاولى : تناولت ايضاح الخلفية السياسية، والمشاعر والانفعالات منذ هزيمة عرابى واحتلال الانجليز لمصر .

المرحلة الثانية : ظهور الامل الحافز للثورة ..

المرحلة الثالثة : ظهور الزعيم سعد زغلول الذى ألهب المشاعر بخطبه ونشاطه وتكوين الوفد .

المرحلة الرابعة : الشرارة التى فجرت الثورة .. اعتقال الزعيم ونفيه .

وفى الكتاب وصف دقيق لاحداث هذه الثورة الشعبية العارمة الكاملة التى شملت كل الطبقات والفئات والافراد ، فكان المصريون لاول مرة صفا واحدا فى تضامنهم وكفاحهم وفدائيتهم ، مسلمين وأقباطا ، رجالا ونساء ، شبانا وشيبا .

وحسب الثورة فخرا وخلودا انها نجحت - بعد شهر واحد من قيامها - فحققت أول أهدافها وهو الافراج عن الزعيم سعد زغلول اذ اضطرت الى ذلك الحكومة الانجليزية التى عجزت عن اخماد الثورة .

ونجحت الثورة مرة ثانيـة حين أجمع المصريون على مقاطعة لجنة ملنر التى جاءت الى مصر للتحقيق فى أسباب الثورة ..

ونجحت الثورة مرة ثالثة حين اضطرت لجنة ملنر اضطرارا الى الاتصال بالزعيم سعد زغلول ودعوته للمفاوضة معها فى لندن .

وفى الكتاب القادم أسرار تذاع لاول مرة عن جهاد الزعيم فى أوربا وباريس وانجلترا نفسها وصراعه الجبار مع ملنر ولجنته لتحقيق آمال مصر فى الحرية والسيادة والاستقلال والحياة الكريمة ..



الثمن ٢٥ قرشاً